HOLLYWOOD

# ضريبة هوليود

## ماذا يدفع العرب والمسلمون للظهور في الشاشات العالمية ؟



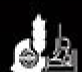



HOLLYWOOD

# ضريبة هوليود

ماذا يدفع العرب والمسلمون للظهور في الشاشات العالمية ؟

أحمد دعدوش




# ضريبة هوليود

ماذا يدفع العرب والمسلمون للظهور في الشاشات العالمية



تأليف

أحمد دعدوش

# الإهداء

إلى كل من دفع الضريبة..
ومن أجبرنا على دفع أضعافها..
ومن رفض أن يدفع شيئاً منها..
ومن أنقذنا من دفع ما هو أقل.
إلى كل من قرأ وعلّق وأضاف وصوّب..
إلى كل من فهم..
ومن حاول أن يفهم.
إلى الأجيال القادمة..
من يدفع منهم..
ومن يرفض الدفع..
ومن يحلم بأن يقبض شيئاً ذات يوم.
إلى كل من تشرفوا بتجربة عمر الشريف..
ومن سيعقد العزم يوماً لحمل رسالة مصطفى العقاد.
أقدم اعتراضي وصراخي، وأهدي امتناني وثنائي..
أحمد

# المقدمة

عندما نتحدث عن هوليود فحديثنا لا يكون عن مجرد ضاحية من ضواحي لوس أنجلوس، ولا حتى عن مركز صناعة السينما والإعلام في الولايات المتحدة، بل عن عاصمة هذه الصناعة في العالم كله، والتي تصدّر منتجاتها إلى أكثر من مئة وخمسين دولة، فمع أن ملايين الدولارات تُضخ كل عام في مراكز سينمائية أخرى في العالم، مثل الهند والصين وفرنسا وبريطانيا، ومع أن (بوليود) الهندية تنتج وحدها نحو ضعف عدد الأفلام التي تنتجها هوليود سنوياً[1]، تبقى هوليود هي الوحيدة القادرة على تصدير جميع منتجاتها، وبغض النظر عن قيمتها ومضمونها، إلى معظم دول العالم، لذا فإن كل من يعمل فيها أو ينتقل إليها، وكل ما يُنتَج في استوديوهاتها أو يتمكن من الوصول إليها من الخارج، فإنه يُعطى صفة العالمية.

ولما كانت منافسة مراكز صناعة السينما الأخرى ليست واردة في الوقت الحاضر أو المستقبل المنظور، فستظل هوليود محط أنظار جميع العاملين في هذه الصناعة والمهتمين بمنتجاتها، وكما تخطّى الدولار الأمريكي حدود الدولة التي يُطبع فيها ويمثل قوتها الاقتصادية ليصبح في الوقت نفسه عملة العالم؛ فقد تخطت هوليود أيضاً حدودها الجغرافية مع أنها محكومة بسياسة الدولة التي تقع فيها وثقافتها، وهذه هي أبرز ملامح العولمة الثقافية التي نعيشها اليوم، والتي تعطي من يملك السلاح الأقوى والاقتصاد الأضخم الحقَّ في فرض وجهة نظره ورؤيته وفلسفته على الآخرين بما يحقق مصالحه الخاصة.

انطلاقاً من هذه الحقائق، فإن اختراق حدود عاصمة السينما والإعلام العالميين قد لا يكون بالأمر السهل، خصوصاً عندما تأتي هذه المحاولة من قبل أشخاص لا يتفقون بالضرورة مع توجهات القوى المسيطرة، مما قد يضطرهم إلى دفع ضريبة ما، تتناسب طرداً أو عكساً مع درجة انسجام مواقفهم مع التوجهات والرؤى المسيطرة على الساحة، ومع قدرتهم على الثبات والمقاومة وترتيب الأولويات. ولأن العلاقة القائمة بين العرب والمسلمين من جهة وبين القوى المسيطرة على هوليود من جهة أخرى كانت تتسم دوماً بالصراع والتنافر، فإن احتمال دفع هذه الضريبة قد يرقى إلى درجة الضرورة.

في هذا الكتاب المختصر، نسعى إلى تسليط الضوء على هذا الجانب من علاقة العرب والمسلمين بهوليود، دون الإغراق في تفاصيل هذه العلاقة وجوانبها الأخرى والتي قد سبق للعديد من الباحثين الخوض فيها. بدءاً بالسرد التاريخي الموجز لتطورها مع التركيز على الضريبة التي يدفعها العرب والمسلمون بوصفهم الطرف الأضعف في معادلة غير متكافئة، علماً بأننا لا نهدف في هذا الكتاب إلى حصر جميع التفاصيل التي تتعلق بموضوعه، بل نهتم بالتعمق في تحليل بعض الأمثلة التي نجدها نموذجية، بهدف الارتقاء بوعي القارئ لفهم أبعاد القضية المطروحة، وتدريبه بصرياً على المشاهدة الواعية في المستقبل ليتجنب الوقوع في أسر الرسائل غير المباشرة والصور النمطية، مع تركيزنا على السنوات الأخيرة من تاريخ العلاقة المذكورة والتي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام 2001، حيث دخلت منذ تلك اللحظة مرحلة جديدة في غاية الأهمية.

كما لم نقصر اهتمامنا في بعض الأمثلة على ما تنتجه هوليود دون غيرها، خصوصاً عندما تنجح بعض الأعمال السينمائية، أياً كان مصدرها، في الوصول إلى العالمية دون المرور بعتبة هوليود.

ولا ننسى التذكير بأن دور الباحث والناقد يقتصر على جمع وتحليل المعلومات وطرح التساؤلات ومحاولة البحث عن بعض الأجوبة، لذا فإن نقدنا لتجربة أي شخص أو جهة أو دولة في هذا الكتاب لا نقصد منه المحاسبة أو الطعن أو التجريح، ولا سيما أن موضوع الكتاب يستلزم تسليط الضوء على الثغرات والنواقص دون أن يعني ذلك بالضرورة عدم الاعتراف بالجوانب الأخرى المضيئة أو التقليل من شأنها.

والله من وراء القصد.

أحمد دعدوش

# هوليود والشرق الإسلامي.. بداية غير موفقة!

# هوليود.. عاصمة الفن السابع

في مطلع القرن العشرين، بدأت السينما بشق طريقها إلى قلوب الناس الذين أُخذوا بما تعرضه تلك الآلة العجيبة من صور متحركة، وبدا واضحاً أن هذا الفن الجديد سيحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الستة التي عرفتها الشعوب السابقة بدءاً من التلوين والرسم ووصولاً إلى المسرح، وربما لم يكن قد خطر ببال رواد هذا الفن آنذاك أن يتحول فنهم إلى صناعة قائمة بذاتها، وأن تتحول أهدافها من تسجيل الأحداث اليومية إلى وسيلة لنشر الثقافة أو لبث الدعاية السياسية والإيديولوجية على النحو الذي بدا شائعاً قبل نهاية القرن.

تنازع كل من الأمريكي (توماس أديسون) والأخوان الفرنسيان (لوميير) شرف هذا الاختراع، لذا انتشرت صناعة السينما في كل من أوربا والولايات المتحدة بالتوازي وفي وقت واحد أواخر القرن التاسع عشر، وعندما اختار المخرج (سيسل بي ديميل) ضاحية هادئة من ضواحي لوس أنجلوس تسمى هوليود لتصوير فيلم (الكاوبوي) الصامت (رجل المرأة الهندية) لم يخطر ببال أحد حينها أنها ستصبح فيما بعد عاصمة لواحدة من أضخم صناعات العالم الحديث، ولتبلغ مبيعاتها في هوليود وحدها ما يقارب 85 مليار دولار كل عام.

بدأت شركات الإنتاج الناشئة بصناعة أفلامها الصامتة الأولى وعرضها على الجمهور بهدف التسلية لا غير، ووجدت الفرق المسرحية الجوالة في هوليود مهنة أكثر ربحاً وأقل جهداً. لم يحظ الممثلون بالشهرة آنذاك ولم تكن أسماؤهم تعلن على الجمهور، إلى أن أُدرج اسم الممثل (فلورنس لورنس) لأول مرة في أحد أفلامه عام 1910، ثم تطور الأمر بسرعة حتى أصبح الممثل النجمَ الأول للفيلم بدلاً من المخرج والكاتب في كثير من الأحيان.

أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها؛ وجدت السينما الأمريكية نفسها بدون منافس، فبينما انشغل الأوربيون بصناعة الأسلحة وإعادة بناء ما دمرته الحرب، ازدهرت حياة الترف في هوليود بجوها المشمس وتلالها الخضراء وقصورها الباذخة، وأصبحت قبلة المستثمرين في صناعة الترفيه والهاربين من جحيم الحرب في أوربا، أو من بقية الولايات الأمريكية التي لم تحقق سياساتها الاقتصادية أحلامهم.

وبعد انفراج أزمة الكساد الأمريكي في نهاية العشرينيات، تسارعت وتيرة الإنتاج في هوليود وأُسست فيها البنية التحتية اللازمة لمنافسة الاستوديوهات الأوربية العملاقة، والألمانية منها على وجه الخصوص، وأصبحت صناعة الترفيه قطاعاً اقتصادياً مستقلاً بذاته، يعمل فيه آلاف الموظفين من الكتاب والمخرجين والنجوم والفنيين، إلى جانب المنتجين والموزعين والإداريين المتخصصين بتنظيم أعمال هذه الصناعة، فسارعت السلطات الأمريكية إلى سن القوانين لتنظيمها، ووضعت لها عدداً من الضوابط الأخلاقية؛ مثل حظر مشاهد الإغراء والألفاظ السوقية، ثم تراجعت حدة الرقابة الأخلاقية مع التقلبات الثقافية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

وبعد مرور أكثر من قرن على اختراع آلة التصوير السينمائي، ما زالت السينما تكافح في سبيل الوفاء لبذورها الأولى في تربة الفن والإبداع، ولتحمل في ثمارها خلاصة الحس الإنساني وتفلسف العقل البشري، كما هو حال الفنون والآداب الراقية، ولكن ظروف القرن العشرين أعطت السيادة

للجوانب الأخرى التي حولت هذا الفن إلى صناعة تخضع لقواعد السوق الصارمة، وإلى وسيلة إعلامية تعكس في أحسن حالاتها ثقافة المجتمع الذي تنشأ فيه، وتتأثر بالحراك الاجتماعي وبالتقلبات السياسية والفكرية التي تعصف به، وأيضاً بالتطورات التكنولوجية والاكتشافات العلمية التي يكتسبها. لذا أصبحت هوليود البيئة الأكثر ملاءمة لغرس بذور الثقافة الأمريكية، ومن ثم لجني ثمارها وتصديرها إلى العالم كله، مما جعلها محط أنظار المهتمين بالتأثير والتغيير فضلاً عن الربح، ولتتحول هوليود من مجرد مركز للترفيه إلى ساحة للصراع بين القوى المختلفة، وإلى واحدة من أهم أذرع الدعاية الموجهة (البروباغاندا) لمصلحة الطرف الأقوى!

# كيف قدمت هوليود صورة العرب والمسلمين؟

حسب شهادة البروفسور (جاك شاهين) أستاذ الاتصال في جامعة (إلينوي الجنوبية) والمستشار السابق لشبكة (CBS) التلفزيونية لشؤون الشرق الأوسط، فإن نحو 25% من الأفلام التي أنتجتها هوليود في تاريخها تحقر بشكل أو بآخر العرب، إذ شاهد الأستاذ شاهين نحو ألف فيلم هوليودي مما أنتج بين عامي 1896 و2000م ولم يستطع أن يجد أكثر من 12 حالة إيجابية فقط للعرب والمسلمين، إلى جانب 52 حالة يصنفها على أنها معتدلة من وجهة نظره، في حين تبقى الأفلام المتبقية ذات صور سلبية ومسيئة!.. حيث لا تكاد صورة العرب والمسلمين تخرج عن إطار الصور النمطية القليلة المعروفة[2]، التي تطورت عبر مراحل مختلفة خلال القرن العشرين، ففي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اقتصرت هذه الصورة على ما يعرفه الغرب من قصص الرحالة الأوربيين وأساطيرهم عن الشرق الغامض المليء بقصص السحر والجان، حيث الصحراء الواسعة التي تملؤها عصابات قطاع الطرق وتتخللها الواحات الخضراء، والتي يكتشف فيها الرحالة الأوربي قصراً منيفاً للباشا المحاط بجَوارٍ حسناوات لا يفعلن شيئاً سوى الرقص، ولا يكتمل القصر إلا بقبو للتعذيب، وخدم يرقّصون الأفاعي على ألحان الناي. وجسدت هوليود هذه الصور النمطية بإنتاجها ما بين أربعة أفلام وستة كل عام خلال الفترة الواقعة بين عامي 1910 و1920.

ومع ظهور النفط في الربع الأول من القرن العشرين تغيرت هذه الصورة ليتحول العرب من قطاع طرق إلى ملوك نفط متخمين، وتضخمت هذه الصورة في بداية السبعينيات بعد معاناة الأمريكيين من ارتفاع أسعار النفط إثر قرار العرب بقطع إمداداته عن الغرب إبان حربهم مع الكيان الصهيوني، وهو القرار الذي أعقبه تهديد الرئيس الأمريكي (ريتشارد نيكسون) ووزير خارجيته اليهودي (هنري كيسنجر) بأنهما لن يسمحا لمجموعة من البدو المتخلفين الذين يغمسون أقدامهم في بحيرات من النفط بالتحكم في مصير أمريكا.

النفوذ الصهيوني المبكر في هوليود قام بدور كبير في تشويه صورة العرب والمسلمين، إذ بدأ هذا النفوذ بعد عامين فقط من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 مع فيلم (درايفوس)، الذي تلاه صدور عشرات الأفلام التي تكرس فكرة الهجرة إلى أرض الميعاد أو تجسد الأساطير اليهودية وتروّج لها. وبالتزامن مع حركة الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين؛ تصاعد الدعم السينمائي في هوليود لما يسمى بالقضية الصهيونية، وكانت النتيجة إنتاج عشرات الأفلام خلال العشرينيات والثلاثينيات ومنها (الوعد الكبير)، (ملك الملوك)، و(بيت أبي والشيخ)، كما اختارت المنظمة الإرهابية الصهيونية (آرجون) الكاتب والمنتج والمخرج السينمائي (بن هيشت) لتمثيلها في هوليود في منتصف الثلاثينيات.

ومع إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين عام 1948، حملت هوليود على عاتقها مهمة الترويج المجاني لنشوء هذه الدولة وإظهارها في صورة الحمل الوديع المحاط بقطيع من الذئاب، وقام بهذه المهمة عشرات الصهاينة الذين كانوا قد سيطروا بالفعل على أهم شركات الإنتاج ومحطات التلفزة، واعتمدوا سياسة الإنتاج المشترك وغير المعلن مع مركز الفيلم الحكومي

الصهيوني، ونجحت هذه السياسة في تأمين المزيد من دعم النجوم الباحثين عن الشهرة والمجد، الذين وجدوا في تعاطفهم مع إسرائيل طريقاً مضموناً للنجاح، وكان من أهم نتاجات هذه المرحلة فيلم (سيف في الصحراء) المنتج عام 1949، الذي يتنكر للدور البريطاني في قيام دولة الصهاينة، ويقدم الولاء للولايات المتحدة التي انتقل إليها مركز الثقل العالمي. كما أدّى (كيرك دوغلاس) سنة 1953 دور البطولة في فيلم (الحاوي) وهو أول فيلم يُصور على أرض فلسطين، التي يقدمها في صورة الوطن الوحيد لليهود الناجين من محارق ألمانيا النازية.

أما فيلم (الخروج) للمخرج الصهيوني (أوتو بريمنجر) فقد شبّه الفلسطينيين بالهنود الحمر الذين استحقوا الإبادة على يد الأمريكيين البيض القادمين من أوربا، ممهّداً الطريق لأفكار إبداعية أخرى في تشويه صورة العرب على مدار العقود المقبلة.

مع اندلاع حرب 1967 تكثفت جهود هوليود لدعم إسرائيل بمختلف الوسائل الممكنة، ففي فيلم (جوديث) للمخرج (دانييل مان) تُشوّه صورة السوريين إلى درجة تجعل البطل الألماني الهارب إلى سورية من الاضطهاد النازي يتحسّر على الأيام الخوالي التي قضاها في ألمانيا. ولم يكتف صهاينة هوليود بدعم كيانهم المزروع على أرض فلسطين من خلال أفلامهم، بل قام بعضهم، بقيادة (جيري لويس)، بتنظيم مظاهرات تؤيد الكيان الصهيوني خلال الحرب، ورفَعوا خلالها شعاراً في غاية الوضوح: "ادفع دولاراً.. تقتل عربياً"! كما توسعت جهود هوليود لدعم الكيان الصهيوني سياسياً، إذ لا يمكن أن نعزو الأمر إلى المصادفة عندما نعلم أن رئيس وكالة المواهب المسرحية والأدبية في هوليود (مارفن جوذفسون) هو رئيس لجنة العمل السياسي في منظمة العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية (إيباك) والتي دشنها نجم الكوميديا اليهودي (وودي آلان)، خصوصاً أنه أطلق أول نداء لجمع التبرعات في أمريكا من أجل مناصرة قضايا اليهود[3].

في منتصف السبعينيات، ومع اكتشاف فظاعة الجرائم الصهيونية في فلسطين لم يعد من الممكن الترويج لصورة اليهودي الهارب إلى أرض الميعاد من البطش النازي، فتحول الاهتمام إلى تشويه صورة العدو وترويجها في إطار الإرهاب بالتوازي مع صورة البطل الصهيوني الذي لا يقهر، ومن أهم نماذج هذه المرحلة فيلم (البرعم) المنتج عام 1975[4]. ولم ينته عقد الثمانينيات حتى أُنتج نحو ثلاثين فيلماً لترسيخ هذه الصورة النمطية للمسلم الإرهابي في أعماق اللاوعي عند المشاهد الغربي[5].

تزامن هذا التشويه مع أعمال نضالية نفذها بعض العرب والمسلمين وحملت طابعاً دولياً، مثل عملية الهجوم على الفريق الإسرائيلي في دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ عام 1972 من قبل منظمة أيلول الأسود المنشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية، والتي استلهمت منها هوليود أفلاماً كثيرة بدءاً من فيلم (الأحد الأسود) عام 1976 وصولاً إلى فيلم (ميونخ) عام 2005، ومثل اختطاف السفينة (أتيل لاورو) عام 1985 ومقتل المليونير اليهودي (كلينجوفر) على أيدي المختطفين الفلسطينيين، وهو الذي أصبح بعد مقتله شخصية محورية لعدد من الأعمال الفنية. وكذلك عملية اختطاف طائرة العال الإسرائيلية في مطار عنتيبي في أوغندا[6]، والتي أعيدت صياغتها مباشرة في هوليود من خلال ثلاثة أفلام شهيرة. هذا بالإضافة إلى حركات الانتفاضة والصراع في لبنان وحروب الخليج والصومال وأفغانستان وباكستان وغيرها من الأحداث التي لا تكاد تتوقف في هذه المنطقة المستهدفة من العالم، وهي الأحداث التي سرعان ما تنتقل إلى استوديوهات هوليود لإعادة إخراجها في أعمال سينمائية وتلفزيونية ومسرحية يشاهدها العالم كله،

ولا يظهر فيها إلا الجانب الذي يوافق هوى الطرف الأمريكي- الإسرائيلي، في حين يرمى بالحقيقة إلى عالم النسيان. وهكذا؛ ومع أن الصور النمطية المسيئة لليهود في الأدب والمسرح الأوربيين طوال عدة قرون كانت مترسّخة، فقد نجح الصهاينة وبسرعة قياسية في قلب الطاولة في وجه العالم الغربي وتقديم إسرائيل المعصومة عن الخطأ إحدى أهم المسلّمات المتفق عليها في هوليود، التي لا يمكن خرقها تحت أي مسوّغ كان، وإذا كان أفلاطون قد أعلن في القرن الرابع قبل الميلاد أن «الذين يحكون القصص هم الذين يتحكمون في المجتمع» فمن المقبول إذن تفهّم الدور الذي يؤدّيه اليوم صنّاع السينما والإعلام في التحكم بالرأي العام العالمي.

في بداية العقد الأخير من القرن العشرين شهد العالم أحداثاً كبرى غيرت مجرى التاريخ، فبعد سقوط القطب الشيوعي توجهت أنظار الغرب إلى الإسلام بصفته العدو الأول في ساحة الصراع الاستراتيجي، وتزامن ذلك مع اندلاع حرب الخليج الثانية وإعلان الولايات المتحدة سيادتها على النظام الدولي الجديد. في الوقت نفسه حقق تطور التقنيات السينمائية قفزات قياسية، وأحسنت هوليود استغلالها في إنتاج العديد من الأفلام الضخمة التي واصلت مهمة تنميط صورة (الإرهاب الإسلامي) بما يتناسب مع تطورات المرحلة، ومن أشهر هذه الأفلام فيلم (أكاذيب حقيقية) سنة 1994 وفيلم (الحصار) سنة 1998.

مع ذلك؛ شهدت المرحلة نفسها تحولاً جديداً في علاقة هوليود بالعرب والمسلمين، إذ بدأت مفاوضات السلام بين الإسرائيليين والعرب تؤتي ثمارها، كما أحدثت حرب الخليج، والتي نُقلت أحداثها مباشرة عبر أخبار (CNN) للمرة الأولى في تاريخ التلفزيون، وعياً جديداً في الشارع الأمريكي تجاه الصراع الخارجي، إذ تؤدي الحروب عادة إلى نوع من الاحتكاك مع الآخر والمفضي إلى قليل من الحوار والانفتاح، وهكذا أصبح من الممكن ظهور أدوار عربية طبيعية أو حتى إيجابية، ففي فيلم (قبلة الليل الطويل) (1996) يُتهم أحد العرب ظلماً بتهمة الإرهاب، وفي فيلم (جريمة كاملة) (1998) يحرص المحقق العربي- الأمريكي على كشف الحقيقة والوقوف إلى جانب سيدة أمريكية مهددة بالقتل على يد زوجها، أما فيلم (روبن هود أمير اللصوص) فيُظهر العربي في صورة نموذجية للأمانة والنبل، وبلغت هذه الصورة نضجها التام عندما مثّل (أنتونيو بانديراس) رحلة الفارس العربي المتحضر إلى شمال أوربا المتخلفة في فيلم (المحارب الثالث عشر) (1999). ومنذ ذلك الحين أصبح من الممكن رؤية صورتين متوازيتين، وغير متكافئتين بالطبع، للشخصية العربية المسلمة في هوليود، وكان من الممكن للصورة الإيجابية أن تشق طريقها بسرعة لولا تدهور العلاقات السياسية وانقلاب الموازين.

ففي مطلع الألفية الجديدة استأنفت هوليود مرحلة جديدة من الدعاية الممنهجة بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والتي ما زالت الشكوك تحوم حول صحة نسبتها إلى المسلمين، ولكن هذه الشكوك لم تقف حائلاً دون إعلان الحرب على الإرهاب ، أو على الإسلام كما يرى كثيرون، وكان لا بد للمنتجين في هوليود من مواكبة هذا التطور في الأحداث، فبعد شهرين فقط من وقوع هجمات أيلول/سبتمبر استدعى أحد مستشاري الرئيس الأمريكي أبرز منتجي ومخرجي هوليود إلى البيت الأبيض للبحث في السبل الممكنة لإشراك هوليود في «الحرب على الإرهاب»[7]. وبالرغم من ذلك، تابعت التيارات المنشقة عن الخط العام في هوليود نموها وأثبت بعض المنتجين والمخرجين قدرتهم على الاستقلال والتحرر، وخصوصاً بعد تفاقم أزمة الوجود الأمريكي في العراق وانكشاف الكثير من أسرار "الحرب على الإرهاب"، كما أن التنميط السطحي

والسخيف لكل ما هو عربي مسلم لم يعد مقبولاً كما كان في الماضي، مع أنه مستمر في بعض الأفلام، حيث قامت أدوات العولمة وثورة الاتصالات بدورها في الانفتاح على الشعوب الأخرى وإعادة تقييم الصور النمطية المسبقة بشيء من الموضوعية والاعتدال.

# عرب ومسلمون أمريكيون في هوليود.. النجاح أولاً!

كما هو الحال مع الأقليات الأخرى المكوّنة لنسيج المجتمع الأمريكي، هاجر الآلاف من العرب والمسلمين الطامحين إلى بدء حياة جديدة في أرض الأحلام منذ أكثر من مئة وخمسين سنة، وتوطنوا في ولايات أمريكية عديدة من أهمها: متشغان، كالفورنيا، فلوريدا، ثم اندمجوا كغيرهم في ذلك المجتمع الناشئ مع خليط الأعراق والأديان المختلفة.

وتعد الجالية العربية من أكثر المجموعات العرقية نجاحاً في أمريكا، إذ يحمل أكثر من ثلث أبنائها درجات تعليمية عالية، ويعمل 65% منهم في أعمال وظيفية دائمة، كما يعمل 73% من هؤلاء في وظائف إدارية أو تقنية أو في المبيعات، ويحصلون على دخل يزيد بنسبة 22% عن معدل الدخل على المستوى الوطني.

لذا كان من الطبيعي أن يتطلع بعض أبناء هذه الجالية كبقية أبناء شعبهم الأمريكي إلى النجومية في هوليود، ومع أن ثقافة الولايات المتحدة قامت منذ تأسيسها على مبادئ الحرية والمساواة في الفرص، التي تستلزم فتح أبواب هوليود لمن يملك الأهلية والكفاءة، فإن تحقيق هذه المبادئ لم يكن دائماً على هذا النحو المثالي.

## تاريخ حافل بالنجاح

قد يتعذر على الباحث حصر جميع الأسماء العربية التي نجحت في هوليود، إلا أن عدداً لا بأس به من هؤلاء تمكن من تحقيق درجة متقدمة من الشهرة والنجاح، كما حاز عدد منهم على جائزة الأوسكار أو ترشح لها، فضلاً عن جوائز أخرى رفيعة.

نبدأ استعراضنا لبعض النماذج الناجحة في هوليود مع الكوميدي (داني توماس)، الذي هاجر والده من بلدة الكاتب اللبناني المعروف جبران (بشرّي) إلى الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين، وأطلق على أحد أبنائه الأربعة اسم مزيد، وهو الذي ظهرت عليه بوادر الموهبة منذ الصغر، فقرر احتراف الكوميديا الإلقائية وغيّر اسمه إلى (داني توماس)، ثم استفاد من تجربة زملائه المتحدرين من أقليات أخرى كالإيرلنديين والإيطاليين الذين يستمدون نكاتهم من أصولهم العرقية، فابتكر شخصية (العم طنوس)، وأخذ يستمد نكاته من صعوبات والده المهاجر في العثور على عمل على الرغم من الفقر والجهل باللغة والبيئة، ومع انتشار الاختراع الجديد (التلفزيون) تمكن داني من الدخول إلى بيوت الأمريكيين والاستحواذ على قلوبهم في الستينيات والسبعينيات، وجمع ثروة كبيرة سخّر قسماً كبيراً منها لتأسيس مستشفى (سانت جود) الخيري لعلاج وأبحاث السرطان في أمريكا، ولتعلقه بجذوره العربية أوصى داني بأن تبقى نسبة 70% من أعضاء مجلس إدارة المستشفى من أصول عربية. وقبل وفاته في مطلع التسعينيات دفع بابنته ( مارلو ) إلى التمثيل أيضاً في هوليود، وكان داني قد فاز بجائزة آيمي التلفزيونية، كما فازت ابنته (مارلو) بها مرتين.

وطوال القرن العشرين، تتابعت الأسماء ذات الأصول العربية في الظهور، ونذكر منها الممثل اللبناني الأصل (جورج نادر) بطل أفلام المغامرات في الخمسينيات والستينيات، والممثل السوري الأصل (مايكل عنصرة) الذي بدأ العمل في فيلم (Action in Arabia) سنة 1944، ثم اشتهر بتمثيل أدوار الهنود الحمر، ويُحسب له رفض تمثيل الشخصيات العربية الناطقة باستثناء دور (أبي سفيان) في فيلم (الرسالة)، والممثل (مايكل نوري) المتحدر من أصول لبنانية والذي كانت له بطولة فيلم (Flash Dance) كما ظهر في المسلسل التلفزيوني (يوميات رجل عصابات)، والممثلين (جيمي فار) (فرح) و(فيك تيباك) (طباخ)، أما الأسماء النسائية فاشتهرت منها كل من الممثلات (كاثي نجمي) و(آمي يزبك ) و(ويندي مالك) و(كريستين الحاج).

وفي السنوات الأخيرة لمع اسم الراقصة (بولا عبدول) ذات الأصول السورية اليهودية، والممثلة البريطانية (جابرييل أنور) ابنة المونتير هندي الأصل ( طارق أنور )، والتي صُنفت في قوائم أجمل نساء العالم، وأدّت أدواراً مهمة؛ ومنها دور (إيملي) التي تسعى بصحبة المغامر (فلِن) إلى البحث عن كنوز النبي سليمان عليه السلام في فيلم (العودة إلى مناجم الملك سليمان) (The Librarian) المنتج عام 2006[8]. كما نذكر الممثلة (سارة شاهي) ذات الأصل الإيراني والتي ظهرت في بعض المشاهد الساخنة، مما أثار استياء بعض الإيرانيين الأمريكيين الذين يرون أنها لا تمثلهم، أما الممثلة الشابة شانون إليزابيث فأثارت استياءً أكبر عندما أشارت وسائل الإعلام الأمريكية إلى أنها من أصل سوري- لبناني، حيث رأى بعض أتباع الجاليتين أنها تسيء إلى سمعتهم عندما تتسلق سلم الشهرة بالتعري[9].

# جوائز عالمية

بالانتقال إلى قائمة الأوسكار، نجد عدداً لا بأس به من الأمريكيين ذوي الأصول العربية أو الإسلامية الذين رُشحوا لها أو فازوا بها، ونبدأ مع إميل كوري (Emile kuri) مصمم الديكور الشهير والحائز على جائزة الأوسكار مرتين عن فيلمين هما: (الوارثة) عام 1949 و (20 ألف فرسخ تحت الماء) عام 1954، كما رشح (كوري) للجائزة نفسها ست مرات أخرى خلال الخمسينيات والستينيات، ونذكر أيضاً المنتج رونالد شويري (Ronald Schwary) الذي حصل فيلمه (أناس عاديون) على جائزة أفضل فيلم عام 1980، كما رشح فيلمه (قصة جندي) للجائزة نفسها عام 1984، ورشحت أفلامه (عطر امرأة)، (توتسي) و(لقاء جو بلاك) لعدة جوائز أوسكار.

أما الكاتبة كالي خوري (callie khourie) ففازت بالأوسكار لأفضل سيناريو أصلي عن فيلمها (ثيلما ولويز)، كما فاز الموسيقي بول جبارة (Paul Jabara) بالأوسكار لأفضل أغنية عن فيلم ( شكراً للرب إنه يوم الجمعة )، ولمع اسم المخرج والكاتب وليام بيتر بلاطي (William Peter Blatty) الذي رُشح فيلمه الشهير ( طارد الأرواح الشريرة ) عام 1973 لعشر جوائز أوسكار، وفاز باثنتين منها حيث ذهبت إحداهما إلى وليام عن فئة أفضل سيناريو[10].

وفي عام 1984 أدى الممثل (ف. موراي أبراهام) واحداً من أنجح الأدوار في تاريخ السينما مجسداً شخصية (أنتونيو سيليري) الذي عاش صراعاً مريراً بين الحقد على الموسيقار الناشئ موتزارت وبين تقبل فنه المبدع بحسه المرهف، وذلك في الفيلم الشهير (أماديوس) والذي مُنح لأجله جائزة الأوسكار عن فئة أفضل ممثل، إضافة إلى جائزة الكرة الذهبية (الغولدن غلوب)، ولكنه تراجع بعدها عن النجومية ولم يحصل على أي دور لافتٍ منذ ذلك الحين، ومن الجدير بالذكر أن والد (أبراهام) هاجر من سورية في مطلع القرن وأطلق على ابنه اسم فريد، ولكن فريد اختار الإشارة إلى اسمه بالحرف الأول ثم تغيير اسم والده من مرعي إلى موراي.

وينضم إلى قائمة الجوائز الكبرى أيضاً النجم التلفزيوني والسينمائي (توني شلهوب) ذو الأصول اللبنانية، الذي اشتهر بدور (أدريان مونك) في المسلسل الذي حمل اسمه (مونك) وفاز من خلاله بجائزة (الأيمي) ثلاث مرات على أنه أفضل ممثل في مسلسل كوميدي خلال أعوام 2003، 2005، 2006، إضافة إلى جائزة (الغولدن غلوب) عام 2003 لأفضل ممثل في مسلسل كوميدي، وجائزة نقابة ممثلي الشاشة مرتين بوصفه أفضل ممثل في مسلسل كوميدي عامي 2004 و2005.

ومن الجدير بالذكر أن معظم هؤلاء الناجحين ينتمون إلى طوائف غير مسلمة، ربما لكون أتباعها أكثر قدرة على الاندماج والقبول في هوليود، أو لأن بعض التقديرات تشير إلى أن نحو ثلاثة أرباع الأمريكيين العرب هم من المسيحيين واليهود.

ومن الملاحظ أن معظمهم اندمجوا في المجتمع الأمريكي كبقية زملائهم المتحدرين من أصول وعرقيات مختلفة، وربما نسي أو أخفى كثيرون منهم هويتهم الأصلية، كما لم يحملوا من بلاد أسلافهم رسالة ما يدافعون عنها في هوليود، ولم يسخّروا مواهبهم لإبراز أي خصوصية لهويتهم

تتعدى بعض مشاعر الحنين إلى الوطن الأم الذي عرفوه في حكايا الأجداد، ولم يكونوا في غالب الأحيان أكثر من طامحين إلى النجومية والنجاح والثروة، وأحياناً إلى إنشاء بعض الأعمال الخيرية والإنسانية، دون أن يحملوا على عاتقهم أي عبء آخر من قبيل ذاك العبء الذي حمله زملاء آخرون من أقليات مختلفة، وعلى رأسهم اليهود الذين سخّروا هوليود لمصلحة قضيتهم المشتركة**!**

# عرب ومسلمون يهاجرون إلى هوليود.. ما الذي تغير؟!

بعد الحرب العالمية الأولى، استحوذت هوليود على نصيب الأسد من الإنتاج السينمائي العالمي، وباتت أفلامها هي الأكثر انتشاراً في العالم كله، ومع أن صناعة السينما كانت قد نهضت في أوربا والهند والصين بعد ذلك، إلا أن هوليود قطعت شوطاً لم يعد من السهل اللحاق به، حتى أصبح نجومها بمنزلة العلامة التجارية الناجحة التي يستثمرها المنتجون ويتفوقون بها على جميع المنافسين حول العالم، حيث لم يكتب النجاح للكثير من الأفلام الرائعة التي أنتجت في أوربا وغيرها في منافسة أفلام هوليود، حتى إن تساوت معها في جميع المعايير الفنية والإبداعية. وهكذا أصبحت هوليود قِبلة للناجحين في صناعة السينما من الاختصاصات كافة، الذين تستقطبهم من أنحاء العالم كافة، وكان منهم بالطبع عرب ومسلمون.

وكما مرّ معنا في الفصل السابق، فإن معظم الأمريكيين من ذوي الأصول العربية والإسلامية لم ينجحوا -وربما لم يحاولوا- في تشكيل طبقة أو (لوبي) لتوحيد مواقف خاصة بهم في هوليود التي تمكنوا من تسلق سلم الشهرة والنجومية فيها، شأنهم في ذلك شأن الدول التي هاجر أجدادهم منها، وإذا كان ذلك يعود في الأساس إلى كونهم قد نشؤوا في المجتمع الأمريكي وتشبعوا بثقافته واندمجوا فيه، فيحق لنا أن نتوقع من زملائهم المهاجرين الجدد موقفاً آخر.

## محمد يقطين يفتتح سلسلة المهاجرين العرب

يُحسب اكتشاف أول ممثل عربي هاجر إلى هوليود للناقد اللبناني محمد رضا عندما عثر على اسم (فرانك لاكتين) بالمصادفة بعد موته بنحو خمس وثلاثين سنة[11]، وقادت هذه المصادفة رضا في رحلة بحثه عن الممثل الراحل من هوليود إلى قرية (قب إلياس) اللبنانية، إذ تبين له أن هذا الممثل المغمور الذي شارك في الكثير من الأفلام الصامتة حتى منتصف القرن العشرين ليس إلا (محمد يقطين)، الذي ولد في لبنان سنة 1879 وهاجر مع أمّه وأحد إخوته في مطلع القرن العشرين إلى الولايات المتحدة هرباً من خلافات عائلية، ثم ظهر على الشاشة في 189 فيلماً كان أولها فيلم (التهديد الأصفر / The Yellow Menace) سنة 1916، وآخرها (قدّاس لمقاتل / Requiem for A Gunfighter) سنة 1965، وهو الفيلم الذي سبق وفاته بثلاث سنين عن عمر يناهز السبعين سنة.

ويذكر رضا أن الراحل كان قد اعتاد على تمثيل شخصيات أجنبية عدّة؛ فهو مكسيكي في (سهم الانتقام) (1921)، وإيطالي في (الرامي الأخضر) (1925)، وصيني في (التحذير) (1927)، إلى جانب ظهوره عشرات المرّات في دور هندي أحمر أو هندي شرقي، أو حتى عربي، وكانت أدواره لا تحمل اسماً في كثير من الأحيان، كما أن معظمها كان ثانوياً أو غير ناطق، وقد لا يتجاوز دوره أحياناً الظهور في لقطة واحدة، بل إن اسمه لم يُذكر في الكثير من الأفلام التي ظهر فيها!

ويبدو أن الضريبة التي دفعها أول ممثل عربي يهاجر إلى هوليود لم تقتصر على تهميشه حتى آخر أيام حياته، بل يبدو أنه لم يجد ما يمنع ظهوره في دور العربي الشرير منذ تلك الأيام الأولى في تاريخ السينما، وكأنه يدشن بذلك -عن غير قصد- طريق من تلاه من الهوليوديين العرب الذين ساعدوا على تكريس تلك الصور النمطية. ففي فيلم (طرزان الشجاع / Tarzan The Fearless) المنتج عام 1933 يقوم محمد يقطين بدور العربي الشرير (عبدل) الذي يحضّ سيده الأمير على خطف الفتاة الجميلة (جاكولين وَلز) أثناء بحثها عن الحيوانات في الغابة، لينقذها البطل طرزان من قبضته.

وفي الفترة نفسها، تمكن ممثل عربي آخر من الوصول إلى هوليود، وظل محصوراً أيضاً في أدوار هامشية، وهو جميل حسّون المولود في سورية سنة 1901 والمتوفى عن 90 سنة في عام 1992، وكان أول ظهور له في فيلم (فكرة امرأة) الذي عرض سنة 1929 بعد انتهاء حقبة السينما الصامتة بسنتين، ومع أنه حصل على أدوار أكثر أهمية وشارك في فيلمي (كازابلانكا) و(السندباد البحّار) لم يظهر اسمه العربي على الشاشة إلى جانب الممثلين الآخرين![12].

## عمر الشريف.. أول من يطرق باب النجومية

وُلد عمر الشريف سنة 1932 باسم ميشيل ديمتري شلهوب في عائلة كاثوليكية ثرية هاجرت أصولها من سورية إلى الإسكندرية، وانتسب في صغره إلى مدارس فرنسية وإنجليزية داخلية مما ساعده على إتقان اللغتين في وقت مبكر، وتصادف أن يتعرف زميله يوسف شاهين في المدرسة نفسها، وأن ينشأ كل منهما على حب الفن، فبدأ ميشيل بتقديم بعض تجاربه على المسرح قبل أن يتجاوز الثانية عشرة، في حين سافر شاهين إلى الولايات المتحدة لتعلم الإخراج السينمائي، وعند عودته إلى مصر قدّم لزميله القديم دور البطولة أمام فاتن حمامة في فيلم (صراع في الوادي) (1954)، وابتدأت بذلك علاقة متينة جعلت منهما ثنائياً ناجحاً، ودفعت بميشيل إلى اعتناق الإسلام وتغيير اسمه إلى عمر الشريف للزواج من فاتن عام 1958.

وفي عام 1962 قرر المخرج البريطاني المعروف (ديفيد لين) إسناد دور ثانوي في فيلمه (لورنس العرب) إلى ممثل عربي يتقن الإنجليزية[13]، ولم تكن أدوار العرب تُسند إلى ممثلين عرب آنذاك باستثناء (الكومبارس) الذين يمثلون دور العرب الأشرار في أثناء تصوير بعض الأفلام في تونس والمغرب، ولكن موهبة عمر الشريف أقنعت (ديفيد لين) فقرر منحه دوراً أكثر أهمية كان سيُسند إلى ممثل بريطاني، وهو أول دور مهم في هوليود يقوم به ممثل عربي لم يولد داخل الولايات المتحدة، واستحق الشريف هذه الأسبقية بجدارة بأدائه المقنع لدور الشيخ علي أمام النجم الإيرلندي (بيتر أوتول)، ورُشح عن هذا الدور لجائزة الأوسكار عن فئة أفضل ممثل مساعد، ومع أنه لم يفُز بها فقد فاز بجائزة (الجولدن جلوب) عن الفئة ذاتها.

يحكي الفيلم قصة الثورة العربية ضد العثمانيين في الجزيرة العربية بمساعدة البريطانيين، حيث عمل الضابط الإنجليزي (لورنس) وسيطاً بين البريطانيين والعرب لتحقيق الانفصال عن الأتراك تحت اسم الاستقلال، وحرص الفيلم على تقديم شخصية (لورنس) المثيرة للجدل في صورة المخلّص الذي أُرسل بمهمة سامية لتحرير قبائل البدو من الاضطهاد، والذي يبذل الكثير من الجهد لتوحيد صفهم وإقناعهم بالتخلي عن رؤيتهم الوحشية للحرب بوصفها وسيلة للنهب واسترقاق الأسرى. وقد صُور الفيلم في صحاري الأردن والمغرب، وفاز بسبع جوائز أوسكار كانت من بينها جائزة أفضل فيلم وأفضل مخرج، وما زال يُصنف حتى الآن ضمن قائمة أفضل عشرة أفلام في تاريخ هوليود، مما ساعد على ترسيخ الصور النمطية للعرب والمسلمين، والذين ظهروا في هيئة وحوش يرتكبون القتل لأتفه الأسباب وقلوبهم بلا رحمة حتى مع أطفالهم، فضلاً عن قبح مظهرهم وبدائية معيشتهم في الصحاري القاحلة[14]، ولكن ذلك لم يمنع بعض الصحف العربية من الاحتفاء بنجاح عمر الشريف في الوصول إلى هوليود عبر هذا الفيلم!

استقر عمر الشريف في هوليود إثر هذا النجاح وتابع العمل مع المخرج نفسه، فقام بدور البطولة في فيلم (دكتور زيفاغو) عام 1965 الذي نال الكثير من إعجاب النقاد مع أنه لم يُرشح للأوسكار، ثم تنوعت الأدوار التي أسندت إليه بسبب لكنته غير الأصلية في كل من الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، فأدى دور الثائر اليوغسلافي (دافيش) في فيلم (الرولز رويس الصفراء) (1964)، وابن الزعيم الأفغاني في فيلم (الفرسان)، والأمير النمساوي الذي يموت من أجل حبيبته في فيلم

(أماير لينج)، والجنرال النازي (جرو) الذي يحقق في جريمة جنسية ارتكبها جنرال ألماني في فيلم (ليلة الجنرالات) (1967)، كما أدى دور الثائر الشيوعي (تشي غيفارا) في فيلم (تشي) عام 1969 مع عدم وجود أي شبه في الملامح[15]، بل أُسند إليه في بعض الأحيان دور شخص ياباني، وكأنه بات مرشحاً للأدوار التي تتطلب لكنة إنجليزية غير محلية وبغض النظر عن الاعتبارات الأخرى!

استمر عمل الشريف في هوليود وباريس حتى نهاية الثمانينيات، وظل طوال هذه العقود النجم العربي الوحيد الذي تمكن من تحقيق العالمية، والقدوة الأعلى للشباب العرب الذين يطمحون إلى النجومية في هوليود. ولكن هل تحقق له كل هذا النجاح مجاناً ومن دون ضريبة؟ وهل كان يمثل العرب والمسلمين حقاً في عاصمة السينما العالمية؟

اعترف عمر الشريف في لقاء نشرته جريدة الأخبار بأنه «التزم الصمت كثيراً عندما تعامل مع اليهود في هوليود، حتى يكمل مشوار العالمية. ولأنّ دفاعه عن بلده في تلك الظروف كان يعني عودته إلى القاهرة من جديد»، ولكنه يرى في المقابل «أنّ هذا الصمت وفّر له التعبير عن حضارة بلده، عندما أصبح الممثل المصري الأشهر في أوربا وأمريكا، وهو ما يشجع النجوم الأجانب على المشاركة في مهرجان القاهرة فقط من أجل عمر الشريف»، وقد يعني ذلك أن المكسب الوحيد الذي حققه كان في تشجيع النجوم الأجانب على تشريف العرب بالمشاركة في مهرجان القاهرة السينمائي!

ومن الجدير بالذكر أن عمر الشريف كان قد أثار غضب الصحافة العربية عندما قبّل شفتي الممثلة اليهودية (باربرا سترايسند) في فيلم (فتاة مرحة) عام 1968، وكان ذلك بعد سنة واحدة فقط من حرب 1967 التي تمثل ذكرى مريرة للعرب، خصوصاً أن (سترايسند) لم تُخفِ دعمها لدولة الكيان الصهيوني، مما دفع مكتب مقاطعة إسرائيل إلى حظر الفيلم في الدول العربية.

كما تتالت الانتقادات لعمر الشريف منذ انتقاله إلى هوليود وانفصاله عن زوجته فاتن حمامة التي كسبت قلوب الكثيرين، واتهمه البعض بالاندماج في مجتمع النخبة في هوليود متجرداً من كل ما يمت إلى أصوله بصلة، حيث قدمه الإعلام الغربي في صورة (دونجوان) عربي، يحمل كأس النبيذ ويحترف اللعب بالورق (البريدج) ويتنقل بين الفنادق الفاخرة بصحبة الجميلات، ومن اللافت أن عمر الشريف أعرب عن ندمه أكثر من مرة بعد عودته إلى مصر في السنوات الأخيرة، إذ يقول في إحدى لقاءاته: «في عام 1969 كنت أفكر في الزواج مرة أخرى، ولكن خسرت أموالاً كثيرة.. بل خسرت كل شيء من أسهمي ومدخراتي، عندما انهار سوق الأوراق المالية الأمريكية، ولأول مرة في حياتي بدأت أواجه مشكلات مادية، وأعترف بأنني كسبت أموالاً طائلة ولكن صرفتها.. لأنني كنت أتصرف كأحد نجوم السينما، الذين يبعثرون أموالهم بسهولة.. فكان لا بد أن أغير أسلوب حياتي، وأتوقف نهائياً عن المقامرة»، ويضيف أيضاً أنه وقع في غرام نجمات أفلامه لبعض الوقت، ويخص بالذكر باربرا سترايسند وآفا غاردنر وإنغريد برغمان وأنوك إيميه[16].

ويقول في لقاء تلفزيوني على قناة العربية: «يا ريت الواحد كان يبقى فيه إمكانية يغير حياته، للأسف الواحد ما يقدر يغير حياته وما يقدرش يعرف لو غيّر حياته كانت رح تبقى أحسن أو أسوأ، يعني أنا النهار دا أفكر لو ما كنتش عملت لورنس العرب ده كنت سعيد أنا كنت قاعد في مصر، وأستاذ ومتجوز وسعيد في زواجي، لما سافرت وتشهرت ما قدرتش بقا أرجع أعمل أفلام عربي

تاني، فدخلت في جو ما كنتش منتظره بقيت في هوليود وكدا وبيدفعوا لي فلوس كويس قوي، والواحد طبعاً اللي يمثل كلمة هوليود دي تغريه، كل واحد يحلم إحنا لما كنا صغيرين في مصر كنت بروح سينما كل يوم أنا نفسي أبقى زي دا، نفسي أبقى زي ده، فلما حصل إني بقيت زي دا نسيت نفسي»[17].

كما أطلق الشريف مفاجأة أكبر في السنوات الأخيرة حول مواقفه السياسية، عندما أعلن في المؤتمر السنوي للجنة العربية الأميركية لمكافحة التمييز العنصري، أنه أثناء وجوده في باريس قبل نحو 30 عاماً، تلقى مكالمة هاتفية من السادات طلب منه فيها أن يحاول معرفة وجهة النظر الإسرائيلية بشأن إمكانية سفره إلى إسرائيل تمهيداً لعقد المصالحة. فما كان منه إلا أن توجه على الفور إلى السفارة الإسرائيلية في باريس وطلب مقابلة السفير لأمر عاجل، وبعد اتصال فوري بالقادة في إسرائيل جاء الإعلان بالترحيب الشديد بالفكرة[18].

بناء على هذه المواقف، هاجمت بعض الصحف المصرية فكرة تولي عمر الشريف رئاسة مهرجان القاهرة السينمائي، بدعوى أنه جاهز للتطبيع مع إسرائيل، وأنه ظهر في عدة أفلام تسيء للإسلام والعرب، ولكن الشريف كان يرى دوماً أن موقفه من الأديان سيرسخ السلام والحوار بين الجميع، وهو ما دعا إليه في فيلمه (السيد إبراهيم وزهور القرآن) الذي أخرجه الفرنسي (فرانسوا ديبرون) عام 2003، وقام فيه عمر الشريف بدور شيخ مسلم يتبنى طفلاً يهودياً يتيماً ويقدم له حلولاً جاهزة من القرآن الكريم لكل مشكلات الحياة، وحاز الشريف عن هذا الدور جائزة سيزر في فئة أفضل ممثل. كما يتباهى الشريف بأن ابنه طارقاً قد تزوج ثلاث مرات من يهودية ومسيحية ومسلمة، وأن لديه حفيدين أحدهما مسلم والآخر على دين أمه البولندية اليهودية.

في السياق نفسه، لا يعوّل بعض النقاد على التحول في أدوار الشريف الأخيرة كثيراً، ومنها دور المترجم العربي المرافق لأحمد بن فضلان في فيلم (المحارب 13) (1999) وهو من الأفلام النادرة التي أظهرت المسلم في صورة حضارية مشرّفة، ودور المصري المسلم الذي يضطر إلى تقمص شخصية مسيحية هرباً من انتقام المتطرفين في فيلم (حسن ومرقص) (2008) وهو الفيلم الذي واجه الكثير من النقد حول تسطيحه لقضية التعايش بين المسلمين والمسيحيين في مصر. ومع حرص عمر الشريف على الظهور في صورة الفنان المتحرر والمؤمن بقضية الحوار بين الأديان، يشير نقاده إلى اعترافه أيضاً بأن دور (الدونجوان) لم يعد يُسند إليه إلا لتجاوزه السن المناسب! ولعل هذا ما يفسر قبوله المفاجئ بدور أمير عربي في واحد من أكثر الأفلام تحقيراً للعرب والإسلام، وهو فيلم (هيدالغو) (2004) والذي أعاد إلى الذاكرة حقبة الغباء الهوليودي المبكر في تشويه الشعوب وتزوير تقاليدها ومعتقداتها، وسيأتي الحديث عن هذا الفيلم لاحقاً.

وبغض النظر عن هذه الانتقادات فالإنصاف يستدعي الإشادة بقدرة شاب عربي في الثلاثين من عمره على الوصول إلى هوليود ومنافسة كبار نجومها، كما يُحسب له احتفاظه باسمه العربي المسلم مع أنه لم يولد به، وهو موقف لم يجرؤ عليه الكثير من الممثلين العرب الذين لم يحققوا في هوليود إلا القليل قياساً إلى نجاح عمر الشريف.

## سيد بدرية يتابع المسيرة

على خطا عمر الشريف، انطلق الشاب المصري سيد بدرية في الثمانينيات من بورسعيد إلى بوسطن ثم نيويورك ليحط رحاله أخيراً في هوليود، ومحققاً حلمه في أن يصبح ثاني ممثل مصري ينضم إلى نقابة الممثلين الأمريكيين.

في إحدى حلقات برنامج في قناة الجزيرة وجه المقدم سؤاله إلى الممثل الأمريكي المصري سيد بدرية: هل كان يعرب عن أي تحفظ عندما تُسند إليه أدوار سلبية، فأجاب على الفور: «طبعاً ما باخُدش أي حاجة كده لازم أنا أغير»، ثم تحدّث عن ضرورة تغيير هوليود من الداخل وليس من الخارج[19]، وكان كلامه مقنعاً بحق، إلا أن بدرية نفسه اعترف في وقت سابق بأن بدايته في هوليود كانت على نحو مغاير. ففي اتصال هاتفي أجراه الكاتب الأمريكي (Laurie Goodstein) مع بدرية في أثناء وقوف هذا الأخير أمام (الكاميرا) في القاهرة للقيام بدور قائد عسكري لأحد أجنحة (حزب الله)؛ اعترف بدرية بأنه عندما وصل إلى هوليود لم يكن من السهل عليه إيجاد أي عمل، لذا قرر إطالة لحيته والظهور بمظهر العربي السيئ، وعندها لم يعد يجد أي صعوبة في الاختيار بين عدة أدوار تتراوح بين الإرهابي، خاطف الطائرة، خاطف الرهائن أو المسلح الإسلامي المتطرف، وكل ما في جعبته هو لحيته السوداء ولهجته الإنجليزية الغريبة. ثم ينقل الكاتب عن بدرية قوله: «لقد لعبت في العادة دور الشخص السيئ، الإرهابي أو شيئاً مشابهاً»[20].

قد يعني ذلك أن هوليود لن تتسع إلا لعربي واحد ينجح في أدوار غير عربية وأن الباب أُغلق خلف عمر الشريف[21]، حتى في وجه سيد بدرية الذي تخرج في أكاديمية سينمائية في نيويورك، مع كونه وسيماً، كما يصف نفسه في إحدى المقابلات، مما اضطره إلى القبول بالأدوار التي تكرس الصور النمطية المسيئة إلى العرب والإسلام، فكل ما يتطلبه الأمر هو لحية سوداء وملامح شرق أوسطية ولكنة إنجليزية غريبة، إضافة إلى (كبسولة مخدّر) للضمير قد يستمر مفعولها عشرين سنة!

على أي حال، حظي بدرية في السنوات الأخيرة ببعض الأدوار التي تقع خارج دائرة الإرهاب، ثم نجح في تأسيس شركة إنتاج خاصة به في هوليود يهدف من خلالها إلى كسر تلك الحلقة المفرغة، واستغل خبرته الطويلة لإنتاج فيلم (American East) والذي شاركه في بطولته الممثل (توني شلهوب)، وتدور قصته حول معاناة ممثل مسلم (عمر) في البحث عن فرصة عمل في هوليود، وإصرار المنتجين على حشره في دائرة لا تتعدى أدوار القاتل والإرهابي، كما يطرح الفيلم إشكالية أخرى من خلال العلاقة بين ثلاثة أصدقاء من الشباب الأمريكيين: مسلم مصري ومسيحي عراقي ويهودي أمريكي، ويقدم (سيد بدرية) رؤيته الخاصة للتوافق والانسجام بين أتباع هذه الديانات، والتي رأى فيها بعض النقاد دعوة للتطبيع الساذج، إلى جانب قصة حب تدور بين شاب أمريكي وفتاة مسلمة، وموقف أهل الفتاة الرافض لهذه العلاقة، وأدت هذا الدور الممثلة ذات الأصل الإيراني (سارة شاهي) التي يعود أصلها إلى الأسرة الحاكمة سابقاً في إيران، والتي تلقى الرفض من قبل بعض المتابعين في إيران بسبب أدوارها غير المحتشمة.

وقبل أن نبالغ في تفاؤلنا بتحول بدرية عن أداء الأدوار المسيئة التي بدأ بها مسيرته الفنية، نشير إلى أنه عاد مجدداً إلى المشاركة في أحد أكثر الأفلام إساءة وتحقيراً للعرب والمسلمين عموماً، ولقضية الفلسطينيين خصوصاً، وهو فيلم (لا تعبث مع زوهان) (2008) الذي سنتحدث عنه لاحقاً، ونخشى بذلك أن يكون بدرية قد تراجع عن أهدافه المعلنة وعاد بها إلى نقطة الصفر[22]!

# المغاربة الفرنسيون ينطلقون إلى العالمية

يشكل المغاربة الفرنسيون كما هو معروف شريحة مهمة في المجتمع الفرنسي، لها مشكلاتها وقضاياها الخاصة، وقد طوّر أبناء هذه الجالية من الجيلين الثاني والثالث أساليب جديدة لمعالجة مشكلاتهم ومحاولة الاندماج في مجتمعهم الأوربي، وكانت الفنون على تنوع أشكالها من المجالات المهمة للتعبير عن آرائهم ولفت الأنظار إلى مشكلاتهم.

وعلى صعيد الدراما، حقق الممثلون والمخرجون المغاربة نجاحاً لا بأس به في السينما الفرنسية، وكان لهم حضور أيضاً في المسرح، وبدرجة أقل في التلفزيون. أما النجاح الأكبر فكان في تجاوز بعضهم حدود فرنسا والانطلاق إلى عاصمة السينما العالمية (هوليود)، سواء بتصدير أفلامهم إلى الخارج أو بعملهم مع شركات إنتاج هوليودية.

يأتي اسم (رشدي زم / Roschdy Zem) في الصدارة، إذ قام بالكثير من الأدوار في أفلام فرنسية ذات شهرة عالمية، مثل فيلم (شركتي الصغيرة / My Little Business) المنتج عام 1999 والذي أدى فيه دور المدرب الرياضي (سامي) وصديق زوجة صاحب الشركة التي يدور حولها الفيلم، كما ظهر في فيلم ( Little Senegal ) المنتج عام 2001 حيث يظهر في دور المهاجر العربي إلى نيويورك (كريم) الذي يقيم في حي (هارلم) ذي الأغلبية السوداء ويعاني صعوبة الاندماج، والفيلم من إخراج (رشيد بو شارب).

لدينا أيضاً الممثل (سامي بو عجيلة) الذي بدأ بتحقيق نجاحاته في منتصف التسعينيات، وظهر في فيلم (باي باي / Bye-Bye ) من إنتاج عام 1995 الذي يحكي قصة شقيقين تونسيين يهاجران إلى مرسيليا ليكتشفا أنهما في مدينة عربية في وسط أوربا. كما شارك أيضاً في فيلم (الحصار) سنة 1998 الذي يُعد من أكثر الأفلام إساءة إلى المسلمين كما سيمر معنا لاحقاً في هذا الكتاب. أما التجربة الأولى للممثل الفرنسي من أصل جزائري طاهر رحيم في فيلم (النبي) فقد حققت مفاجأة كبرى باستحقاقه جائزتي أفضل ممثل وأفضل ممثل واعد في مسابقة (سيزار) الفرنسية عام 2010.

أما الممثل (سامي ناصري) فذاع صيته بعد أداء دور البطولة في الأجزاء الثلاثة للفيلم الشهير (تاكسي) الذي تخطى حدود فرنسا إلى العالم كله. ولا ننسى الممثل (زين الدين سوالم) الذي صار اسمه معروفاً لدى معظم الجمهور الأوربي، والعديد من الأسماء الأخرى مثل جليل لسبير، ألكسندر أركادي، وجاد المالح .

ولعل أوفر الممثلين المغاربة حظاً هو (سعيد طغماوي / Sa]d Taghmaoui) الذي ولد سنة 1973 في فرنسا لأبوين مهاجرين من المغرب، وتوجه إلى الملاكمة في صغره إلى أن اكتشفه المخرج (أوليفييه دان) سنة 1994 وقدمه في الفيلم التلفزيوني (الإخوة) في دور شاب ملاكم، لتنهال عليه بعدها الكثير من الأدوار في السينما الفرنسية، ولكن طموحه كان أكبر منها فبدأ بتعلم لغات أخرى وتلقى دورات تدريبية في الأداء المسرحي، وجاءت فرصته الأولى نحو العالمية سنة 1998 مع الفيلم البريطاني (الغريب القبيح / Hideous Kinky) الذي أدى فيه دور البطولة إلى جانب النجمة (كيت ونسلت)، ويصنف البروفسور (جاك شاهين) هذا الفيلم ضمن قائمة الأفلام

القليلة التي أظهرت العرب في صورة إنسانية، حيث يعطي الشاب المغربي (بلال) مثالاً رائعاً للرجل النبيل الذي يقدم المساعدة لسيدة أوربية كي تعود مع ابنتيها إلى الوطن دون مقابل.

وفي عام 1999 انتقل طغماوي إلى هوليود، وقام بدور الكابتن سعيد في فيلم (الملوك الثلاثة / Three Kings) الذي يصنفه (جاك شاهين) أيضاً ضمن قائمة أفضل الأفلام المنصفة للعرب، حيث يحكي قصة حرب الخليج الثانية من خلال ثلاثة جنود أمريكيين يحاولون الحصول على كنز من الذهب نهبه الجيش العراقي من الكويت، ويركز الفيلم على مأساة العراقيين وتنوع اتجاهاتهم السياسية بعيداً عن التنميط الذي اعتادت عليه هوليود.

ولكن طغماوي لم يثبت على هذا الموقف طويلاً، فسرعان ما انضم إلى قائمة الممثلين العرب الذين لا يرفضون الأدوار المسيئة، وأصبح من أكثر الممثلين العرب نشاطاً، إذ قدم في عام 2000 وحده ثمانية أفلام متتالية بين فرنسا والولايات المتحدة، مستغلاً بنيته الجسدية القوية، وبشرته المغربية الداكنة، وإتقانه لأربع لغات أوربية إلى جانب العربية.

ونذكر من أعماله فيلم (هيدالغو) (2004) الذي جسد فيه دور الأمير البدوي (ابن الريح) وبكل ما يتطلبه الدور من تنميط وتحقير، ثم جاء فيلم (الخبز الحافي)، من إنتاج سنة 2005 في إيطاليا، والمأخوذ عن رواية محمد شكري التي تحمل الاسم نفسه، والتي أثارت الكثير من الجدل منذ صدورها لقصر اهتمامها على الجانب المظلم لمدينة طنجة المغربية حيث قضى الكاتب طفولته مشرداً في شوارعها.

وفي عام 2006 قام طغماوي بعدة أدوار نمطية مسيئة، نذكر منها دور إرهابي أمريكي مسلم في مسلسل (الخلية النائمة) والذي سنتحدث عنه لاحقاً، كما ظهر في الفيلم الفرنسي (جهاد) ممثلاً شخصية شاب مغربي فرنسي يسافر إلى العراق مع اثنين من أصدقائه لقتال الأمريكيين، وفي الفيلم الأمريكي ( الأصابع الخمس ) مثَّل دور عميل مغربي للاستخبارات الأمريكية ويتظاهر بأنه مساعد رئيس خلية إرهابية للإيقاع بشاب هولندي حاقد على أمريكا، وقد نجح طغماوي في تنميط هذه الشخصية العنيفة نجاحاً لافتاً.

أما أكثر مشاركاته إساءة فجاءت في الفيلم الإيطالي (يا قدس / O Jerusalem) المأخوذ عن رواية صدرت عام 1972 بالاسم نفسه للكاتبين: الفرنسي (دومينيك لابيير) والأمريكي (لاري كولنز) وحققت مبيعات تزيد على 30 مليون نسخة، علماً بأن هذين الكاتبين اشتركا أيضاً في كتابة ثلاث روايات أخرى لا تهدف إلى شيء سوى تحقير العرب ووصفهم بالإرهابيين، وقد نجحت مساعيهما في تنميط صورة الإرهابي المسلم عندما سارعت قناة (CNN) إلى تذكير المشاهدين عشية أحداث 11 أيلول/سبتمبر بروايتهما (رجل الخيل الخامس) التي صدرت قبل عشرين عاماً وتخيلت وقوع أحداث مشابهة.

أما في فيلم (يا قدس) فنجد شاباً فلسطينياً (سعيد طغماوي) يعود من الولايات المتحدة إلى القدس بحثاً عن حلم بوطن اسمه فلسطين، ويتعرف إلى شاب إسرائيلي ليصبحا صديقين، ثم سرعان ما تتحول هذه الصداقة إلى عداء، ويُدفع المشاهد للتعاطف مع الطرف الصهيوني «صاحب الجذور الراسخة» في تلك الأرض في مقابل عدم استحقاق الفلسطينيين لأي مطالبة بها!.. ويعتقد بعض النقاد أن اشتراك ثماني شركات من عدة دول في إنتاج فيلم بميزانية متواضعة؛ أقل من 20 مليون يورو، ليس إلا دليلاً على سعيها فقط إلى استرضاء اللوبي الصهيوني في هوليود وفتح باب

التعاون في أعمال مستقبلية، ولا سيما أنها روجت لشائعات تزعم وجود نجوم كبار في الفيلم، ولكنها لم تفلح إلا في تكليف مخرج صهيوني مغمور (إيلي شوراكي)، وممثل أمريكي من الصف الرابع في هوليود (إيان هولم)، وممثل عربي يسعى إلى الشهرة (سعيد طغماوي)!

ومع كل هذه الأدوار غير المسؤولة وغيرها، يتباهى طغماوي بأنه «لم يتناول المخدرات يوماً، وبأنه لا يدخن السجائر، وبأنه يعمل ويكسب رزقه جيداً ويمارس مهنة على أعلى مستوى»[23]. وهو ما يدفعنا إلى التساؤل إن كان المقياس هنا هو إخلاص الممثل في عمله وأداء الدور المطلوب منه، بغض النظر عما يقدمه هذا الدور من أكاذيب وصور نمطية تحقر شعوباً بأكملها، وهي شعوب ينتمي إليها أجداده!

## المخرجون يواجهون مصاعب أكبر

إذا كان منتجو هوليود قد اعتادوا على وضع العراقيل أمام الممثلين العرب والمسلمين وحصرهم في خانة الصور النمطية التي أرادوها لهم، فإن المشكلة ستصبح أكبر عندما يطمح أحدهم إلى العمل في مجالي الإخراج والإنتاج ومنافسة صانعي الأفلام وأصحاب القرار، فمعظم المخرجين والمنتجين الذين توجهوا إلى هوليود لم يتجاوزوا خطوطهم الحمراء في اختيار مواضيعهم، وقصروا فنهم على ما يقبل به أصحاب الحل والعقد.

أحد هؤلاء المخرجين هو المصري أسعد قلادة الذي ولد في القاهرة سنة 1941 ودرس في الجامعة الأميركية في القاهرة على يد المخرج يوسف شاهين الذي شجعه على السفر إلى الولايات المتحدة، وتمكن بالفعل من شق طريقه إلى هوليود وإقناع المنتجين بالتعاون معه لإخراج الكثير من المسلسلات التلفزيونية لأكثر من ربع قرن، ونذكر منها المسلسلين الكوميديين (رودا) (1976-1978)، و(إذاعة (دبليو كي آر بي) في سينسينَتي) (1978-1982)، والمسلسل العائلي (من هو المدير؟) (1984-1990)، وتجاوزت مسلسلاته الخمسة والعشرين مسلسلاً ناجحاً في القنوات الأمريكية، وهي موجهة بالأساس إلى المشاهد الأمريكي، ولا تمت بصلة في معظمها إلى ثقافة المخرج وأصوله العرقية، لذا ظل نجاحه هذا محدوداً بتجربته الشخصية.

تجربة أخرى ناجحة تكررت مع المخرج اللبناني الشاب عمر نعيم ؛ نجل الفنانة نضال الأشقر والإعلامي فؤاد نعيم، الذي أُعجب به المنتج (نك وبستر) وساعده في اجتياز بعض عقبات هوليود، حيث تمكن عمر من إقناع شركة (ليون غيت) بإنتاج فيلمه الأول (Final Cut)، وكانت المفاجأة عندما وافق النجم الأوسكاري (روبن ويليامز) على القيام بدور البطولة مع مخرج عربي في السادسة والعشرين من العمر.

يحكي الفيلم قصة خيالية تدور في المستقبل حول رجل يتخصص في إنتاج أفلام قصيرة عن حياة الأموات من خلال انتزاع رقاقة صغيرة تزرع في أدمغتهم منذ الولادة وتقوم بتسجيل تفاصيل حياتهم كلها، ليتم اقتباس الصور الجميلة منها عند الممات وعرضها في فيلم قصير في أثناء تشييع الجنازة، ويعيش هذا الرجل صراعاً داخلياً لتورطه في تفاصيل حياة الناس، والتي تذكره باستمرار بذكرياته المؤلمة منذ الطفولة. ومع أن القصة لا تمت إلى العرب والمسلمين بصلة، فقد تعمد المخرج الذي كتب القصة بنفسه إقحام بعض الشخصيات العربية ليمنح العرب الأمريكيين حق الظهور في صورة المواطنين العاديين بعيداً عن الصور النمطية[24].

في السياق نفسه، نذكر أيضاً المخرج علي سليم الذي أنجز فيلماً أمريكياً خالصاً يحمل اسم (Sweet Land)، عام 2006 ودون أن يضمّنه أي إشارة إلى العرب وقضاياهم، ويحكي الفيلم قصة فتاة ألمانية تهاجر إلى أمريكا في زمن الحرب العالمية الثانية بعد أن دبّرت لها عائلتها زواجاً من شاب أمريكي بالمراسلة، وتعاني الفتاة من مشاعر التوجس المنتشرة آنذاك حيال جميع الألمان خشية كونهم جواسيس للنازيين، ولفت الفيلم أنظار النقاد الأمريكيين لإخراجه المتميز، واستحق بذلك جوائز عديدة ومنها جائزة (سبيريت) للأفلام المستقلّة.

إزاء هذا النجاح الذي حققه عدد قليل من المخرجين العرب في هوليود، لم يحالف النجاح البعض الآخر، وخصوصاً أولئك الذين حملوا معهم قضايا مجتمعاتهم إلى هوليود، وقد لا تكون اهتماماتهم تلك هي السبب الوحيد في عدم تحقيق النجاح المنشود، إذ لا بد أن تؤخذ المعايير الفنية أيضاً بعين الاعتبار.

ونذكر من هؤلاء المخرج المصري هشام عيساوي الذي انتقل إلى الولايات المتحدة عام 1990 لدراسة العلوم الإنسانية. ثم درس الإخراج وقدم أفلاماً وثائقية منها (أنقذوا أبو الهول). وفي عام 2006 أخرج فيلم (American East) الذي تعرضنا له سابقاً وهو من بطولة توني شلهوب وسيد بدرية، ولكنه لم يحقق نجاحاً كبيراً في أمريكا، وظل حبيس المهرجانات، مثل سندانس والقاهرة ودبي. مع عروض أخرى قليلة، ويعزو بعض النقاد السبب إلى تواضع مستوى الإخراج الفني وتدني أداء بعض الممثلين.

في العام نفسه أخرج المغربي حسّان بن شيخة فيلمه الروائي (مرحباً إلى هوليود)، وتناول فيه قصة شاب عربي يهاجر إلى أميركا حاملاً إليها أحلامه الكبيرة، ومع ذلك النجاح الأولي الذي يحققه في البداية من عمل ومسكن وحب، إلا أنه سرعان ما يصطدم بعدها بالعراقيل التي تهبط به إلى قعر المجتمع، فيجد نفسه عاجزاً عن تحقيق أحلامه من جهة وعن العودة إلى الوطن من جهة أخرى، ويأتي هذا الفيلم أيضاً ضمن مجموعة من الأفلام التي أنتجها مخرجون عرب لتقديم وجهات نظرهم الخاصة حيال أزمة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وما بعدها، ولم يحظ الفيلم أيضاً بالكثير من الانتشار.

تضاف إلى هذه التجارب المتعثرة محاولة أخرى كان سيكتب لها النجاح لولا اصطدامها بعوائق من نوع آخر لم تكن بالحسبان، وجاءت هذه المحاولة من مخرج تونسي- فرنسي يحمل خبرة جيدة في الإخراج السينمائي، إذ نشرت بعض الصحف العربية على هامش تغطيتها لمهرجان كان السينمائي عام 2004 نبأ توقيع عقد جديد بين المخرج التونسي رضا الباهي والنجم الأوسكاري (مارلون براندو) بطل الجزء الأول من سلسلة (العراب) الشهيرة، واحتفت الصحافة بهذا الخبر الذي زفه إليها الباهي مشفوعاً باقتناع براندو التام بفكرة الفيلم التي يرى أنها تدافع عن حقوق المسلمين المهضومة في أمريكا، إلى درجة اقتراحه بأن يُختتم الفيلم بإرسال بطله العربي إلى غوانتانامو للمزيد من إدانة الغطرسة الأمريكية، وهو ما وجد فيه الباهي شيئاً من المبالغة.

المؤسف في الأمر أن وسائل الإعلام سرعان ما نشرت بعدها نبأ وفاة (براندو)، وكانت خسارة كبيرة للعرب والمسلمين الذين استبشروا خيراً بموافقة أول نجم أمريكي بهذا الحجم على دور يخدم قضيتهم وبتوقيع مخرج عربي، كما كانت صدمة كبيرة للمخرج الذي بذل الكثير من الجهد في الإعداد بمشاركة براندو نفسه.

مواقف براندو الإنسانية النادرة كانت وحدها كفيلة بتوقع دعمه الكبير للمسلمين في هوليود، فعندما فاز بالأوسكار عن دوره في (العراب) عام 1972 أرسل فتاة من الهنود الحمر لاستلامها مستغلاً الحدث للفت أنظار الأمريكيين إلى حقوق هذه الأقلية المستضعفة. ونقل الكاتب محمد رضا، المشارك في إعداد فيلم الباهي، أن براندو كان قد أخبر الباهي قبل موته بأسفه الشديد على دعمه لدولة الصهاينة سياسياً ومادياً وعاطفياً في الخمسينيات والستينيات لما تعرّض له اليهود من مجازر خلال الحرب العالمية الثانية، وأنه أدرك فيما بعد الفرق بين اليهودية والصهيونية؛ وهو أمر نادراً

ما يحدث بين الأمريكيين، خصوصاً عندما رأى المخيّمات التي كان يعيش فيها الفلسطينيون المشرّدون في لبنان، وامتنع بعدها عن تأييد دولة تفعل بالفلسطينيين ما فعلته ألمانيا بهم[25].

ثم يذكر براندو للباهي قصة أخرى تدعو للمزيد من التفاؤل فيقول: «ذات مرّة زرت المغرب ونزلت في دار، لم يكن همّي الاختلاط اجتماعياً أو التعرّف إلى أي شيء. كان كل شيء متوافراً، وكنت خلال وجودي أستمتع بحياة رغدة. ذات يوم لم أستطع النوم فبقيت صاحياً لساعة متأخرة من الليل. فجأة سمعت شيئاً غريباً يدلف عليّ من كل جانب... كان الأذان، أذان الفجر، صعدت سطح المبنى ووقفت أنظر إلى تلك المآذن وهي تطلق تلك الأصوات التي تطلب من الناس أن تصلّي.. شعرت يا رضا بخشوع غريب. هذا المشهد ولحظاته لا يزال يسري في أوصالي خشية بالغة»، ويعلق محمد رضا بالأسف لعدم وجود من كان سيتلقّف هذا الشعور ليرشده ويهديه ويقوّمه[26].

وبالعودة إلى الفيلم، الذي لم يكتمل على النحو المخطط له، فقد كان يحمل اسم (Brando, Brando) وهو يحكي قصة شاب تونسي يهاجر إلى الولايات المتحدة سعياً وراء الحلم الأمريكي بعد أن يقنعه أحد الأمريكيين في لقاء عابر بأنه يشبه في ملامحه النجم المعروف (براندو)، فتغير هذه الكلمات حياة الشاب ويحلم بأن يسير بالفعل على خطا (براندو)، وتبدأ رحلة السعي الشاقة للقاء به في هوليود، ولكن الحلم سرعان ما يتبدد عندما يصطدم الشاب الحالم بواقع المسلمين في أمريكا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وينتهي به الحال عاملاً في أحد المطاعم، وقد يذكّر مطلع القصة برواية (عراقي في باريس) للكاتب العراقي صموئيل شمعون وبكل ما فيها من سخرية من الواقع.

ومن الجدير بالذكر أن الباهي أعاد صياغة سيناريو فيلمه بعد حذف المشاهد التي يمثلها براندو، وبدأ تصويره بعد سنتين من توقفه، انطلاقاً من مهرجان كان الفرنسي الذي كان قد شهد إعلان نبأ الفيلم من قبل.

## المنتجون يواجهون المشاكل ذاتها

تتماثل تجارب العرب ذاتها نجاحاً وفشلاً في مجال الإنتاج كما في المجالات الأخرى، ويحضرنا أولاً اسم المنتج اللبناني ماريو قصار الذي هاجر مع والده إلى روما في طفولته، وتعلّم منه حرفة توزيع الأفلام، ثم حملها معه عندما استقل بعمله في هوليود ليبدأ مسيرته في إنتاج الأفلام الضخمة، وكانت بدايته مع (سلفستر ستالون) لإنتاج سلسلة (رامبو) الشهيرة بدءاً من فيلم (الدم الأول) عام 1982، وبعد نجاحه اللافت تابع قصار إنتاج هذه السلسلة مع البطل الأمريكي الذي تحول إلى أسطورة عالمية، ثم قرر العمل مع "أرنولد شوارزنيغر" لإنتاج أول أفلام سلسلة المدمر (ترمينايتور)، والتي حققت أيضاً نجاحاً كبيراً ليستمر الاثنان معاً في إنتاج بقية أجزاء السلسلة. كما أنتج قصار أفلاماً شهيرة أخرى مثل فيلم (غريزة أساسية) من بطولة (مايكل دوغلاس)، والفيلم الشهير بوابة النجوم (ستار جيت) عام 1994، وقد رشح فيلمه (شابلن) لثلاث جوائز أوسكار، ولكنه لم يحصل على أي منها.

وبالنظر إلى قائمة الأفلام السابقة، فإن قصار لا يعدو كونه رجل أعمال ناجحاً يتقن استثمار أمواله في أكثر الأفلام ربحاً، مما جعله من أغنى منتجي هوليود في السبعينيات والثمانينيات، وما زال قصار مستمراً حتى الآن في إنتاج أفلامه الضخمة والمربحة والتي تدور معظمها حول العنف والجنس.

وقد صرّح قصار في لقاء تلفزيوني جواباً عن سؤالٍ عن طموحه إلى تغيير صورة العرب في هوليود بأنه لا يحب السياسة، وأنه يتمنى لو يستطيع فعل شيء من خلال فيلم ولكن الأمر معقد جداً[27]. ولكن تجربة قصار في الإنتاج تؤكد أن صناعة الأفلام تفعل الكثير، فقد رسخت سلسلة (رامبو) صوراً نمطية معروفة في العالم كله للجندي الأمريكي الأسطوري الذي يقتل كتيبة كاملة بيديه العاريتين، حتى أصبحت هذه الأفلام مضرب المثل في العنجهية الأمريكية.

من جهة أخرى، وبعد أن اجتمع المخرج (جيمس كاميرون) مع النجم (شوارزنيغر) في أول أفلام سلسلة (المدمر) تابع الاثنان عملهما لإنجاز واحد من أكثر الأفلام إساءة وافتراء على العرب والمسلمين، وهو فيلم (أكاذيب حقيقية). وفي الوقت الذي ندد فيه العرب بهذه الوقاحة، استمر قصار في التعاون مع هذا الثنائي لإنتاج الأجزاء التالية من سلسلة (المدمر)، منحياً مرة أخرى جميع القضايا التي قد تعكر عليه صفاء نشاطه الاستثماري، ولن يمنعنا هذا السلوك من الإشادة بعبقرية هذا المنتج العربي الناجح.

تجربة مماثلة نجدها لدى أحد أصدقاء قصار؛ وهو المنتج اللبناني (إيلي سماحة)، الذي بدأ مسيرته الفنية من أسفل السلم عندما انتقل من نيويورك إلى هوليود ليجرب حظه في أرض الأحلام، وكانت البداية في العمل حارساً على باب ملهى ليلي، حيث أتيحت له فرصة تعرف عدد من العاملين في الوسط الفني، فبدأ بمواعدة إحدى عارضات الأزياء التي أتاحت له الدخول إلى عالم الفن، ثم تقدم لخطبة الممثلة (بروك شيلدز)، وتزوج بعدها بفتاة أخرى تنتمي إلى الطبقة ذاتها، مما سمح له -حسب قوله- بالاطلاع على الثروات الهائلة التي تجنيها هذه الشريحة من الناس، ويضيف مصرحاً لأحد الصحفيين: «وهذا ما دفعني إلى اختيار مهنتي، المال كان هدفي الأول والأخير وهو

أساسي بالنسبة إلي، لم أصبح منتجاً لأنني أحب هذه المهنة بالذات، بل لأن عالم الأفلام وعالم الموسيقى أبديان، وهما مصدران للمال لا يشح منهما»[28].

مثال آخر لهذه الفئة من المنتجين نجده بوضوح أكبر في تجربة رجل الأعمال والمنتج التونسي طارق بن عمّار ، والذي أسس سنة 1975 شركة (كارتاجو) للإنتاج السينمائي العالمي، وساهم في تقديم خدمات الإنتاج لعدد من الأفلام الأوربية والأمريكية التي صورت في تونس مثل ( غزاة التابوت المفقود ) و( حياة بريان )، وفي عام 1985 أسس بالاشتراك مع سيلفيو برلسكوني، الذي أصبح رئيس وزراء إيطاليا فيما بعد، شركة (كينتا) للإعلام، وأدار جولة مايكل جاكسون العالمية ما بين عامي 1996 و1998، وهو يسيطر الآن على مجموعة (كينتا) العاملة في قطاع التوزيع السينمائي وتقنيات الصوت والصورة، ويملك 14% من أسهم قناة (براز) الفرنسية، ويشغل منصب عضو مجلس الإدارة في شركتي (ميدياسات) و(ميديوبانكا) في إيطاليا، وقد شارك في إنتاج ما يزيد على خمسين فيلماً عالمياً خلال ربع قرن، تصل كلفتها الإجمالية إلى نحو خمس مئة مليون دولار.

ومن المحطات المهمة في تجربة هذا المنتج العالمي توليه مهمة توزيع فيلم (آلام المسيح) للمخرج (مل غيبسون) في أوربا، والذي ما زال يُصنف لدى الكثيرين على أنه أقوى فيلم تبشيري في تاريخ السينما.

هذه الرؤية (البراجماتية) التي تقدم الربح على أي اعتبار آخر تتجلى أيضاً في نشاط المليونير المصري (محمد الفايد) وابنه الراحل (دودي)[29] اللذين حققا معاً ما لم يحققه أي عربي حتى الآن في مجال الأوسكار. فقد شاركا في إنتاج فيلمي (عربات النار) عام 1981، و(سائق مسز ديزي) عام 1999، فرُشح الأول لسبع جوائز وفاز بأربع منها وعلى رأسها جائزة أفضل فيلم، أما الثاني فرُشح لتسع جوائز وفاز بأربع منها أيضاً، ومن بينها جائزة أفضل فيلم. ويحكي الفيلم الأول (عربات النار) قصة عدّاء يهودي يفوز بالميدالية الذهبية في الأولمبياد في فترة العشرينيات التي شهدت تصاعد الطموح الصهيوني لاستعادة (أرض الميعاد)، إذ نسمع بكل وضوح مدربه اليهودي وهو يشجعه على الفوز بقوله: «ليست لديك أي فرصة للتراجع.. تقدم وافعلها من أجل إسرائيل.. وما دام اليهود يتميزون بكل هذا الثبات فإني أؤمن فعلاً بأنهم شعب الله المختار»!.. أما الفيلم الثاني (سائق مسز ديزي) فتدور قصته حول العلاقة الحميمية التي تجمع بين أرملة يهودية (مسز ديزي) مع سائقها الأسود، وتجري هذه الأحداث في فترة الخمسينيات والستينيات التي كان التمييز العنصري فيها ما زال سائداً وخصوصاً في ولايات الجنوب الأمريكي التي تدور فيها القصة، حيث تظهر المرأة اليهودية في صورة الممثل الوحيد للمشاعر الإنسانية في مجتمع مشبع بالعنصرية[30].

من المؤسف إذن أن نلمس لدى المنتجين اليهود كل الحرص على تحقيق مصالح شعبهم وبشتى الوسائل، وتعاونهم على ممارسة الضغط الذي يضمن انصراف جوائز الأوسكار للأفلام التي تحقق غايتهم، في الوقت الذي لا يكتفي فيه بعض المنتجين العرب بتغيير أسمائهم والانسلاخ عن هويتهم، بل يضخون ملايين الدولارات لتمويل هذه الدعاية البغيضة للصهاينة سعياً وراء الربح!

# مصطفى العقاد.. محاولة يتيمة!

في ظل التكتل الصهيوني الذي يحكم قبضته على هوليود، وأمام التخاذل العربي والإسلامي اللاهث وراء المكاسب الشخصية، لمع اسم عربي وحيد في سماء هوليود منذ مطلع الستينيات، وظل يكافح وحيداً من أجل رسالته خمسة وأربعين عاماً حتى وافاه القدر.

وُلد المخرج والمنتج مصطفى العقاد سنة 1935 لعائلة متواضعة في مدينة حلب السورية، وانتقل في سن التاسعة عشرة إلى الولايات المتحدة لدراسة الإخراج السينمائي بعد إقناع والده بجدوى هذه الخطوة الجريئة، والتي لم يفلح أحد ممن حوله في ثنيه عنها، إذ لم يكن قد سبقه أحد من العرب إلى اقتحام هوليود من خارج الولايات المتحدة.

تخرج في جامعة (UCLA) عام 1958 وبدأ البحث عن عمل، فرفضت سبعة استوديوهات كبرى في هوليود توظيفه، مما دفعه لتأجيل طموحه السينمائي والعمل في مجال الإعلام لدى بعض المحطات التلفزيونية.

في عام 1962 استطاع العمل في هوليود ببداية متواضعة، أتاحت له فيما بعد التعرف على كواليس عاصمة السينما العالمية، مما مهّد له في العام 1976 إنتاج وإخراج أول فيلم عربي عالمي عن الإسلام، وقدم نسختين بالعربية والإنجليزية من فيلمه الشهير (الرسالة) مع تبديل أدوار النجوم بين ممثلين عرب وأمريكيين، مسنداً بطولة النسخة الإنجليزية إلى كل من (أنتوني كوين) و(أيرين باباس)، ولم يخل العمل من الصعوبات؛ وأهمها الرفض الذي لقيه الفيلم من قبل بعض الجهات الإسلامية لأسباب شرعية وتاريخية، ولكن ذلك لم يمنع استكمال تصويره ونجاحه. وفي عام 1981 أنتج وأخرج فيلمه الثاني (أسد الصحراء) حول قصة كفاح البطل الليبي عمر المختار ضد الاحتلال الإيطالي، وانضم في بطولة الفيلم إلى كل من (كوين) و(باباس) النجم (أوليفر ريد).

لقي الفيلمان قبولاً منقطع النظير لدى الجمهور العربي والمسلم، إذ كانت المرة الأولى التي تحكى فيها قصص محلية بإخراج عربي وبتقنيات ونجوم هوليود، وما زال الفيلمان يشكلان إرثاً ثقافياً مهماً للعرب والمسلمين خصوصاً مع عدم تكرار هذه التجربة، ويُذكر أن أحداث أيلول/سبتمبر عام 2001 أدت إلى تزايد الاهتمام الغربي بالإسلام مما أعاد الاعتبار إلى فيلم الرسالة بصفته مصدراً مهماً للمعلومات عن الإسلام.

ظل العقاد يبحث طوال عشرين سنة عن ممول لفيلم لم يُنجز حول قصة صلاح الدين الأيوبي، كما كان يحضّر قبل وفاته لمشاريع أخرى تحمل همّ الإسلام والمسلمين، ومنها مشروع فيلم يحكي قصة (صبيحة الأندلسية) التي حكمت الأندلس، وفيلم آخر يدور حول قصة البطل الشيشاني (محمد شامل) الذي ناضل بضراوة ضد القياصرة الروس دون أن يسمع عنه معظم المسلمين، وفيلم ثالث يعرض قصة الملك الإنجليزي الذي أرسل في عام 1213 وفداً إلى الخليفة الأندلسي في قرطبة يعرض عليه اعتناقه للإسلام هو وشعبه مع دفع الجزية في مقابل وضع إنجلترا تحت حماية الخليفة، ولكن الخليفة طرد الوفد الإنجليزي لاعتقاده -حسب الرواة- بأن الملك الذي يسلم شعبه إلى قوى أخرى ليس أهلاً لحمايته!.. وقد نشرت صحيفة (الصاندي تايمز) البريطانية الوثائق التي تؤكد هذه القصة العجيبة.

المؤسف في الأمر؛ وبعد أن شرع العقاد في التحضير لفيلم صلاح الدين الذي تأجل عشرين عاماً ورشح لبطولته النجم (شون كونري)، عاجله الموت في انفجار هز العاصمة الأردنية عمان سنة 2005 أثناء وجوده بصحبة ابنته في أحد فنادقها.

لقد حقق العقاد حلم الملايين من العرب والمسلمين بتمثيلهم في عاصمة السينما العالمية، وظل يحارب وحده في هذا الميدان لأكثر من أربعة عقود، على الرغم من المضايقات التي تعرض لها منذ أيامه الأولى في هوليود، والتي كشفت عنها شقيقته الإعلامية ليلى العقاد، بعد وفاته، في حديث لوكالة (يونايتد برس أنترناشونال) بتاريخ 20-7-2007، قالت فيه: «لقد حاربوه كثيراً لدرجة أنه لم يكن يجد مكاناً لعرض أفلامه، حتى إنه كان مضطراً لشراء صالة سينما ليعرض أفلامه»، كما صرحت في الحديث نفسه بأنه تعرض للمضايقة أيضاً من جهات عربية، وأبدت تعجبها من هذه المواقف غير المفهومة، مما يعني أن الضريبة التي دفعها العقاد كانت مضاعفة!

من أجل ذلك صرح العقاد في أكثر من مناسبة بعدم اعتماده على التمويل الخارجي لإنجاز أفلامه التي تحقق أهدافه السامية، فاضطر لإنتاج سلسلة أفلام الرعب (هالوين) بأجزائها الثمانية، وانتقده على هذا التوجه البعض ممن لم يجدوا فيه مبرراً مقنعاً، وسواء كان الرجل مصيباً أم مخطئاً فإن أحداً لم يشكك في صدق رسالته.

يقول العقاد في لقاء أجري معه بعد إنتاج فيلم الرسالة: «لقد عملت الفيلم لأنه كان موضوعاً شخصياً بالنسبة إلي، شعرت بواجبي بوصفي مسلماً عاش في الغرب بأن أقوم بذكر الحقيقة عن الإسلام. إنه دين لديه 700 مليون تابع في العالم، هناك فقط القليل المعروف عنه، مما فاجأني. لقد رأيت الحاجة بأن أخبر القصة التي ستصل هذا الجسر، هذه الثغرة، إلى الغرب»[31].

ويقول في لقاء آخر: «كون اسمي (مصطفى) هذا وحده يشكل صعوبة كبيرة، كان بإمكاني أن أغيره لأمارس عملي بسهولة، لكن كيف أغير اسمي الذي أورثني إياه أبي؟! لقد كنت - ولا أزال - متشبثاً به.. وتابعت عملي بإصرار وفرضت على الجميع في هوليود وخارجها احترام اسمي»[32].

من أجل هذه المواقف النبيلة وغيرها استحق العقاد ما لقيه من احتفاء عربي وإسلامي في العالم كله، فالشعوب لا تعرف المداهنة والمجاملة في حق عظمائها، وقد لا نبالغ في القول بأن العقاد -رحمه الله- هو أحد الرجال القلائل في هذا العصر الذين يشعر المسلمون جميعاً بأنهم يخصونهم، وذلك مع كل ما قيل عن عدم تدينه في حياته الخاصة. أما أهل مدينته حلب فقد عبروا عن حزنهم لفقده بمواكب حاشدة لتشييع جنازته، وأطلقوا اسمه على أحد شوارع المدينة، وعلى أحد مدرجات جامعاتها، ووضعوا له نصباً تذكارياً عند مدخلها.

## شيراز حسن.. شاب باكستاني يجدد الأمل!

مع الأسف فإن الكثير من العرب لم يسمعوا بعد باسم هذا الشاب الناجح (شيراز حسن)، الذي استحق بجدارة جائزة الحلم الأمريكي لإثباته إمكانية النجاح في هوليود بدءاً من نقطة الصفر. أما ما يثير دهشتنا وإعجابنا معاً فهو حرصه على عدم الانسلاخ عن هويته وقدرته على كسب إعجاب الطرفين معاً: المسلمون في العالم كله، وعمالقة هوليود!

نشأ الشاب الباكستاني (شيراز) مع عائلته المتدينة في بريطانيا، ولم يكمل دراسته إلى المرحلة الثانوية، إذ فقد والده وهو في سن السادسة عشرة مما اضطره إلى إعالة عائلته بالإشراف على مطعم الأسرة (تنسلتاون كافيه) في وسط لندن، وهو المطعم الذي بدأ مقهى صغيراً ثم حوّله شيراز بحنكته واجتهاده إلى مطعم يعمل على مدار الساعة، ومع أن المطعم كان يمتنع عن تقديم المشروبات الكحولية فقد اكتسب قبولاً لدى زبائنه المخلصين لبشاشة مديره (شيراز) وكفاءة موظفيه وجودة خدماته.

في مطلع عام 2003، وبعد أن اطمئن شيراز إلى نجاح المطعم وقدرته على إعالة العائلة، انطلق إلى لوس أنجلوس وليس في جعبته سوى ألفي جنيه إسترليني مع حلم متواضع بفتح دكان صغير لبيع الحليب المخفوق (ميلك شيك)، وسرعان ما تضخم الحلم ليصبح شيراز بعد سنة ونصف نجماً تلفزيونياً عالمياً.

لاحظ شيراز في البرامج التلفزيونية نقصاً في التواصل بين الشرق والغرب، فقرر إنتاج برنامج تلفزيوني يجمع بين بوليود الهندية وهوليود، وعرض الفكرة على شركة (بي فور يو) فأعجبوا بها، وكُلف بتنفيذ الحلقة التجريبية الأولى مع أنه لم يكن يملك المال الكافي حتى لاستئجار معدات التصوير، فعاد إلى هوليود وشعر بأنه في ورطة حقيقية، ولكنه ظل يصلي إلى الله بالقرب من شعار هوليود الشهير مما أثار فضول المنتج السينمائي (مايكل ليفي) الذي استمع إلى قصته وقدمه إلى (رونالد بيركنز) مؤسس (وكالة الفنانين المبدعين)، وسرعان ما فُتحت له الأبواب وتمكن من تصوير الحلقة الأولى مع كبار نجوم هوليود مثل (إدي ميرفي)، (روبرت دي نيرو)، (آشلي جود) و(بن آفلك)، وكانت مجرد خطوة أولى على طريق النجاح الذي حققه برنامجه الشهير (Tinseltown TV)، والذي تحول إلى علامة تجارية مربحة تستقطب المعلنين من عدة قارات، ثم تولى شيراز مهمة إنتاج برنامجه بنفسه وأصبح مليونيراً في الثلاثين من العمر[33].

تميز برنامج شيراز بمسحته الشرقية غير المألوفة في هوليود وتجنب القضايا التافهة في الحياة الشخصية للنجوم، كما أنه لا يتعرض إلى المسائل الدينية المباشرة في حياتهم ولكنه ينجح بذكائه في النفاذ إلى الجانب الروحي بأسئلته العميقة مثل: ماذا تفعل لكي تبقى متوازناً وسط إرهاق العمل وأضواء النجومية؟ وتتفاوت الأجوبة بين الارتباك والإيمان بالله وفعل الخير والهوايات المفيدة، ولكنها تكشف للمشاهدين خواء حياة النجوم المغرقة في المادية وتُعرّي حقيقة هوليود ذات البريق المصطنع، وتبرهن على أن بساطة هذا الشاب المسلم وإخلاصه قد أكسباه قلوب خمس مئة مليون مشاهد حول العالم، ممن التفوا مع أسرهم وأطفالهم حول الشاشات لمتابعة خطاب إعلامي خارج عن المألوف، يلامس قلوبهم وعقولهم بلغة مبسطة وبأسلوب بصري مبهر وعالي الاحترافية.

نجاح شيراز لم يتوقف عند حدود العمل مذيعاً ومنتجاً لبرنامج تلفزيوني، فهو يدير اليوم إمبراطورية إعلامية ذات امتداد عالمي، ففي تموز/يوليو 2005 أطلق شيراز شبكة (www.Hollywood.tv) على الإنترنت التي أصبحت خلال أقل من عام واحد أقوى شركة إعلامية متخصصة بأخبار النجوم في العالم كله، وتعد مرجعاً رئيساً لوسائل الإعلام الأمريكية والعالمية مع اشتهارها بالابتعاد ما أمكن عن الفضائح، وهي اليوم علامة تجارية تقدر بمليارات الدولارات. وفي عام 2008 افتتح شيراز مقهى جديداً في لوس أنجلوس يحمل اسم (ملايين الحليب المخفوق) امتداداً لمقهى (تنلستاون) الذي انطلق منه، حيث يمكن فيه تذوق نكهات الحليب بأسماء النجوم، وجميع مشروباته طبعاً خالية من الكحول، وسيصبح أيضاً اسماً تجارياً لسلسلة مقاهٍ تمتد فروعها إلى أنحاء العالم. وفي عام 2010 أضاف شيراز إلى إمبراطوريته ثلاثة مواقع كبرى يتخصص أحدها في أخبار الرياضة، في حين يقدم الآخران كلاً من إمارتي دبي وأبو ظبي إلى العالم.

وكما هي عادة النجوم، يخصص شيراز جزءاً من نشاطه للعمل التطوعي، لذا اختارته الأمم المتحدة سفيراً عالمياً للشباب في قضايا حقوق الإنسان وممثلاً خاصاً لأصدقاء الأمم المتحدة. كما استحق عشرات الجوائز والألقاب وشهادات الثناء من مسؤولين ونجوم أمريكيين وعالميين، ومن أهمها لقب (سفير الشرق الأوسط إلى هوليود) في مسابقة الموسيقى العربية في دبي العام 2004، و(سفير هوليود إلى بوليود) في حفل الأوسكار الهندي سنة 2005. وقد أطلق شيراز سيرته الذاتية في عام 2006 بصفته (الحلم الأمريكي المسلم)، والتي كسبت أيضاً العديد من الجوائز[34].

ومع أن تجربة شيراز لا تخلو من الملاحظات، وحرص الجهات الرسمية والإعلامية الأمريكية على تقديمه نموذجاً للمسلم الأمريكي المعتدل وفقاً لشروطها، فإنه أثبت مرة أخرى قدرة المسلمين على النجاح في هوليود، وأن تقديم بعض التنازلات لا يستدعي الانسلاخ عن الهوية أو العمل لأجل الربح المادي البحت، ويقول شيراز: إن كثيراً ممن قابلوه كانوا يقولون: إن المسلمين لا يمكن أن يحققوا نجاحاً في هوليود، لكنه كان يصر على موقفه ولا يخجل من الانتماء إلى دينه[35].

وبهذه الثقة والعزيمة والإيمان؛ استحق شيراز جائزة (الحلم الأميركي) التي تمنح سنوياً لأصحاب النجاحات الكبرى، وقد فاجأ جمهور الحفل عندما صعد إلى المسرح لاستلام جائزته مصطحباً والدته المحجبة، وقال وسط تصفيقهم الحار: «اسمحوا لي أن أقدم هذه الجائزة إلى والدتي فقد وعدتها بذلك من قبل، ولتعلموا أني لم أنلها إلا لأني قمت بسبع عمرات وحجة واحدة، دعوت فيها الله ليحقق ما أتمنى»[36].

# حلقة الإرهاب المغلقة

كما مر معنا في الفصل الأول من الكتاب، فإن جميع الصفات الكريهة التي يمكن للعقل البشري أن يتخيلها قد عمل أباطرة هوليود على إلصاقها بالعرب والمسلمين، فعلى امتداد القرن العشرين -الذي شهد مولد السينما في بدايته- كانت سلسلة من الصفات المشينة تُقدم على أنها طباع أصيلة في حياة هؤلاء البشر، ومنها التخلف، البداوة، الجهل، القذارة، القبح، الشهوانية، الطمع، والخيانة[37]، وكان آخر هذه الصفات بروزاً على الساحة وأكثرها تحقيراً وبشاعة هو ذلك الميل الفطري إلى العنف والقتل والتدمير، أو ما يسمى مجازاً بالإرهاب، وقد بدأت هذه الصورة القبيحة بالظهور المنهجي والمدروس مع بدء الصراع العربي- الصهيوني، حيث تحولت هوليود بكل إمكانياتها منذ ذلك الحين إلى بوق دعائي لمصلحة إسرائيل، وتجسدت هذه الدعاية في أفلام من قبيل (Cast a giant shadow) الذي أنتج قبل نكسة 1967 بسنة واحدة، وأدى فيه اليهودي (كيرك دوغلاس) دور ضابط أمريكي يذهب لمساعدة إسرائيل في الحرب ضد العرب، وكما هي العادة في الأفلام الدعائية فإن الكلام الذي يتفوه به (دوغلاس) لا يكاد يختلف عن أي بيان سياسي لقادة (إسرائيل)، إذ يقول في أحد المشاهد وبحماسة بالغة: «إنها دولة تحيط بها خمس دول عربية تريد رميها في البحر المتوسط، إنهم لا يملكون دبابات ولا طائرات ولا أصدقاء، لا شيء، الناس يقاتلون بأيديهم فقط للحصول على جزء من الصحراء»! وبطريقة ما يظهر الفلسطينيون في الفيلم وكأنهم وحوش على هيئات آدمية، وقد أدى هذه الأدوار ممثلون (كومبارس) عرب تم جلبهم لهذا الهدف الدنيء، ثم أغفلت أسماؤهم في شارة الفيلم بعد أداء المهمة.

ومع استمرار الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين، استمرت سياسة هوليود في التحقير الموسوم بالإرهاب لكل ما هو عربي أو مسلم، ففي فيلم (الخروج/ Exodus) يتم الربط بين الفلسطينيين والنازية! أما فيلم (death before dishonor) الذي أنتج سنة 1978 فنرى فيه الفلسطينيين وهم يقتلون عائلة إسرائيلية بدم بارد، ثم يقتلون ضباطاً آخرين، ويفجرون سفارة أمريكية في بلد عربي بعملية انتحارية، وقد استعان المخرج بممثلين يهود للقيام بأدوار الإرهابيين العرب، في حين أوكل الأدوار الثانوية للكومبارس العرب الذين أخفيت أسماؤهم.

الأمر نفسه يتكرر في فيلم (الأحد الأسود/ The Black Sunday) الذي أنتج عام 1976، حيث تحاول عصابة فلسطينية تفجير منطاد مليء بالذخيرة وسط ملعب يغص بالجماهير في أثناء المباراة النهائية لبطولة كرة القدم الأمريكية، ونرى في الفيلم امرأة فلسطينية وهي تقتل كل من يقف في وجهها بدم بارد، وقد أسندت أدوار العرب الإرهابيين أيضاً إلى ممثلين أمريكيين ويهود باستثناء الدور الثانوي لـ (محمد) الإرهابي والذي أداه الممثل (Bekim Fehmiu) المولود في البوسنة.

وفي عقد السبعينيات، أسس المنتجان اليهوديان (مناحيم غولان) و(يورام غلوباس) شركة (كانون) لإنتاج الأفلام في هوليود، والتي خصصت معظم نشاطها لتحقير المسلمين ووصفهم بالإرهاب، حيث أنتجت على مدى عشرين عاماً أكثر من ثلاثين فيلماً لهذا الهدف، مستخدمة شتى الوسائل الرخيصة والبذيئة لتحقيق مصالح إسرائيل، واستمر الأمر على هذا الحال إلى أن أفلست الشركة

في أواخر التسعينيات بعد إخفاقها في ترويج المزيد من الكراهية، وكان من أشهر أفلامها فيلم (The Delta Force) الذي أنتج عام 1986 ويحكي قصة طائرة تتوجه من أثينا إلى روما وتختطفها عصابة من الركاب الفلسطينيين الذين يجبرون الطيار على الهبوط في بيروت، ونرى في الفيلم مجدداً عنصرية الفلسطينيين تجاه اليهود الأبرياء مع إسناد أدوار العرب للممثلين اليهود، فحتى ذلك الوقت كان من الصعب العثور على ممثلين عرب يؤدون أدواراً رئيسية أو ثانوية في الأفلام التي تحقرهم، فالتحقير يجب أن يمتد إلى الممثلين العرب أنفسهم الذين لا يُسمح لهم بالقيام بأدوار أكثر أهمية من مجرد ملء الشاشة بالجيوش البدائية (المليشيات) أو أفراد العصابات الذين لا يكادون ينطقون ببعض الكلمات العربية، ولم يكن المنتجون في تلك المرحلة مستعدين للدخول في أي مغامرة مع ممثل عربي قد يسعى إلى تغيير مجرى الفيلم في حال موافقته على المشاركة فيه.

ولكن هذه السياسة تغيرت تدريجياً مع مطلع التسعينيات، حيث أصبح من الممكن متابعة أفلام تكرس صورة الإرهابي المسلم وبتوقيع ممثلين عرب ومسلمين أيضاً!.. ففي فيلم (Navy Seals) الذي أنتج في عام 1994، يكتشف (شارلي شين) و(مايكل بين) عصابة من الإرهابيين العرب في لبنان ويسارعون إلى إبادتهم قبل أن يدمروا الغرب بالأسلحة الحديثة التي استولوا عليها، ونرى في الفيلم إرهابياً يدعى (بن شهيد) ويؤدي دوره الممثل (نمير القاضي) الذي وُلد عام 1952 في إستنبول قبل أن ينتقل إلى هوليود ويغير اسمه إلى (نيكولاس كادي).

أما القفزة النوعية في أدوار الممثلين المسلمين فأعتقد أنها بدأت مع فيلم (أكاذيب حقيقية/ True Lies) الذي أنتج في عام 1994، حيث يؤدي فيه الممثل الباكستاني- البريطاني (آرت مالك) دور الإرهابي (سالم أبو عزيز)، والذي يشكل عصابة إرهابية لتفجير قنابل نووية في مدن مختلفة في الولايات المتحدة، وبمشاركة ممثلين عرب آخرين مثل ماجد إبراهيم ولؤي مارديني . وقد نجح (مالك) في إظهار أشد الوجوه قبحاً للإرهابي المسلم، إذ لم يكن مجرد ممثل جانبي (كومبارس) يظهر في بعض المشاهد غير الناطقة، بل نجده يدير حوارات مطولة مشحونة بالغضب والتهور، ويكافح بضراوة لنشر «لون الجهاد القرمزي» على أنحاء أمريكا كافة[38].

ومن الجدير بالذكر أن (آرت مالك) وُلد في الباكستان عام 1962 وانتقل مع عائلته إلى لندن وهو في سن الرابعة، ثم عمل ممثلاً في مسارح بريطانيا قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة، ليمثل أول أدواره السينمائية في دور شاب هندي في فيلم (City of Joy) عام 1992، ثم جاء ظهوره الثاني في دور قائد الخلية الإرهابية في فيلم (أكاذيب حقيقية) عام 1994 وهو الفيلم الذي حل في المرتبة الثالثة ذاك العام من جهة تحقيق أعلى الإيرادات وحظي بشهرة واسعة جداً. كما أدى هذا الممثل دوراً مسيئاً آخر عندما مثل دور (رمزي أحمد يوسف) في الفيلم التلفزيوني (الطريق إلى الجنة) عام 1997، ثم أدى دور البطولة في العمل التلفزيوني البريطاني ( The English Harem ) عام 2005، الذي طرح مشكلة تعدد الزوجات عند المهاجرين المسلمين من وجهة نظر غربية، ويعيش (آرت مالك) في بريطانيا حياته الخاصة على الطريقة الغربية مع زوجته (جينا رو) التي كانت زميلته في الدراسة، وابنتيه (جيسكا) و(كييرا).

قد يصح القول بأن هذه الأدوار أتاحت للممثلين العرب والمسلمين فرصة للشهرة، فبعد أن أخفق العديد منهم في إيجاد موطئ قدم لهم في هوليود قبلوا بهذه الأدوار، كما في قصة الممثل المصري (سيد بدرية) الوارد ذكرها في الفصل السابق، وهو أمر تكرر أيضاً مع الممثل اللبناني الأصل

(توني شلهوب) والمولود في أمريكا، حيث كان أول ظهور له عام 1986 في مسلسل ( Equalizer ) عندما قام بدور الإرهابي العربي في إحدى الحلقات، وقد برر شلهوب قبوله بالدور قائلاً: «أديت هذا الدور مرة.. وهي تكفي»[39]. والسؤال هنا: هل هناك ما يبرر حقاً لأي ممثل أن يؤدي دوراً يهين فيه شعباً من ملايين البشر ويساعد على تكريس الصور النمطية التي تسيء إليهم؟ وإذا كان شلهوب لم يقم حقاً بدور الإرهابي مرة أخرى، فلماذا قبل بالظهور في أفلام تسيء إلى المسلمين وتكرس هذه الصور كما هو الحال في فيلم (الحصار)؟

وأياً كان الجواب، فمن الجدير بالذكر أن فيلم (الحصار) أُنتج بتوقيع الكثير من الممثلين العرب، فإلى جانب (توني شلهوب) نقرأ أسماءً عربيةً أخرى مثل: سامي بو عجيلة، أحمد بن العربي، مصلح محمد، آصف مندفي، سعيد فرج، حلمي قاسم، هاني كمال، وعمرو سلامة !

## الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.. والحملة الجديدة

بعد أن مهدت بعض أفلام هوليود لصورة الإرهاب القادم من الشرق الإسلامي، وقعت بالفعل أحداث مماثلة لما تخيله الهوليوديون على مدى ثلاثين سنة تقريباً، حيث رأى العالم أجمع وعلى الهواء مباشرة طائرة (بوينغ) وهي تضرب برج التجارة العالمي في نيويورك عام 2001، وجاء هذا المشهد الواقعي بعد أن تشبّع المشاهدون في العالم كله بصورة الإرهاب الإسلامي الذي يخطط لتدمير أمريكا في عقر دارها، فقد كانت أفلام مثل (أكاذيب حقيقية) و(الحصار) و(الأحد الأسود) تُعرض كل أسبوع تقريباً على بعض القنوات الأمريكية، وكأنها تقدم درساً مكرراً يجب تلقينه لكل المواطنين تمهيداً لشيء ما سيحدث، ولتتم إدانة المسلمين منذ الساعة الأولى لوقوع هجمات أيلول/سبتمبر، وقبل ظهور أي أدلة تذكر على إدانتهم، وهي الأدلة التي لم تكتمل حتى الآن.

ومن الغريب حقاً أن تتشابه بعض الأحداث الواقعية مع أحداث تلك الأفلام[40]، ففكرة اصطدام الطائرة بالبرج قد سبق تمثيل مشهد مشابه لها في فيلم (الأحد الأسود) مع محاولة اصطدام المنطاد بأرض الملعب المليء بالجماهير، أما وقائع التمييز المشين الذي تعرض له المسلمون بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر فقد سبق التمهيد له في فيلم (الحصار/ The Siege) الذي أنتجته شركة (20th Century Fox) قبل ثلاث سنوات فقط، ويؤدي أدوار البطولة فيه نجوم كبار مثل (دنزل واشنطن) و(بروس ويليس)، حيث تقوم خلية إسلامية بسلسلة من التفجيرات في شوارع مدينة نيويورك انتقاماً لاستهداف قائد تنظيمها من قبل الولايات المتحدة، مما يدفع الجيش الأمريكي إلى إعلان حالة الطوارئ في نيويورك، ويتم اعتقال آلاف العرب والمسلمين الأمريكيين في معسكرات اعتقال من دون توجيه أي اتهام، ويظهر (توني شلهوب) عميلاً فدرالياً مسلماً يعاني صراع التوفيق بين الولاء لقيادته وحقيقة اعتقال عائلته وأصدقائه، وقد بررت هذه المشاهد للمواطن الأمريكي كل ما حدث بعد ذلك على أرض الواقع ابتداء من أيلول/سبتمبر 2001 وحتى اليوم.

أما على صعيد الإنتاج، فقد وجد منتجو هوليود في هذه المرحلة الجديدة من الصراع مع الإسلام عشرات القصص الناجحة لتحويلها إلى أفلام تدر عليهم الأرباح وتحقق مصالح واشنطن في الوقت نفسه، والأمر هنا لا يقتصر على قضية الإرهاب في الداخل الأمريكي، إذ أفرزت أحداث أيلول/ سبتمبر أحداثاً تاريخية كبرى بدءاً من الحرب على طالبان وانتهاء بورطة احتلال العراق، ولما كانت العادة قد جرت في هوليود على تأريخ جميع الحروب الأمريكية ونقلها إلى الشاشة الكبيرة، سواء لتوجيه الرأي العام أم لإرسال رسالة ما إلى صناع القرار أم للبحث في تبعات هذه الحروب وآثارها السياسية والاجتماعية، فقد أصبح (الشرق الأوسط) في بؤرة اهتمام هوليود، وارتفعت أسهم الممثلين العرب الباحثين عن الشهرة والمال، ونشطت حركة التصوير في عدد من الدول العربية والإسلامية، حتى تجاوز إجمالي عدد الأفلام الأمريكية التي تناولت الحرب على العراق حتى منتصف عام 2010 مئتي فيلم بما فيها الأفلام القصيرة والطويلة والوثائقية، منها نحو ثلاثين فيلماً روائياً طويلاً[41].

يقول الممثل الفلسطيني بشار القدومي في لقاء صحفي: «بعد أحداث 11 سبتمبر، والتي حدثت بعد 8 شهور من وجودي في أمريكا، كنت غداتها أدرس ولا أذهب لمقابلات للعمل في الأفلام، بعد الأحداث زاد الطلب على العرب، فغالبية الأفلام كان لها طابع يخص الشرق الأوسط؛ إما بشكل سلبي أو إيجابي، وظهرت أفلام مثل: (سيريانا)، ومسلسلات مثل: (الخلية النائمة)، و(خلية هامبورج). بالمجمل زاد الطلب على الممثلين العرب لكن بطابع سلبي لإرضاء وزارة الخارجية الأمريكية، كل مخرج أمريكي كان يريد أن يثبت أنه وطني أمريكي بغض النظر عن الإساءة للعرب المسلمين، والأدوار تلخصت إما في جنود عراقيين منظور لهم بنظرة دونية، أو أن يظهر الرجل الأبيض قائداً وبقية الممثلين، بغض النظر عن الألوان، يدورون في فلكه ولا معنى لهم»[42].

وبهذه الكلمات يرسم لنا القدومي صورة الوضع القائم في عاصمة السينما العالمية في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والتي يؤكدها الممثل الفلسطيني هاني النعيمة ، الذي وصل إلى هوليود قبل خمسة وعشرين عاماً، ولكنه لم يحظ إلا بأدوار ثانوية مثل نادل في مقهى أو سائق ليموزين إلى أن حالفه الحظ بعد هجمات أيلول وأصبح وجهاً مألوفاً في هوليود[43]. ومع أن هاني أكد رفضه أربعة أدوار مسيئة للعرب فقد قبِل المشاركة في أفلام ومسلسلات ملأى بالصور النمطية، ومنها مسلسل (الخلية النائمة)، وفيلم (خزانة الألم).

ومن الطريف أن تغيير اسم هاني إلى (مايكل ديسينت) لم يُخرجه من دائرة الأدوار النمطية للممثلين العرب على وسامته، ونسترجع هنا اعتراف الممثل المخضرم سوري الأصل (ف. موراي أبراهام) في لقاء صحفي بأنه أسقط اسمه الأول (فريد) مكتفياً بحرفه الأول كي لا يقع في فخ التنميط «كعربي بغيض يخرج لقتل الجميع»[44]، وإذا كانت هذه القصة تعود إلى عقود طويلة فكيف يعاني إذن الممثلون المسلمون الجدد في الوقت الحاضر[45]؟

يقول الممثل ذو الأصل اللبناني (توني شلهوب) في لقاء صحفي لوسيلة إعلامية غربية: «عندما تبدأ برفض دور الإرهابي، فإن مديري الإنتاج في هوليود سيكفون عن الاتصال بك»[46]، ويضيف الممثل وكاتب السيناريو الأمريكي المسلم -من أصل إفريقي- (جي. دي. هول/ J.D. Hall ) في لقاء مع صحيفة (نيويورك تايمز): «لا أريد أن أعمم الحكم على كل اليهود، ولكن هناك حقاً عنصر صهيوني معادٍ للإسلام، وبالقدر الذي يمكنك أن تتجانس فيه مع هذا العنصر، إذا كان بإمكانك أن تمثل المسلمين، فإن الصورة التي تقدمها عنهم لن تجد القبول»[47].

وقد بلغ هذا الأمر درجة مقاضاة الإيراني (آلان مارني)، واسمه الأصلي فتح الله، وكالةَ التوظيف التي يعمل لحسابها؛ لأنها تعرض عليه أدواراً نمطية مثل (بائع الكباب)، (الأجنبي المخادع)، (الإرهابي)، (المغتصب) و(الشاذ جنسياً)، وذلك فقط بسبب ملامحه العربية.

وكان (فتح الله) قد اتهم في لقاء مع صحيفة (إيفننغ ستاندرد) البريطانية هذه الوكالة بأنها أضاعت عليه فرصة النجومية حيث كان هو أول من تقدم بطلب ليقوم بالدور الأساسي في فيلم (عازف البيانو) عام 2002، ولكنه فوجئ أثناء تدربه على الدور بأنه قد تم تجاهله ليقع الاختيار على الممثل (أدريان برودي) بدلاً منه، والذي فاز لاحقاً بجائزة أوسكار.

والأسوأ من ذلك هو الرد الذي تلقاه (فتح الله) على طلب آخر تقدم به لتمثيل دور (ماكبث) للكاتب المعروف (شكسبير)، عندما ضحك عليه المنسق في الوكالة قائلاً: «أنت لا تصلح إلا لدور بائع

كباب أو إرهابي»![48]

بيد أن الكثير من الممثلين العرب والمسلمين لا يجرؤون على اتخاذ موقف (فتح الله) السابق، بل يقبلون بالأدوار المسيئة إلى دينهم وبني جلدتهم، وهذا ما يؤكده تصريح الممثل بشار القدومي: «لقد ذهبت للعديد من المقابلات للعمل في هوليود، الإجابة الوحيدة التي كنت أتلقاها عند اعتراضي على الدور أن "هناك ألفاً غيرك يلائمهم الدور الذي لا يعجبك"، وعندما أخرج أخبر الموجودين عن الإساءة التي يحملها الفيلم، في أحسن الحالات عندما يذهب الجميع ولا يبقى متقدمون للدور فيستخدمون يهودياً لتقديم الشخصية العربية في السينما»[49].

لذا يوفر بعض العرب العناء على المخرج ويقبلون بهذه الأدوار، حتى ارتبطت بعض الوجوه لدى المُشاهد بالإرهاب لكثرة تجسيدها لتلك الصور النمطية، مثل الممثل لبناني الأصل سعيد فرج الذي جرّب نحو عشرين مهنة خلال سنتين فقط قبل أن يحقق حلمه في هوليود، مبتدئاً مسيرته في الأدوار الناطقة منذ بداية الثمانينيات وليصبح من أكثر الممثلين العرب تمثيلاً للإرهابيين كما في مسلسلي (24) و(JAG)، وأفلام مثل (The Unit)، (The Onion Movie) (The Siege)، وغيرها.

لا عجب إذن في ابتهاج البعض بالتحولات التي طرأت في هوليود، وأن يصرح الممثل المغربي إسماعيل قناطر بأن «هناك مزيد من الأعمال للممثلين العرب، أكثر مما كان عليه الوضع قبل عشر سنوات، فهناك اهتمام بالمنطقة، وسيفتح ذلك الأبواب»، وقد استغل (قناطر) انفتاح هذه الأبواب جيداً وقبل بدور مسيء في مسلسل (الخلية النائمة/ Sleeper Cell) الذي يُظهر الأمريكيين المسلمين على أنهم عملاء محليون للإرهاب العالمي، ويعترف (قناطر) بأنه لا يعترض على تأدية مثل هذه الأدوار، فالشيء الوحيد الذي يزعجه هو أن يكون الدور ضعيفاً وسطحياً[50]، وكأن المشكلة هي في سطحية الدور وليس في الصورة النمطية التي يسعى إلى تكريسها في عقول وقلوب ملايين المشاهدين عن الإرهاب وعلاقته بالإسلام والمسلمين!

الأمر نفسه يتكرر مع الممثلة الشابة من أصل عراقي آشوري (ياسمين حناني) التي سبق لها تمثيل العراق في مسابقة ملكة جمال آسيا، إذ شاركت مع إسماعيل قناطر في المسلسل نفسه مبررة الأمر بقولها: «الأمر المتعلق بتمثيل دور الإرهابيين هو وجودهم في الواقع»، وهو المبرر ذاته الذي سمح للممثل المصري سيد بدرية بأداء دور الإرهابي لعشرين سنة، إذ يقول: «لم أمثل دوراً لم يحدث في الحقيقة، أن نخطف الطائرات، وأديت دور خاطف، أقوم بعملي»[51]، وقد يكون هؤلاء على حق عندما يقتصر فهمهم للواقع على هذا الجانب المعتم دون غيره، وخصوصاً عندما تغيب عن أذهانهم حقيقة أنهم يمثلون هذه الأدوار في هوليود الأمريكية، وليس في دمشق والقاهرة، وأنهم يقدمونها للمشاهد الغربي الذي لا يعرف عن الإسلام إلا ما يتفضلون بعرضه على الشاشة، كما أن تكرار ظهور الإرهابيين المسلمين على الشاشة طبقاً للصورة التي يريدها منتجو هوليود ودون إظهار أي صورة أخرى عن المسلم الطبيعي والطيب هو تحكم مغرض في الواقع الذي يريدون تمثيله[52]، فضلاً عن أن تنميط صورة (الإرهابي المسلم) على نحو يتماهى فيه الإرهابي مع أي مسلم عادي يمارس واجباته الدينية سيؤدي عادة إلى الربط بين كل مظاهر الإسلام من صلاة وحجاب ولحية وعفة وبين العنف والإجرام.

إضافة إلى ما سبق؛ تتنوع المبررات لدى ممثلين آخرين يطمحون إلى عالمية هوليود، فقد دافع الممثل الأمريكي من أصل مصري (عمر متولي) عن نفسه في مهرجان القاهرة السينمائي عام 2007 عندما أعرب للجمهور عن سعادته «بتقديم تلك الشخصيات، خاصة أن صورة العربي في أفلام هوليود قد بدأت تتحسن ولطالما كانت سيئة»[53]، وصرّح قائلاً: «المنتجون يحاولون حصري في أدوار الشخص العربي.. مما دفعني للقلق لأنه لا يوجد أحد يحب أداء دور واحد في التمثيل.. ولكنني سأسعى للبحث عن أدوار مختلفة.. فلا مانع لدي في أداء أدوار أخرى»[54]، وقد يُفهم من هذا التصريح بأن المشكلة لدى (متولي) ليست في تكريس الصور النمطية التي تؤذي شعوباً كاملة من العرب والمسلمين، بل في خوفه الشخصي من الوقوع أسيراً للأدوار النمطية!

ومن الجدير ذكره أن هذا الممثل المولود في أمريكا من أب مصري وأم هولندية قد بدأ مسيرته الفنية مع مسرحية لكاتب إسرائيلي تحمل اسم (16 جريحاً) ، وتتناول أحداث «الإبادة الجماعية» التي شهدتها أرمينيا على يد العثمانيين، ثم عمل لمدة سبع سنوات في مسارح (برودوي) في نيويورك، إلى أن أتيحت له الفرصة في هوليود عندما عُرض عليه دور الفدائي الفلسطيني (علي) في فيلم ( ميونخ )، حيث يُجري (علي) في أحد المشاهد حواراً سريعاً مع أحد عملاء الموساد في أثناء تدخينهما للسجائر موضحاً وجهة نظر منظمة (أيلول الأسود) الفلسطينية التي اختطفت الرياضيين الصهاينة في أولمبياد ميونخ، ولكن السماح بظهور وجهة النظر هذه في فيلم هوليودي، وهو ما لم يكن ممكناً قبل نحو عشرين عاماً، قد لا يكون أكثر من ذر للرماد في العيون، فالقصة الحقيقية التي أراد المخرج اليهودي (ستيفن سبيلبرغ) إظهارها قد شُوهت على نحو مفضوح، علماً بأن (سبيلبرغ) لم يفلح في إرضاء الصهاينة عندما برر في أكثر من مناسبة أنه لم ينوِ في فيلمه هذا إدانتهم، بل كان يسعى إلى إعادة النظر في سياسة الاغتيال مع (العدو)، وقد بذل حقاً الكثير من الجهد لإظهار الصهاينة في غاية الإنسانية والأخلاق حتى عندما يمارسون القتل.

موقف مشابه تكرر أيضاً مع (عمر متولي) الذي لم يفلح في إرضاء الصحفيين والنقاد في مهرجان القاهرة عندما اعترف بأنه لم يبدِ أي اعتراض على دوره في الفيلم المنحاز للصهاينة بعد أن وقع العقد، حيث كان قد اكتفى قبل التوقيع بقراءة دوره فقط دون الاطلاع على السيناريو الكامل للفيلم[55].

بالرغم من هذه المواقف غير المبررة، فالإنصاف يستدعي التوقف عند دور البطولة الذي قام به هذا الممثل الشاب في فيلم (التسليم/ Rendition) عام 2007، حيث ظهر في شخصية المهندس الكيميائي مصري المولد أمريكي النشأة (أنور الإبراهيمي) والذي تشتبه المخابرات الأمريكية في علاقته بعناصر إرهابية، فيتم القبض عليه وترحيله بطائرة مخصصة لنقل أمثاله إلى بلد عربي، لم يذكر اسمه ويقع في شمال إفريقيا، بهدف تعذيبه من قبل السلطات هناك.

تفاوتت آراء النقاد العرب حول هذا الفيلم، فهو يدين للوهلة الأولى هذه الإجراءات القذرة للمخابرات الأمريكية التي تحاول التملص من وسائل الإعلام المحلية ومنظمات حقوق الإنسان عبر نقل المشتبهين للتحقيق معهم إلى دول ديكتاتورية وانتزاع المعلومات منهم بشتى الوسائل، وهو ما نسمعه صراحة في الفيلم على لسان مسؤولة المخابرات؛ النجمة ميريل ستريب، التي تعترف بأن أمريكا لا تعذب أحداً، ولكنها تهتم فقط بالمعلومات.. أما طريقة استخراج هذه المعلومات والتي تتم خارج أراضيها وبأيد غير أمريكية فهي أمر لا يعنيها.

إلا أن نقاداً آخرين لم يخفوا استياءهم من الصور النمطية التي لم يخل منها هذا الفيلم، فهو لا يبدو متعاطفاً مع المسلمين أو مؤيداً لحق مهضوم من حقوقهم أو حتى ساعياً لإظهارهم على ما هم عليه في الواقع، فثمة علاقة جنسية سرية بين عنصر المخابرات الأمريكي الذي يتولى عملية التحقيق (دوجلاس)؛ الممثل جاك جالينهال، وبين الفتاة العربية التي تعاونه في المكتب، فضلاً عن التركيز على السلطة الذكورية العربية من خلال قصة الضابط الأمني العربي الرافض لحرية ابنته في اختيار زوجها[56]، كما أعتقد أن انتصار الفيلم لحقّ المهندس المسلم وبراءته قد جاء على حساب إدانة شعبه كله، فهذا الشاب المتحضر المتزوج من أمريكية، النجمة ريس ويذرسبون، والبريء من تهم الإرهاب لا ينتمي إلى ذلك الشعب العربي بقدر انتمائه إلى أمريكا التي أخطأت في اتهامه، وكأن الإدانة لا تتعدى ذلك الفعل الخاطئ لدولة متحضرة في مقابل عالم متخلف آخر لا يستحق حتى التفكير في تبرئته لتخبطه في بحر هائل من الأخطاء المستعصية. علماً بأن الممثل عمر متولي لم يحظ بدور البطولة مع أنه قام بدور الشخصية المركزية التي تدور حولها القصة، كما لم يظهر اسمه أيضاً على (بوستر) الفيلم، وكأنه مجرد (كومبارس)!.. ولم تمنع هذه الملاحظات دور العرض العربية من عرض الفيلم والاحتفاء به لشعورها بانتصاره للعرب، فضلاً عن عرضه خارج المسابقة في مهرجان القاهرة السينمائي عام 2007.

أما التعليق الأمثل على ما يقوم به هؤلاء الممثلون العرب في هوليود، فنقتبسه من كلمات للممثل الفلسطيني بشار القدومي يقول فيها: «تمثيل مثل هذه الأدوار فضيحة.. كيف سيواجه الممثل أهله وأصدقاءه وضميره بعد عرض العمل؟»[57]. وسنترك لهم حق الرد! مع التذكير بأن المشاركة في هذه الأعمال لم تعد تقتصر على بعض الممثلين من العرب والمسلمين، فقد أصبح من المعتاد نقل عمليات التصوير بكاملها إلى دول عربية وإسلامية، وتوظيف عشرات الفنيين المحليين في فرق الإنتاج دون معارضة تذكر، ومن الأمثلة البارزة على ذلك فيلم (خزانة الألم) الحائز على ست جوائز أوسكار عام 2010، وسنخصص لهذه القضية فصلاً لاحقاً في الكتاب.

## جيل واعد يسعى إلى كسر الحلقة المغلقة

على تساهل بعض الممثلين العرب فيما يسند إليهم من أدوار أمام بريق النجومية وإغراء الثروة، فإن بعضاً آخر من الممثلين والمخرجين والكتاب العرب قد سعوا إلى كسر تلك الحلقة المفرغة للصور النمطية للإرهابي المسلم، حتى أولئك الذين سبق لهم العمل في أفلام تكرس الصور النمطية المسيئة في الماضي!

ففي عام 2006 كتب المصري (سيد بدرية) -الذي كان له الكثير من الأدوار النمطية سابقاً- فيلماً يحمل اسم (American East) وقام بدرية بدور البطولة فيه إلى جانب (توني شلهوب) و(سارة شاهي)، وعدد من الممثلين العرب مثل أنطوني عزيز، فوزي إبراهيمي، وقيس ناشف ، وأخرج الفيلم المخرج المصري هشام عيساوي ، وكان من بين منتجيه المنتج السوري الأصل أحمد زهرة . ويحاول الفيلم معالجة قضايا العرب الأمريكيين من خلال عدة محاور قد تبدو غير مترابطة، ولكن أهمها في هذا السياق هو محاولة الممثل العربي الشاب (قيس ناشف) البحث عن دور له في هوليود دون السقوط في الحلقة المفرغة للصورة النمطية للإرهابي المسلم.

أما الممثل الكردي الأصل (حليم مصطفى جبوري) فكانت له تجربة أخرى، فبعد انتقاله إلى أمريكا في أواخر السبعينيات لدراسة الإخراج السينمائي، بدأ مشواره في حقل التمثيل مع تمثيله لدور مواطن عراقي طيب في الفيلم الأمريكي (ثلاثة ملوك) الذي يعُدّه (جاك شاهين) فيلماً منصفاً، ثم توالت أدواره الصغيرة التي لم تخرج عن إطار شخصية المواطن العربي، إلا أنه شعر بالندم بعد مشاركته في فيلم (أسوأ من بيروس) عندما وقع في أسر الحلقة المفرغة مؤدياً دور العربي الشرير، مما دفعه إلى تأسيس شركة إنتاج صغيرة أسماها (سيميتار)، مبتدئاً مشواره في إنتاج الأفلام مع فيلم (مسلم/ Moslym) ، الذي أخرجه المخرج الأفغاني الأصل (إدريس بورمول)، وتدور القصة حول شاب أمريكي أسود يقوم بتحضير رسالة للماجستير حول رؤية هوليود للعلاقة بين المسلمين، وصرح المنتج جبوري بأنه سعى لإظهار المسلمين في فيلمه على أنهم بشر قابلون للخطأ وليسوا أنبياء، وأنهم أصحاء نفسياً وليسوا متخلفين ووقحين[58].

محاولة أخرى مهمة قدمها الممثل الفلسطيني بشار القدومي مع زوجته (نيكول باليفيان) في فيلمهما (القيادة إلى زغزغلاند)، وجاءت فكرة الفيلم بعد انتقال بشار إلى هوليود قبل وقوع أحداث أيلول/ سبتمبر ببضعة أشهر لدراسة التمثيل المسرحي، ثم عدم تمكنه من العودة إلى بلاده بسبب الانتفاضة، ليتزوج من المخرجة الأمريكية المسلمة من أصل بوليفي (نيكول)، ويبدآ معاً التخطيط لهذا العمل.

كان الهدف هو صناعة فيلم أمريكي من داخل هوليود حول الصراع العربي مع الصهاينة، وبمساعدة المنتج السوري (مؤنس خلف) تمكن الزوجان من صناعة فيلمهما بميزانية متواضعة، مستعينين بستة وأربعين ممثلاً تبرعوا للتمثيل دون أجر، وتم التصوير بين لوس أنجلوس والقدس ورام الله وعدد من المناطق الفلسطينية، وتدور أحداث الفيلم الكوميدي حول قصص حقيقية جرت مع الممثل القدومي أثناء عمله سائقَ سيارة أجرة في هوليود لتوفير مصاريف دراسته ومعيشته، حيث كانت زوجته تقوم بتسجيل تلك القصص تمهيداً لتحويلها إلى أحداث هذا الفيلم.

وتبدأ القصة مع تساؤل الزبائن عن جنسية بشار، ووقوعه في بعض المشكلات عندما يخبرهم عن قدومه من فلسطين خصوصاً بعد أحداث أيلول/سبتمبر، مما اضطره أحياناً إلى نسبة نفسه إلى دولة اخترع لها اسماً وهو (زغزغلاند)، ولأن الأمريكيين هم من أكثر الشعوب جهلاً بالجغرافيا كانوا يصدقونه عندما يخبرهم بأنها دولة تقع بين الصين وإسبانيا!.. أما بشار فكان ينظر إلى هذه الدولة الخيالية على أنها المكان المثالي بعيد المنال، الذي يحلم به أهله في القدس ويقول: «هي ليست شيئاً محدداً تماماً، لكنها مع ذلك ليست لا شيء، هي شيء من أحلامنا ورغباتنا وأمانينا»[59] وتضمن الفيلم مواقف هزلية حاول فيها نقد العنصرية لدى اليهود الأمريكيين التي تتجاوز عنصرية الإسرائيليين أنفسهم، كما انتقد العربَ أيضاً عندما يقعون في فخ الهجرة والصراع بين البقاء في الغرب وحنين العودة إلى الوطن، ويُحسب له النجاح في كسر حلقة الصور النمطية المغلقة على تواضع الإمكانيات.

الشابات المسلمات لم يقفن أيضاً مكتوفات الأيدي، بل نجح بعضهن في منافسة الرجال على القيام بدورهن مع أن عبء العوائق مضاعف على عاتقهن، ونبدأ مثالنا الأول من هوليود مع الشابة الهندية المسلمة لينا خان ، التي لم يمنعها حجابها والتزامها من شق طريقها في هوليود بكل ثقة، فدرست الإخراج السينمائي أكاديمياً، وكتبت وأخرجت العديد من الأفلام القصيرة والفيديو كليب، وهي تسعى في بعض أعمالها إلى كسر الصور النمطية للمسلمين في أمريكا وتقديمهم في صورة مواطنين طبيعيين ومهتمين بالاندماج.

حقق فيلمان قصيران من أعمال (خان) جوائز في عدة مهرجانات، وهما فيلم (باسم يحاول)، و(أرض تدعى الجنة)، حيث يظهر في الفيلم الأخير عشرات من الرجال والنساء المسلمين الأمريكيين، وهم يحملون لافتات تتضمن رسائل متعددة تؤكد كونهم أعضاء مندمجين في المجتمع مثل: «أختي توفيت أيضاً في 11 سبتمبر»، وحظي الفيلم باهتمام كبير من منظمات مهتمة بحقوق المسلمين في أمريكا، كما قدم لمخرجته فرصاً أكبر للدعم والنجاح والذي نأمل أن نرى ثماره قريباً[60].

وفي كندا ثمة قصة نجاح أخرى حظيت بالكثير من الاهتمام، وبطلتها هي أيضاً شابة محجبة وملتزمة تحمل اسم (زرقاء نواز) وتصف نفسها بأنها «مسلمة محافظة تغطي رأسها وتؤدي الصلوات الخمس وتشارك في نشاطات المسجد المحلي»[61].

بدأت نواز -الكندية من أصول باكستانية- مسيرتها الفنية بالعمل كاتبة ومنتجة في هيئة الإذاعة الكندية (CBC) عام 1995، وعندما سارع الإعلام الغربي إلى اتهام المسلمين بتفجيرات أوكلاهوما، قبل أن تثبت التهمة بحق شاب أمريكي غير مسلم، بادرت بإخراج فيلم قصير يحمل اسم (حفلة شواء لدى المسلمين) الذي يُتهم فيه أخوان مسلمان بالإرهاب لمجرد وقوع انفجار خلال قيامهما بالشواء في حديقتهما الخلفية، ثم أخرجت نواز فيلماً قصيراً آخر عام 1998 باسم (التهديد بالقتل) وقدمت فيه قصة كاتبة مسلمة لا تجد وسيلة أفضل للشهرة من ادعاء استلامها رسالة تهديد بالقتل من متطرفين إثر كتابة روايتها الأولى. ومع سخرية نواز اللاذعة في الفيلمين من العقلية الغربية إزاء تعاطيها لقضايا المسلمين فقد حظيت بإعجاب كبير لدى عرضهما في مهرجان تورنتو السينمائي.

تابعت نواز نشاطها بنجاح وأسست شركة إنتاج خاصة، وأنتجت أفلاماً قصيرة أخرى وشريطاً وثائقياً باسم (أنا والمسجد) (2005)، وتنوعت مهاراتها ما بين الإخراج والإنتاج وكتابة النصوص. أما عملها الأهم فهو المسلسل الكوميدي (مسجد صغير بين المروج) الذي كتبت نصوص مواسمه الأربعة منذ 2007، وحظي باهتمام كبير في كندا وسويسرا وبعض الدول الإفريقية، وتحاول نواز من خلاله التعرض لصعوبات اندماج المسلمين في كندا بأسلوب هزلي وكسر حلقة الإرهاب المغلقة، ولا تترك سخريتها أحداً سواء من المسلمين أو غيرهم. ويمكن القول بأن نواز تمثل بحجابها وانفتاحها الثقافي الجيل الثاني -أو الثالث- من مسلمي أمريكا الشمالية، الذين يجمعون في شخصياتهم الناجحة والواثقة مزيجاً من ثقافتي الشرق والغرب، وعلى نحو يستحيل معه تصنيفهم دون الأخذ بعين الاعتبار هويتهم الهجينة مما يبرر لنواز بعض ما يتضمنه عملها من تساهل.

على الضفة الأخرى للأطلسي، تعمل منتجة شابة أخرى لتحقيق الأهداف نفسها في بريطانيا، وهي ( أسماء حسن ) التي شاركت في إنتاج وتصميم أزياء عدد من الأفلام البريطانية قبل أن يظهر اسمها في ملصق الفيلم الكوميدي (الكافر 2010) ( /The Infidel)، الذي يمكن تصنيفه مع عدد محدود من الأفلام ضمن توجه جديد في السينما الأوربية- الأمريكية، يسعى لتأسيس نظرة أكثر تفهماً للمسلمين في الغرب، وغالباً ما تكون الكوميديا خير وسيلة لتمهيد الطريق الوعر أمام القضايا الحساسة، خصوصاً عندما يرغب كاتب نص يهودي (ديفيد باديل) في التأكيد على أن تسعة وتسعين بالمئة من المسلمين في بريطانيا لا يؤيدون الإرهاب[62]. ومع أننا نتحفظ على بعض ما ورد في الفيلم فمن المهم الإشادة بهذا الجهد، وخصوصاً عندما يتجرأ الفيلم على إظهار اليهود في الطرف المقابل على قدر ما من العنصرية تجاه المسلمين. ونشير إلى أن (أسماء) تعد أول مسلمة تنتج فيلماً بريطانياً، ونقتبس من إحدى التصريحات قولها: «والداي طبيبان ولكني لم أرد أن أكون مثلهما، بل أردت عمل شيء يؤثر في المجتمع والنظرة إلى المسلمين... لم أرد أن أصنع أفلاماً فحسب، بل أردت صناعة أفلام مختلفة، وفكرت في أن وجود اسمي على ملصق هذا الفيلم سيشكل فرقاً كبيراً»[63]، لذا نأمل لها بدورنا النجاح في تحقيق هذه الأهداف.

# الإنصاف على طريقة هوليود.. المسلمون والعرب الأخيار!

استعرضنا في الفصول السابقة مراحل تطور الصورة النمطية الهوليودية للعرب والمسلمين الذين يمثلون أكثر من سُدس سكان الكرة الأرضية، بدءاً من أساطير الاستشراق وعالم الحريم والعبيد، مروراً بتحقير سكان الصحراء المتخمين بخيرات النفط والمتعصبين ضد الشعب اليهودي المحاصر على «أرضه»، ووصولاً إلى الإرهاب الذي جاء حلقةً أخيرة في سلسلة تطور هذه الفئة من المخلوقات الكريهة العصية على التحضر، والتي لا تكتفي بإصرارها على التخلف بل تحمل حقداً دفيناً على كل من سبقها إلى التحضر إلى درجة تغريها بإبادتهم وإزالتهم من هذا العالم الذي تريده أن يبقى متخلفاً!

هذه الصور النمطية تكرر عرضها مئات المرات في السينما والتلفزيون أمام عيون المشاهدين في العالم أجمع منذ بداية القرن العشرين، وكانت مهمة تمثيل هذه الأدوار الكريهة تُسند عادة إلى ممثلين يهود لأسباب عدة سبق التعرض لها، وقد يكون أهمها هو الاعتقاد بعدم جدارة الممثلين العرب والمسلمين بأداء أدوار مهمة حتى إذا كانت بهدف تحقيرهم، وهي تهمة سعى بعض الممثلين العرب إلى تفنيدها من خلال اجتهادهم في تقديم هذه الصور النمطية على أحسن وجه!

مع ذلك فهناك ما يدعو إلى التفاؤل، وإن لم يرقَ بعدُ إلى درجة التخلص من الصور النمطية التي أصبحت علامة مسجلة لكل عربي ومسلم بالفطرة، فالانفتاح المتزايد بين الشعوب يزيد من صعوبة تعميم تلك الصور على شعوب بأكملها، خصوصاً فيما يتعلق بالعرب والمسلمين الذين ولدوا وعاشوا في الولايات المتحدة.

نتيجة لذلك أصبح من الضروري ظهور صورة جديدة للعرب والمسلمين، فإلى جانب الأدوار النمطية المعتادة سُمح لهم بالظهور في صورة أخرى موازية دون الخروج بعيداً عن إطار الصراع مع الإرهاب، فإذا كان العربي أو المسلم شريراً كالعادة فهو إرهابي ، وإن تصادف كونه خيّراً كاستثناء من القاعدة فليكن دوره مقتصراً على التحالف مع الغربي المتحضر للقضاء على الإرهابيين الأشرار ، وكأن دوره في الحياة سيظل محصوراً ضمن حدود الإرهاب، حتى مع الاعتراف غير المسبوق بوجود جوانب أخرى في حياته كالعمل والدراسة والحب!

تقول (إيفلين السلطاني)، وهي أستاذة في جامعة ميتشيغان وتتابع صورة العرب والمسلمين الأمريكيين في التلفزيون الأمريكي منذ العام 2001، تقول: «إن معظم الأدوار التلفزيونية التي تتطلب شخصاً ذا أصول شرق أوسطية كانت تنحصر في نوع أو نوعين فقط من الأدوار. النوع الأول هو الشخص العربي المشتبه بقيامه بأنشطة غير قانونية، أما النوع الثاني فهو العربي أو المسلم الجيد الذي يساعد الحكومة الأمريكية في حربها ضد "الأشرار" العرب»[64]. وتؤيدها البروفيسورة (ميلياني ماكليستر) الأستاذة في جامعة جورج واشنطن مشيرة إلى أن تلك الأدوار تأتي دائماً في سياق الإرهاب، وأنها تدعم الصلة بين الهوية العربية والتهديد الذي تتعرض له الولايات المتحدة الأمريكية.

ويشرح الممثل الفلسطيني بشار القدومي الذي التحق بهوليود سنة 2001، هذه التطورات بقوله:
«بالمجمل زاد الطلب على الممثلين العرب، لكن بطابع سلبي لإرضاء وزارة الخارجية الأمريكية،
كل مخرج أمريكي كان يريد أن يثبت أنه وطني أمريكي بغض النظر عن الإساءة للعرب
المسلمين، والأدوار تلخصت إما في جنود عراقيين منظور إليهم بنظرة دونية، أو أن يظهر الرجل
الأبيض قائداً وبقية الممثلين -بغض النظر عن الألوان- يدورون في فلكه ولا معنى لهم»[65].

# المسلمون الأخيار على الشاشة الصغيرة

لم تتخلف الأعمال التلفزيونية عن طرح هذه الصور الجديدة للمسلمين بعد أحداث أيلول/سبتمبر، ونبدأ استعراض بعض الأمثلة مع أحد برامج الأطفال الأمريكية الموجهة إلى أطفال العالم كله، إذ تفتقت عبقرية هوليود عن شخصية كارتونية اسمها (ثريا قادر) في المسلسل الكارتوني الأمريكي (الأشخاص الغامضون/ X- Men) عام 2002، وهي فتاة أفغانية كانت تعيش في ظل حكم طالبان، ثم تعرضت للاختطاف والبيع في سوق العبيد (!) إلى أن خلصها أبطال المسلسل الخارقون وقاموا بضمها إلى الفريق تحت اسم (دست)، علماً بأن منتجي المسلسل قد تكرموا وتركوها تتمسك بحجابها ونقابها الأسود بعد خروجها من أفغانستان.

في العام نفسه، استحدثت هوليود بعض الشخصيات المسلمة ضمن فريق (وحدة مكافحة الإرهاب) في الموسم الثاني للمسلسل البوليسي (24)، وكانت القصة تدور حول محاولة إرهابية لتفجير قنبلة نووية في الأراضي الأمريكية مع اتهام ثلاث دول (شرق أوسطية) بمحاولة تفجيرها، ويتولى العميل (جاك باور)؛ الممثل كيفر ساذرلاند، مهمة تعطيل القنبلة.

ونظراً لنجاح المسلسل فقد تابعت شركة (فوكس) إصدار أجزاء أخرى منه كل سنة، تكررت مشاركة العرب والمسلمين الأخيار في المسلسل بضمهم إلى وحدة مكافحة الإرهاب وإظهار مدى ولائهم لوطنهم الأمريكي، ففي الموسم السادس الذي أنتج سنة 2007 تبذل (نادية ياسر) كل جهودها للقبض على الإرهابيين المسلمين المتواطئين مع أمثالهم الروس لتفجير قنبلة نووية في أمريكا، وأثناء عمل (الوحدة) على ملاحقة طائرة بلا طيار يتم إطلاقها لتفجير قنبلة نووية ثانية في (سان فرانسيسكو)، يكتشف أحدهم وجود تسرب للمعلومات من داخل الوحدة، فتتسارع أصابع الاتهام لتشير إلى (نادية) لكونها مسلمة ومولودة في (الشرق الأوسط)، وقبل أن يحسم الفريق أمره في إدانتها أو تبرئتها تظهر بعض الدلائل على تورطها ويتم توقيفها على الفور، ولكن براءتها سرعان ما تظهر قبل أن يشرع أحد زملائها العنصريين في تعذيبها ودفعها للكشف عن الجهة التي تتعاون معها.

هذه الأحداث وغيرها تم تصويرها بمباركة عدد من الممثلين العرب والمسلمين، ونذكر منهم نيكولاس قاضي، أنتوني عزيزي، سعيد فرج، هاز سليمان، فاران طاهر، وآل فارس ، إلى جانب الممثل السوداني الأصل (ألكساندر صدّيق) الذي ظهر في الموسم السادس سنة 2007 في دور الإرهابي العربي (أسعد)، والذي يتوب عن جرائمه وينضم إلى وحدة مكافحة الإرهاب للإيقاع بزملائه السابقين، ويتساهل معه المحققون مؤقتاً ريثما يستفيدون من خدماته، إلا أنه يموت في النهاية. ومن الطريف أن أحد النقاد الأمريكيين كتب مقالاً يعرب فيه عن ارتياحه لموته، فقد لقي جزاءه على أفعاله الشريرة بالرغم من توبته، إذ يبدو أن التوبة غير مقبولة لدى البعض حتى لو اقترنت بالتضحية لغسل الخطيئة، أما الأكثر طرافة فهو عرض المسلسل كاملاً على اثنتين من قنوات مجموعة (MBC) العربية، بالرغم من استنكار المنظمات الإسلامية الأمريكية لما يتضمنه من إساءة، بل اعتراض منظمات حقوق الإنسان ومجالس الآباء في الولايات المتحدة على ما يحتويه من مشاهد تعذيب وعنف ضد الإرهابيين .. والذين هم غالباً مسلمون، في حين لم نسمع

باعتراض الآباء في البلاد العربية على عرضه مترجماً إلى لغتهم، وإقبال أولادهم المراهقين على متابعته!

أما في مسلسل (الضائعون/ Lost) ، فتظهر شخصية العراقي (سعيد جراح)؛ الذي يمثِّل دوره الممثل نافين أندروز، وهو عسكري سابق في الحرس الجمهوري العراقي، يصادف وجوده على متن طائرة تقلع من أستراليا وتتحطم على جزيرة غير مأهولة فينجو منها بضعة أفراد ومنهم صاحبنا العراقي، أما سبب وجوده في أستراليا حسب قصة الفيلم فهو تجنيده لمصلحة تعاون استخباراتي دولي للتسلل إلى خلية إرهابية إسلامية نائمة، ومع أن الممثل ليس عربياً إلا أننا أشرنا إلى هذا الدور لكونه يصب في نفس الخانة المشار إليها من الأدوار، علماً بأن المسلسل قد عُرض أيضاً على إحدى قنوات مجموعة MBC العربية.

ونختتم عرضنا لهذا النوع من المسلسلات مع المسلسل الشهير (الخلية النائمة/ Sleeper Cell) الذي يتصدر هذه الفئة جميعها في إبراز الصورة النمطية الجديدة للمسلم الأمريكي الطيب، إذ يخترق العميل الفيدرالي المسلم الأسود (داروين)؛ الممثل مايكل إيلي، خلية إرهابية إسلامية نائمة داخل الولايات المتحدة ويتمكن من إقناع أعضائها بأنه منهم إلى درجة تمكنه من الإيقاع بهم، ونجد في المسلسل جميع الصور النمطية للمسلم الإرهابي، ولكنه في هذه المرة يبدو أمريكي المظهر إلى أبعد الحدود، إشارة إلى أن الخطر قائم حتى عندما يكون المسلم غربياً بشعر أشقر وعيون زرقاء! ويؤكد المسلسل على تقديم الأمريكي المسلم الطيب في صورة العميل الفيدرالي الذي لا تمنعه المواظبة على شعائر دينه من صلاة وقراءة للقرآن عن القيام بدوره في الدفاع عن أمريكا ضد الإرهابيين المسلمين .

ومن الطريف أن يسند دور زعيم الخلية إلى الممثل اليهودي المولود في إسرائيل (عوديد فهر) الذي سبق أن ظهر في سلسلة أفلام المومياء زعيماً لجيش العبرانيين المدافعين عن مصر، والأغرب من ذلك أن يكون كاتب المسلسل باكستانياً مسلماً واسمه (قمران باشا)، الذي -مع كل ما قدمه- لم يحظ برضا الكثير من الأمريكيين الذين لم يرُق لهم منظر الأمريكي المسلم، وهو يدافع عن بلادهم حتى وإن كان يحمل اسماً غربياً (داروين)!.. إذ يبدو أن صورة الإرهابي قد تغلغلت في أعماق اللاوعي الأمريكي إلى درجة يصعب تغييرها، مما دفع بالكثير من مشتركي شبكة (شوتايم) الأمريكية إلى التهديد بإلغاء اشتراكهم في حال إصرارها على عرض هذا المسلسل الذي أنتجته وبثته على إحدى قنواتها![66].

## (المسلمون الأخيار) في السينما

من أشهر الأمثلة المبكرة لظهور المسلم الطيب المتعاون مع الأمريكيين نذكر الفيلم الشهير (الحصار) المنتج عام 1998، الذي لعب فيه الممثل الأمريكي لبناني الأصل (توني شلهوب) دور (فرانك حداد) العميل الأمريكي المسلم لدى الـ(إف بي أي) ضمن فريق لمحاربة الإرهاب، وهو الفيلم الذي لم يُعرض في أي دولة عربية[67]، ولقي شهرة عالمية أكبر بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001، وقد سبق لنا الحديث عنه في هذا الكتاب.

يعلق البروفسور (جاك شاهين) على هذا الفيلم بقوله: «في فيلم الحصار كل العرب إرهابيون ويقتلون ألوفاً من الناس في مدينة نيويورك قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وأعتقد أن المخرج شعر بضرورة أن يكون هناك على الأقل شخص من خلفية عربية وأعطى ذلك الشخص دوراً ثانوياً جداً، وهو عميل في (FBI) وهذا ما حدث، وهذا شبيه بما كانت عليه صورة السود في الأيام القديمة في السينما حيث ترى كل السود يقتلون في الغابة، لكن هناك رجل أسود وحيد جيد هو صديق البطل، وهي مجرد عملية تزويقية ولا يجب أن نلقي لها أي اهتمام»[68].

هذه (العملية التزويقية) أصبحت أكثر شيوعاً في هوليود بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، إذ ينتهز المخرج البريطاني (ردلي سكوت) فرصة اندلاع الحرب الأمريكية على الإرهاب سنة 2001 لطرح فيلمه (سقوط الصقر الأسود)، والذي يحكي قصة إسقاط طائرة الصقر الأسود الأمريكية من قبل المقاومين الصوماليين، ومحاولة الأمريكيين الخروج من تلك المنطقة الملتهبة بأقل قدر من الخسائر، ويبدو اختيار موضوع كهذا لإنتاج فيلم هوليودي بالتزامن مع الحرب على أفغانستان، وما بعدها من حروب، أقرب إلى الدعاية السياسية.

تبدأ المهمة في هذا الفيلم بتعاون أحد الصوماليين مع الجيش الأمريكي لإرشادهم إلى مقر قيادة الميليشيات التابعة للجنرال (عيديد)، فنرى الصورة النمطية الجديدة للمسلم الطيب والمتعاون مع جيش العدالة الأمريكي، بدءاً بمشهد المؤذن وهو ينادي إلى صلاة الفجر من فوق المئذنة، والذي يتلوه مشهد للعميل الصومالي وهو يصلي على شاطئ البحر، ثم ينطلق لأداء مهمته العظيمة، ويقود سيارته وسط سوق شعبي تباع فيه الأسلحة علناً، وكأنها بضاعة مشروعة، فالإسلام الذي يرضي هوليود هو ذاك الذي لا تمنع فيه الصلاة ومظاهر التدين من التحالف مع الأمريكيين.

في نهاية الفيلم، ينجح الأمريكيون بإنقاذ بعض من تبقى من جنودهم الذين وقعوا في الفخ واضطروا للقتال حتى صباح اليوم التالي، وعندما يخرجون من الحي الذي تسيطر عليه الميليشيات وسط مقديشو يستقبلهم الشعب الصومالي الطيب بالزهور، فهم أبطال الحرية الذين جاؤوا من أقصى الأرض لتحريرهم. وقد نجح المخرج في تجسيد الصورة التي وعد بها الرئيس بوش الابن جيشه عندما يقتحم العراق ليحرره من نظامه الديكتاتوري!

هذه الصورة المثالية للولايات المتحدة لم تكن دائماً على ذلك النحو في أفلام هوليود، ولكن (العرب الأخيار) لم يخرجوا بطبيعة الحال عن الصورة النمطية الجديدة التي رُسمت لهم، إذ نجد إدانة واضحة من قبل كاتب ومخرج الفيلم الشهير (سيريانا)، الذي أنتج عام 2005، للرأسمالية الأمريكية المتمثلة في التحالف المشبوه بين كل من الإدارة الأمريكية في واشنطن ورؤساء شركات

النفط وحكام الدول العربية النفطية، وهو موقف مشابه لموقف المخرج الأمريكي (مايكل مور) الذي عبّر عنه في فيلمه الوثائقي (فهرنهايت 11/9) واتهم فيه إدارة بوش بالضلوع في مؤامرة قذرة مع الحكام العرب ضد مصالح الشعب الأمريكي.

بيد أن المخرج الأوسكاري (ستيفن جاجَن) ترك للعرب فرصة التحول إلى الجانب الخيّر في فيلمه (سيريانا)، ففي ظل هذه المؤامرة التي يبدو الجميع فيها على الجانب السيئ من أمريكيين وعرب، يظهر الأمير ناصر السباعي؛ الممثل السوداني الأصل ألكساندر صدّيق ، حالةً شاذة، فهو شاب مستنير تخرج في جامعة (أكسفورد) ويسعى إلى إصلاح شعبه بإحلال نظام برلماني وإشراك المرأة فيه، أي إن المخرج أعفى الأمير العربي الطيب من التحالف مع القادة الغربيين لكونهم هم أيضاً أشرار، ولكنه حصره أيضاً في خانة التعاطف مع الثقافة الغربية باعتناقه لأفكار التنوير الأوربية!

من جهة أخرى، لم يقف التحالف مع المخابرات الأمريكية عند حدود مسلسل الخلية النائمة سالف الذكر، فالرسالة ذاتها تكررت في فيلم (خائن/ Traitor) المنتج سنة 2008، والذي يتولى فيه العميل المسلم الأسود (سمير هورن)؛ الممثل دون تشيدل، مهمة اختراق إحدى الخلايا الإرهابية وتفكيكها قبل تنفيذ جريمتها بتفجير خمسين حافلة ركاب في أمريكا في عيد الشكر، وكما هو الحال في المسلسل نجد العميل المسلم هنا أيضاً في غاية التقوى والورع، وفي الوقت الذي هلل فيه بعض الصحفيين العرب لهذه الصورة المنصفة للمسلم المعتدل والتي تنزه الإسلام عن التطرف غاب عنهم الكثير من الرسائل المباشرة وغير المباشرة، ومن أهمها أن يندمج خمسون أمريكياً مسلماً في أعمالهم ودراستهم وحياتهم العائلية، ودون أن يختلفوا عن أي أمريكي آخر سوى في انتظار ساعة الصفر التي ينطلقون فيها لتفجير الأبرياء من حولهم، وليست هناك وسيلة أكثر فاعلية في إثارة العنصرية ضد العرب والمسلمين في الغرب مثل هذه! ويبقى التذكير بأن الكثير من مشاهد الفيلم صُورت في المغرب، وشارك فيه عدد كبير من الممثلين العرب والمسلمين مثل سعيد طغماوي، رعد راوي، حسام غانسي، حبيب حمدان، علاء صافي، علي مؤمن، داني جزار، مصطفى حنيني وعمر ممدوح .

أما دور العرب الأخيار في احتلال العراق فيظهر في فيلم (المنطقة الخضراء/ Green Zone) المنتج في أوائل عام 2010، الذي تزامن عرضه مع الذكرى السابعة لاحتلال العراق، إذ نعثر على هذا الدور في شخصية (فريد)، ويقوم بها الممثل المصري خالد عبد الله ، الذي يساعد الضابط الأمريكي (روي ميلر) على الوصول إلى القيادي السابق في نظام صدام (محمد الراوي)؛ الممثل الإسرائيلي ذو الأصل العراقي ييغال ناعور، لتتأكد شكوك (ميلر) عبر (الراوي) في الكذبة التي روّجت لها إدارة بوش حول حيازة العراق لأسلحة الدمار الشامل مما برّر لها احتلال البلاد وعزل قيادتها وحل جيشها ونهب خيراتها.

ومع هذا النقد الجريء في الفيلم لدوافع الحرب، لم يجد مؤلف القصة غير شخصية عراقية عانت الاضطهاد في ظل حكم صدام للتعاون مع الضابط الأمريكي، ولم يكن دافع (فريد) فيما يبدو البحث عن الحقيقة؛ إذ يقرر قتل (محمد الراوي) بنفسه فيما بعد، ويخسر (ميلر) بذلك شاهداً مهماً على اعتماد إدارة بوش سياسة التضليل والزج بالشباب الأمريكيين في حرب غير مجدية، في الوقت الذي يتنعم فيه القادة الأمريكيون بحياة مترفة داخل حصونهم في المنطقة الخضراء وسط بغداد، ومن المؤسف أن يتكرر تقديم مثل هذه الأدوار من قبل ممثلين عرب.

## من التعاون الفردي إلى الحكومي!

التحالف الأمني الرسمي مع الأمريكيين لمجابهة (الإرهاب) يُعد اليوم شرطاً أساسياً للعرب الراغبين في التصنيف ضمن فئة الأخيار، ويقدم لنا فيلم (المملكة/ The Kingdom)، المنتج سنة 2007، الوصفة الكاملة لتحقيق هذا الشرط، وعلى يد ممثلين عرب مرة أخرى.

يجسد دور العقيد السعودي (فارس الغازي)؛ الممثل الفلسطيني الشاب (أشرف برهوم)، أحد الأشكال الممكنة حديثاً لكسب الرضا الأمريكي، إذ لا يكتفي المخرج بإظهار هذا الضابط الطيب على أنه معادٍ للإرهاب والإرهابيين ومتحالف مع زملائه المحققين الأمريكيين القادمين إلى السعودية لمساعدته في التحقيق، بل يضحي الرجل بروحه ويُقتل في نهاية الفيلم، ثم يُسلم الروح على يد زميله الأمريكي المحقق (رونالد)؛ الممثل جيمي فوكس، أثناء مداهمتهما لمنزل رئيس (الخلية الإرهابية)، وهكذا يبلغ الانسجام بين المسلمين الأخيار والأمريكيين -الأخيار دائماً- ذروته عندما يتحد الجميع للتخلص من عدوهم الأوحد.

أما الصورة النمطية الجديدة التي يريد الفيلم استحداثها للعرب والمسلمين الأخيار فهي تفسح الطريق أمام المسلمين ليمارسوا شعائر دينهم دون اعتراض، على أن يبقى التدين ساذجاً وعلى طريقة (الدراويش) ودون أن يؤدي الإيمان إلى اعتناق أي قضية. مع ضرورة الانخراط فيما يسمى بالحداثة وعدم رفض أسلوب الحياة على الطريقة الغربية، والأهم من كل هذا هو التعاون مع الغرب للقضاء على الإرهاب الإسلامي . لذا يحرص المخرج على إظهار كل من العقيد غازي والنقيب هيثم في صورة الرجل المسلم متفتح الذهن، والذي يتجاوز العقبات الثقافية والصعوبات السياسية لإنشاء علاقة متينة مع زميله الأمريكي، في الوقت الذي يعاني فيه عقدة النقص أمام هذا الغربي ويشعر بعبء تقاليده الاجتماعية، كما يدخن السجائر ويحب الحياة ويعيش حياة عائلية مستقرة. أما على الصعيد الديني، فكلاهما يحرص على فرائضه الدينية، إذ تُعلم زوجة العقيد غازي ابنتها الصغيرة كيفية وضع الحجاب، ثم تصلي العائلة كلها معاً، أما النقيب هيثم فيحرص على الصلاة بملابس نظيفة، ويهتم برعاية أبيه المقعد ويعينه على صلاة الجماعة، وفي الصفحات القادمة تحليل كامل لهذا الفيلم.

في مثال آخر للتعاون الرسمي، يقدم لنا فيلم (جسد من الأكاذيب)؛ المنتَج عام 2008، نموذجاً أكثر تطوراً ويبلغ فيه نضج (العرب الأخيار) حده الأقصى، إذ لا يكتفي ضابط المخابرات الأردني (هاني سلام) بالتعاون مع المخابرات الأمريكية والتنسيق معها للقبض على أحد قادة القاعدة (الشيخ السليم) المقيم في عمّان، بل نجد الضابط الأنيق والمثقف والذي يعيش على الطريقة الغربية في اللهو واحتساء الخمر أكثر دهاءً وخبثاً من الأمريكيين أنفسهم، فهو الذي يستطيع حل اللغز ونصب الكمين للشيخ (السليم)، في الوقت الذي تعجز فيه المخابرات الأمريكية (سي آي أيه) عن ملاحقة الخلية الإرهابية عبر الأقمار الصناعية. ومع إسناد هذا الدور إلى ممثل بريطاني، فإن قائمة ممثلي الفيلم تحمل أسماءً عربية أخرى، فضلاً عن تصوير معظم مشاهده على الأراضي المغربية، وهو ما سيأتي تفصيله لاحقاً في الكتاب.

## شروط هوليود لاندماج (المسلمين الأخيار) في أمريكا!

إذا كانت الأفلام السالف ذكرها تحتفي بالمسلمين والعرب الأخيار المتعاونين مع أمريكا في حربها على الإرهاب من مواقعهم في بلادهم النائية، فقد اهتمت أفلام أخرى بقضية اندماج المسلمين الأمريكيين في مجتمعهم، وقدمت لهم فرص إنصافهم، ولكن وفقاً لشروط هوليود السابقة!

نذكر على رأس قائمة هذا الصنف الجديد الفيلم الكوميدي (لا تعبث مع زوهان/ You Don’t Mess With The Zohan) والمنتج عام 2008، فهو من أكثر هذه الأفلام حشداً للعرب الأخيار ، ومن أكثرها إذلالاً لهم في الوقت نفسه، إذ يفاجئ الممثل الكوميدي (آدم ساندلر) مشاهديه بدور يكشف عن الوجه الآخر لما اعتاد على التصريح به من شخصيته الوديعة والمسالمة[69]، ويظهر في صورة عميل أسطوري للمخابرات الصهيونية لم يكن يتقن شيئاً في الحياة سوى قتل الإرهابيين الفلسطينيين منذ طفولته (!) ولكن فطرة حب السلام تنهض فجأة في نفس هذا الشاب الذي تربى في بيت محارب متقاعد ليخبر والديه بأنه لم يعد يريد القتل، ثم يهاجر إلى نيويورك ويتقمص شخصية جديدة تتلاءم مع هواياته اللطيفة وهي قص الشعر والتزيين.

يحاول الفيلم، الذي شارك ساندلر في كتابة نصه وإنتاجه، أن يقدم لنا مفهومه الخاص للسلام بين الفلسطينيين والصهاينة، ففي الحي الذي يعمل فيه (زوهان) لدى صاحبة صالون الحلاقة الفلسطينية (دالية) يتقاسم العرب واليهود طرفي الشارع، وتدور بينهم المعارك باستمرار، ولكن الغلبة دائماً تكون بالطبع لمصلحة اليهود، وفي كل مشادة ينتهي الحال بالعربي إلى الخرس لأن اليهودي يفحمه، ومن ذلك أن تسعة وتسعين بالمئة من الناس يريدون من العرب الرحيل، وأن اليهود لا يعانون التمييز إلا لأنهم يشبهون العرب في ملامحهم الشرق أوسطية، بل إن الصراع أصلاً يدور بين فريقين: الأول اسمه اليهود، وليس الصهاينة ولا المحتلين ولا الغاصبين. والثاني يسمى الإرهابيين، وليس الفلسطينيين ولا العرب ولا أي شعب آخر.

يظهر العرب في ثلاث شخصيات مهمة في الفيلم: (دالية) الفتاة الفلسطينية الجميلة والمتحررة من دينها وعقلها، الشبح الإرهابي الخطير الذي يمتلك عشرين زوجة ومئتي فرع لمطعمه المخصص للوجبات السريعة، والذي نكتشف في النهاية أنه الأخ الأحمق للجميلة نادية والتي تنصحه في نهاية الفيلم بترك طريق الإرهاب والسير في طريق زوهان الذي سيتزوج بها، وأخيرًا سائق سيارة الأجرة الفلسطيني المغفل الذي ما زال يحقد على الجندي الإسرائيلي زوهان لسبب وحيد وهو أن الأخير كان قد سلبه عنزته، وليس أرضه ولا تاريخه ولا هويته. علماً بأن مصادرة هذه العنزة لم تكن أيضاً بغير مبرر فالصهاينة لا يسرقون!.. والطريف في الأمر أن هذه الأدوار الثلاثة تم إسنادها إلى ممثلين أمريكيين، أما الشخصيات العربية الثانوية والمغرقة في الحماقة والبشاعة فقد تبرع بها المنتجون للممثلين العرب، وعلى رأسهم موسى قريش والمصريان سيد بدرية وأحمد أحمد والفلسطينية ميسون زايد . ولعل أهم ما يميز العرب الأخيار في هذا الفيلم أنهم لا يوافقون على مبادرة اليهود للسلام إلا بعد اكتشافهم حقيقة أن المضي في طريق العنف لن يزيدهم إلا إخفاقاً، فهم المعتدون على أرض اليهود، وهم الماضون في طريق الإرهاب حتى نهايته، وهم قبل ذلك وبعده ليسوا سوى حمقى وشهوانيين مثيرين للسخرية!

الفيلم مليء بالتحقير والإهانة والصور النمطية واستغفال المُشاهد، فحتى العهر يصبح مبرَّراً عندما يمارسه زوهان في حق جميع نساء الفيلم، ولكن استئثار (الشبح) بعشرين زوجة فقط (!) هو أمر يثير الاشمئزاز، فالزنا مقبول والتعدد جريمة!.. أما الألفاظ البذيئة والإيحاءات الجنسية التي تملأ الفيلم فقد حققت سبقاً بوصول عدواها إلى العرب للمرة الأولى، فهو أول فيلم يحظى بشرف نقل الكلمات السوقية بالعامية العربية إلى هوليود!

السينما الهندية شاركت أيضاً في إقرار شروط الاندماج لهؤلاء المسلمين الأخيار في أمريكا، ونظراً لإتقانها هذه الشروط فقد نجحت أحيانًا في اختراق هوليود. ففي مطلع 2010 قامت شركة (فوكس) بتوزيع الفيلم الهندي (اسمي خان/ My Name Is Khan) في أكثر من 150 دولة، وأكسبته صفة العالمية، وهو من إخراج (كاران جوهر) وبطولة نجم بوليود المسلم (شاروخان)، ويؤدي المسلمون الهنود الكثير من أدواره.

يحكي الفيلم قصة الهندي المسلم (رضوان خان) المصاب بمرض التوحد، والذي يهاجر إلى الولايات المتحدة ويتزوج من فتاة هندية هندوسية (مانديرا)، حيث تنقلب حياته رأساً على عقب إثر هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فتعاني عائلته الاضطهاد بسبب اسم (خان) الذي تحمله. وينقل الفيلم الكثير من مشاهد معاناة المسلمين في أمريكا، ومنها تعرض المسلمين لمحاولات القتل في الشوارع فضلاً عن الشتائم والتحقير، وحشو عقول الطلاب في المدارس بالكراهية تجاه الإسلام الذي يدعو إلى الجهاد ضد جميع المخالفين ، واضطرار زوجة أخي رضوان (حسينة) لخلع حجابها بعد أن ينزعه عن رأسها أحد المتعصبين في الجامعة التي تحاضر فيها، وإفلاس صالون الحلاقة الذي تديره (مانديرا)، ويصل التصعيد إلى أقصاه مع مقتل الطفل سمير؛ ابن مانديرا من زوجها السابق، على يد زملائه المتعصبين، فتحمّل أمه المسؤولية على خان وتطالبه بإقناع الشعب الأمريكي كله بأن اسمه لا يستلزم كونه إرهابياً، وتشترط عليه عدم العودة إلى المنزل قبل إيصال هذه الرسالة إلى الرئيس نفسه، فينطلق الشاب المصاب بالتوحد في رحلة طويلة عبر البلاد بحثاً عن الرئيس بوش، يتعرض خلالها للاعتقال والقهر وغيرها من الأحداث، إلى أن يحقق غايته ويخبر الرئيس (باراك أوباما)، في بداية ولايته، بأن اسمه خان وأنه ليس إرهابياً.

الفيلم لا يخلو من بعض السطحية التي اعتادت عليها بوليود، حيث يكون للمصادفة دور البطولة في الربط بين الأحداث، ويتعرض البطلان لأشكال شتى من العوائق على طريق الحب وصولاً إلى النهاية السعيدة والمعروفة مسبقاً، ولكن ذلك لا يقلل من قيمة الفيلم الفنية ومن قدرته على نقل الواقع المؤلم للعنصرية التي يعانيها المسلمون الأمريكيون، ولا بد من الاعتراف بجهود صنّاع الفيلم في إظهار الجانب المشرق للمسلم المعتز بدينه، إذ يصرّ خان على التبرع بخمس مئة دولار لمجاعات إفريقيا، مع إصرار الجهة التي تجمع المال على تلقيه من المسيحيين فقط، كما يحرص خان على الصلاة في أي مكان حضرَته فيه دون اكتراث لنظرات أحد، أما حسينة فتعود إلى قاعة التدريس بحجابها لتصارح طلابها بأنها شعرت بالنفاق عندما خلعته مع إعلان ينذُر سماعه في هوليود: (حجابي هو وجودي).

وقبل أن نُغرق في التفاؤل بهذه الصورة المشرقة وغير المألوفة لا بد من وضع الأمور في إطارها الصحيح، حيث لا تكتمل صورة المسلمين الأخيار إلا وفقاً لشروط هوليود، فالمسلم الأمريكي الطيب هو الذي يصنف الناس حسب أخلاقهم ولا يكترث لدينهم، والذي لا يبالي بمقاطعة عائلته عند محاولتهم إقناعه بأن الزواج من هندوسية حرام، مع أنه باطل شرعاً، لأن الحب أولى لديه من

حكم الشرع فيمارس كل منهما دينه دون تعارض، وهو أيضاً الذي ينجح في التطبيع مع جيرانه حتى عندما يشارك أحدهم في حرب أفغانستان، كما يتعاطف مع ضحايا حرب العراق، ويفدي الشعب الأمريكي بحياته عندما يتعرض للكوارث، ويقدم زكاة ماله لجامعي التبرعات من أجل ضحايا فرق الإطفاء في هجمات أيلول/سبتمبر، مع أنها لا تُشتمل بمصارف الزكاة الشرعية، ويقوم بالتبليغ عن المتطرفين والمساعدة في القبض عليهم، ولأن التبرؤ باللسان لا يكفي فالأفضل أن يُرجم دعاة الإرهاب بالحصى كما رجم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الشيطان!

والأهم من ذلك؛ يجب على المسلم الأمريكي الطيب ألا يخطر بباله أي تساؤل حول دوافع الإرهاب، فالتاريخ كان ينقسم إلى ما قبل الميلاد وبعده، وإذا كنا نعيش الآن مرحلة جديدة اسمها ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر فيجب أن يدرك المسلم المعتدل أنها نقطة يبتدئ عندها تاريخ جديد لا علاقة له بما قبل، أما الداعية المتطرف الذي يحرّض الشباب على الإرهاب علانية في أحد مساجد لوس أنجلوس فهو وحده الذي يتحدث عن دوافع الإرهاب من قتل الفلسطينيين وغيرهم، وهو منطق متهافت ينبغي للمسلم الأمريكي الطيب أن يواجهه بالرجم بالحجارة وأن يكف عن التفكير في أن للمسلمين حقاً مهضوماً يحرض بعضهم على العنف!

# (وادي الذئاب).. المقاومة على طريقة الدراويش!

في الرابع من تموز/يوليو عام 2003 تناقلت وسائل الإعلام نبأ مداهمة الجنود الأمريكيين لكتيبة تركية في السليمانية ذات الأغلبية الكردية شمال العراق، حيث قام الأمريكيون باعتقال أحد عشر ضابطاً تركياً للاشتباه بمحاولتهم اغتيال محافظ كركوك، وأخرجوهم من مكاتبهم أمام عدسات المصورين إلى سيارات الجيش مقيدي الأيدي ورؤوسهم محشوة في أكياس من القماش. ومع أنه أطلق سراح هؤلاء الضباط بعد يومين من الحادثة مقروناً باعتذار رسمي مفاده أن الضباط كانوا يرتدون ملابس مدنية مما أدى إلى صعوبة التمييز بينهم وبين العراقيين -وكأن كونهم عراقيين يكفي لوصفهم بالإرهاب!- إلا أن الأتراك لم يصدقوا هذا الادعاء، بل تصاعدت موجة عارمة من الغضب الرسمي والشعبي في تركيا أثّرت في العلاقات بين البلدين، ورأى البعض في هذا التصرف انتقاماً من الأتراك الذين رفضوا السماح للقوات الأمريكية باستخدام القواعد العسكرية في أراضيها في أثناء غزو العراق، علماً بأن الرفض التركي قام على استفتاء شعبي ولم يكن مجرد قرار سياسي.

وللرد على هذه الإهانة؛ ولأن ميزان القوى لا يسمح للأتراك بالتحرك عسكرياً جاء الرد سينمائياً هذه المرة، وكانت النتيجة إنتاج أضخم فيلم تركي على الإطلاق، بميزانية تقدر بنحو عشرة ملايين دولار وبإنتاج تركي- كندي مشترك.

استغل الكاتبان (بهادير أوزدينير) و(راجي شاشماز) شهرة السلسلة التلفزيونية التركية (وادي الذئاب)[70] والتي تدور أحداثها حول مكافحة أحد ضباط المخابرات (بولات ألميدار) لعصابات المافيا التركية، فقاما بكتابة نص هذا الفيلم كاستمرارية للمسلسل الناجح وتحت الاسم نفسه، مع تحويل (وادي الذئاب) من الشوارع الخلفية في إسطنبول إلى المناطق المحتلة في العراق، كما أسند المخرج التركي (سيردار أكار) دور البطولة إلى بطل المسلسل نفسه (نجاتي شاشماز)، مع استقدام عدد من النجوم العرب والأمريكيين لمنح الفيلم صبغته العالمية.

نجح الفيلم بالفعل في تجاوز السوق المحلية، فبعد أن حظي بمتابعة غير مسبوقة في دور العرض التركية، وُزع في العديد من الدول الأوربية مثل هولندا والنمسا وألمانيا، ولقي إقبالاً جماهيرياً كبيراً، مع أنه قد منع عرضه في عدد من دور السينما الألمانية نتيجة لضغوط اللوبي الصهيوني، بل نجح المنتجون أيضاً بتسويقه في الولايات المتحدة نفسها، مما يسمح لنا بتناوله بصفته فيلماً عالمياً صُنع بأيد مسلمة.

## قصة الفيلم

تبدأ أحداث الفيلم التركي (وادي الذئاب.. العراق) بمشهد لأحد الضباط الذين تعرضوا لتجربة الاعتقال تلك وقد قرر الانتحار انتصاراً لكرامة الوطن، فيكتب رسالة إلى ضابط المخابرات (بولات) الذي سينتقم له وللأمة التركية فيما بعد. ثم يعيد الفيلم تمثيل الأحداث الحقيقية التي جرت في السليمانية، مع إسنادها إلى ضابط أمريكي وهميّ يدعى (سام ويليام مارشال) ويؤدي دوره النجم الأمريكي (بيلي زين)، والذي أدلى بتصريح مفاجئ لوسائل الإعلام يقول فيه: إنه كان مبهوراً بالشخصية التي أداها؛ لأنها تطرح وجهة نظر مغايرة تماماً لما اعتادت هوليود على تقديمه عند تناولها لمثل هذه القضايا المثيرة للجدل.

يدخل (بولات) أرض العراق مع اثنين من مساعديه لتنفيذ المهمة، وتبدأ الأعمال البطولية منذ اللحظة الأولى وكأننا أمام نسخة تركية للأسطورة الأمريكية (رامبو)، البطل الخارق الذي يقتل جيشاً كاملاً دون أن يُخدش.

وللمزيد من الانتقام يحشد الفيلم أكبر قدر ممكن من أشكال العجرفة والظلم الذي يمارسه الأمريكيون ضد الشعب العراقي بكل أعراقه، فيصور لنا انتهازهم فرصة سماع إطلاق النار في أحد الأعراس الشعبية -كما هي العادة في المناسبات- لتسويغ اقتحام القرية واعتقال شبابها، فيتحول الاحتفال إلى مجزرة يُقتل فيها العريس، وتبدأ العروس الأرملة خطتها للانتقام، إلى أن تلتقي بالضابط (بولات) ويتعاونان على تنفيذ هدفهما المشترك.

كما يعرض الفيلم أحداثاً مأساوية لاعتقال عشرات العراقيين ونقلهم إلى أحد المستشفيات ليقوم طبيب يهودي؛ الممثل الأمريكي جاري بوزي، بسرقة أعضائهم وبيعها إلى الأثرياء في الخارج. وفي مشهد آخر يفتح أحد الجنود الأمريكيين النار على العراقيين في أثناء شحنهم إلى المستشفى لأنهم أقل شأناً عنده من الحيوانات، فضلاً عن مشاهد أخرى يعاد فيها تجسيد ما جرى في سجن أبو غريب من تعذيب، والتي قدمها المخرج بجرأة غير معهودة مع تعرية الممثلين بالكامل.

في نهاية الفيلم، يبلغ خيال الكاتب درجة إقحام الجنود الأمريكيين في معركة وحشية مع المدنيين عند مداهمتهم لإحدى القرى، فتبدأ المعركة بقصف المئذنة التي يعتليها مؤذن عجوز ينادي لصلاة العشاء، ثم يعيث الجنود فساداً وتدميراً في بيوت القرية الطينية، بينما يستقتل الأتراك في هذه المعركة غير المتكافئة، وتُقتل ليلى قبل نجاحها في طعن (سام) ليقوم (بولات) بالمهمة مستخدماً خنجرها، وهو الخنجر الذي أهداه العريس القتيل إلى ليلى مؤكداً على أن أجداده اعتادوا على إهدائه لزوجاتهم جيلاً بعد جيل منذ عصر القائد الكردي صلاح الدين الأيوبي، ليستقر أخيراً في قلب القائد الأمريكي، وهي رسالة رمزية تحمل الكثير من الدلالات.

## غموض وتناقض

كما هو حال السياسة التركية مع صعود حزب العدالة والتنمية، قد يكون من الصعب تحديد المرجعية الإيديولوجية لصنّاع الفيلم دون ترك هامش للخطأ لما تتسم به من الغموض الذي قد يكون مقصوداً. ففي بداية الفيلم، يقبّل الضابط العلم التركي ويكتب في رسالة الانتحار: «في كل يوم قضيناه في العراق سألنا أنفسنا ما الذي كنا نفعله هناك؟ ثم لاحظنا أن كل من امتلك سلطة في تلك المنطقة فإنه قد قمع شعبها؛ أي الأكراد، إلا أجدادنا»، ثم يردد: (عاش الوطن) ويضغط على الزناد مفجراً رأسه. وتتوالى مشاهد الاعتزاز الشديد بالقومية التركية طوال الفيلم، فيظهر البطل التركي في صورة المخلّص الأوحد للأكراد، في حين ينقلب زعيمهم إلى عميل للاحتلال، ويغدو الموت في سبيل الوطن أمراً مألوفاً لدى المُشاهد، وعلى طريقة جيمس بوند في فداء التاج والملكة البريطانية.

مع ذلك، تطل المشاعر الإسلامية برأسها أيضاً طوال الفيلم، بل يُعاد سبب الاحتلال في بعض المشاهد إلى البعد عن الدين، إذ نسمع شيخ القرية الصوفي عبد الرحمن الكركوكي -الممثل السوري غسان مسعود - وهو يدعو ربه قائلاً: «لأننا تصرفنا بقسوة فيما بيننا فإن عدونا يضطهدنا الآن... أصبحنا جاهلين، خاطئين والآن مهزومين، لم توقظنا حكمة القرآن والسنة، فأيقظتَنا يا رب عن طريق أعدائنا، امنحنا القدرة والقوة لنصد هذه الاعتداءات، يا رب.. تقديراً لنبيك المبارك الذي أوصل إلينا الإسلام دين السلام، لا تحرمنا من الشريعة ولا من الأخلاق التي تركها لنا».

غير أن هذا التحليل الجريء لواقع الهزيمة، الذي يعزو المشكلة إلى جهل المسلمين بدينهم وقسوتهم بعضهم على بعض، لا يتطلع إلى ما هو أبعد، فمواقف الشيخ الصوفي لا تتعدى غالباً مهمة رسم صورة الإسلام المتسامح النابذ للعنف. ففي أحد المشاهد، يقتحم الشيخ عبد الرحمن بيتاً لبعض الشباب المقاومين وهم يستعدون لقطع رأس صحفي غربي، فيوبخ قائدهم قائلاً: نبينا لم يفعل هذا، ثم يسأله وهو ينزع السيف من يده: أأنت الله لتعرف إن كان بريئاً أم لا؟

وفي مشهد آخر نجده يحاور الفتاة التي ترملت في حفل زفافها (ليلى) عندما تستأذنه للقيام بعملية فدائية بين الجنود الأمريكيين، فيمنعها لأن من يقوم بهذه العملية يخالف إرادة الله من ناحيتين، فهو يقوم بها من باب اليأس ومخاطراً بقتل العديد من الأبرياء الموجودين في المكان من دون ذنب، كما يقدم ذريعة للغرب لنعت المسلمين بالإرهاب، ثم يؤكد مرة أخرى أن عجزنا نتيجة لانحرافنا عن القرآن والسنة ولإخفاقنا في الاتحاد. ولأن الفدائي شخص عاجز، فأعداؤنا يرغبون في زيادة هذه العمليات بل ربما هم من ينظمها، ثم يرى أن الحل يكمن في الدعاء إلى الله كي نصبح أحراراً.

ومع وجاهة القول بخطأ التفجير العشوائي فإن الزعم باستفادة الأعداء من العمليات الفدائية لا يتناسب مع أحداث الفيلم نفسه، حيث لا ينتظر المحتل مثل هذه الذرائع لينفذ مخططاته، وهذا ما رأيناه عندما يرابط الجنود الأمريكيون على مقربة من القرية بانتظار إطلاق الرصاص المعتاد في الأعراس ليبدؤوا الاعتقال، كما يؤكد الواقع أن هذه العمليات -وبغض النظر عن شرعيتها- هي السلاح الأقوى في مقاومة المحتل، ولم يثبت قيام الأمريكيين أو الإسرائيليين بالوقوف وراء أي منها، بل يعرض الفيلم تذمر الضابط الأمريكي الذي ينجو من إحدى هذه العمليات قائلاً: كيف

يجرؤون؟.. أما اكتفاء الشيخ بالدعاء إلى الله فيبدو موقفاً انهزامياً يتناسب مع الصورة النمطية للإسلام المعتدل في ثوب الشيخ الصوفي المهادن والمستسلم لإرادة الله، وتتجسد هذه الصورة بوضوح أكبر في حضرة الذكر الصوفية التي يقودها الشيخ بين أتباعه الدراويش!

وللمزيد من الغموض والتناقض، يبدي الشيخ الصوفي رأياً مغايراً دون أن ندرك سبب التحول، فنراه في مشهد آخر يستأمن أحد أتباعه على المسجد وملجأ الأيتام ثم يوصيه قائلاً: «الصبر لا يعني أن تخضع.. الصبر هو أن تقاوم»، والعجيب هو أن الفيلم لا يقدم لنا النموذج المقبول لهذه المقاومة سوى على يد ضباط المخابرات، في حين يظل الشيخ الصوفي بعيداً عن ساحة العنف حتى النهاية.

## من يدفع الضريبة؟

يحق للمسلمين أن يستبشروا خيراً عندما تُصنع أفلام عالية الجودة بجهود وأموال وإبداعات مسلمة، لتدفع عنهم تهم الإرهاب وتعيد إلى الساحة شيئاً من توازنها في ظل التفرد الهوليودي الطويل، وخصوصاً عندما يتحول اتجاه حركة النجوم من هوليود إلى الشرق ويشارك ممثلون أمريكيون في تقديم الوجه الآخر للحقيقة.

ففي موقف جريء آخر لهذا الفيلم، وبعد الاعتراف بالدوافع الاقتصادية لاحتلال العراق؛ يُسلِّط الضوء وبصراحة بالغة على الدوافع الدينية الصليبية لإدارة بوش، فيقف القائد الأمريكي "سام" أمام تمثال المسيح -عليه الصلاة والسلام- ويخاطبه بالقول: «امنحني القدرة من أجل الصراع في بابل كما وعدت في الكتاب المقدس.. الجيل القادم سيكون شاكراً لأبطالهم الذين بنوا مملكة الرب، إنه لشرف لي أن يذكروني في صلواتهم.. عندما خرج القديس بطرس سألته: إلى أين أنت ذاهب؟.. هاهي بابل، موطني، ولن تسألني إلى أين أنا ذاهب؟.. أعدك بأني سأموت هنا، وسيسقي دمي هذه الأرض، سيتدفق دمي على أرض الميعاد حتى تعود، وحتى تبقى أرض الميعاد لنا، فعندما تعود لنا أرض الميعاد سيعود السلام، والذي يُحلّ السلام فهو ابن الله»، كما لم يُغفل الفيلم أيضاً الوجود (الإسرائيلي) في العراق فيوجه المخرج عدسته إلى أحد الحاخامات اليهود في فندق يسيطر عليه الأمريكيون.

مع هذا كله، تظل المعالجة منقوصة ومحكومة بمرجعيات صناع الأفلام والأجواء السياسية في الدول التي ينتمون إليها، مما قد يفسر مظاهر التناقض التي مرت بنا في هذا الفيلم، فإخراج الإسلام من دائرة التسامح الصوفي إلى ساحة المقاومة قد يجد الكثير من الصعوبات في ظل المشهد السياسي التركي القائم عشية إنتاج هذا الفيلم، وفي ضوء هذا الواقع يمكننا فهم انسحاب الإسلام من الحياة اليومية لأبطال الفيلم باستثناء الشيخ عبد الرحمن، وظهور ليلى بكامل زينتها مع أنها نشأت في كنف الشيخ الوصي على أيتام القرية، كما نتفهم عجز أحد مساعدي الضابط التركي عن فهم نداء الأذان وكأنه يسمعه للمرة الأولى.

هذه الصورة الهزيلة للإسلام قد لا تعني بالضرورة توظيفه براجماتياً في سبيل الانتصار للقومية التركية، فالدهاء السياسي للحزب الحاكم في تركيا -في الفترة التي أنتج فيها الفيلم- لا بد أن يترك بصمته التي تستلزم من المراقبين التمهل وقراءة ما بين السطور، آخذين بعين الاعتبار تلك التناقضات بين المواقف، التي تدعونا للتفاؤل مع كل فيلم عالمي يُنتج بجهود عربية أو مسلمة، ويسعى إلى كسر قيود الاحتكار الهوليودي للحقيقة، ولا بأس حينئذ في دفع الضريبة ببعض التنازلات وتعانق الضابط الأتاتوركي مع الشيخ العثماني تحقيقاً لغاية أكبر.

# (الجنة الآن).. عندما تدفع المقاومة الإسلامية الضريبة!

يعرض الكاتب والمخرج الفلسطيني هاني أبو أسعد في فيلمه (الجنة الآن) اليومين الأخيرين من حياة شابين فلسطينيين في نابلس قررا القيام بعملية استشهادية، وحسب تصريحات المخرج فإنه لم يوجه فيلمه هذا إلى الغرب، كما لم يذكر أنه موجه إلى العرب أو المسلمين أيضاً، بل صنعه لنفسه أولاً كي يحافظ على وجود شعبه في التاريخ من خلال هذه القصة[71]. ومع ذلك، فقد عُرض الفيلم في عدة مهرجانات عالمية قبل أن يُوزع في الدول العربية، وكان الفيلم العربي الثالث الذي يدخل مسابقة الأوسكار عام 2006 بعد فيلم الجزائري رشيد بو شارب (غبار الحياة) (1984) [72]، وحاز على جائزة (جولدن جلوب) (الكرة الذهبية) لأفضل فيلم أجنبي في الولايات المتحدة، إضافة إلى العديد من الجوائز العالمية، مما يدعونا إلى تصنيف الفيلم ضمن قائمة الأفلام العالمية.

وُلد المخرج هاني أبو أسعد في فلسطين عام 1961، وانتقل عام 1980 وهو في سن التاسعة عشرة إلى أمستردام في هولندا لدراسة هندسة الطيران، ولكنه تحول فيما بعد إلى صناعة الأفلام، وصنع أفلاماً عديدة قبل أن ينال فيلمه (الجنة الآن) شهرة عالمية واسعة، مما دفعه إلى الانتقال إلى هوليود، وحسب تصريح له فقد عاش في أمستردام لمدة أطول في حياته مما قضاه في فلسطين.

## قصة الفيلم.. بين التشويق والإيديولوجيا

يحكي الفيلم قصة شابين فلسطينيين يعملان في ورشة لتصليح السيارات في نابلس (سعيد وخالد)، ويعانيان من تبعات الاحتلال والحصار كأي فرد آخر من (عرب 48). يخسر خالد عمله لإساءته إلى أحد الزبائن، فيخرج الصديقان إلى أحد المقاهي المتواضعة. وينقل لنا حوارهما صورة قاتمة عن معاناة الشباب الفلسطيني. وفي طريق العودة يلتقي سعيد بمدرس ملتحٍ (جمال) يتعاون سراً مع إحدى خلايا المقاومة، ليزف إليه خبر اختيار الصديقين -بناء على طلبهما- لتنفيذ عملية استشهادية في اليوم التالي.

من خلال هذه المقدمة الشائقة، يدفعنا المخرج الذي كتب نص الفيلم بنفسه إلى متابعة تفاصيل الساعات الأخيرة لشابين قررا الموت بملء إرادتهما، ويحاول الغوص في أعماق كل منهما مبرزاً البعد الإنساني والعاطفي للفدائيين، ومتعمداً كسر الحاجز النفسي لدى الغرب بهدف تفهم حاجات هؤلاء الشباب ودوافعهم، وتتجلى هذه المحاولة في تجميل صورة الاستشهادي بصرياً وسردياً، فهو شاب حليق الذقن يرتدي بذلة أنيقة، ويقبّل صديقته قبل المضي إلى الموت! وهي محاولة قد تشجع المشاهد الغربي على طرح الأسئلة حول الجوانب الأخرى لحياة الفلسطينيين بعيداً عن التخلف والعنف.

مع أن المخرج الذكي حرص على تجنب المرجعيات الإيديولوجية للاستشهاديين والمقاومين إلا أن الإيديولوجيا كانت تسفر عن وجهها بوضوح، فقد درجت العادة على تصنيف الفدائيين إلى علمانيين ومتدينين، حيث يرى العلماني (اليساري) في الاستشهاد الاختياري وسيلة أخيرة لإعلان حقه في الحرية وسلاحاً فعالاً لكسر معنويات العدو وإيقاع أكبر قدر من الخسائر في صفوفه، ويزيد المتدين على ذلك باعتقاده أن الاستشهاد هو أقصر طريق إلى الجنة، ولكن المخرج قرر إبراز جوانب أخرى من شخصية الفدائي لم تكن واردة في أذهان الكثيرين، ففي الوقت الذي يبدو فيه خالد؛ الممثل علي سليمان ، أقرب إلى التدين السطحي ونزقاً وغير متزن، نجد صديقه المتعقل سعيد؛ الممثل قيس ناشف ، خارج التصنيف لعدم إيمانه أصلاً بالقضية. وعندما يتوجه الاثنان لتفجير نفسيهما في تل أبيب في وقت واحد، يبدي خالد شوقه الكبير إلى الجنة، في حين يبدو سعيد متردداً وغير مقتنع بصحة ما يقومان به. أما صورة قائدي الخلية وهما أبو أكرم؛ الممثل أشرف برهوم ، وجمال، فلم ينجح المخرج في إبقائها على الحياد، فلحية جمال وإمامته بقية أفراد الخلية قبل العملية في الصلاة، وتذكيره الشابين بأنهما ذاهبان إلى الجنة، هي دلائل تشير إلى خلفيته الدينية، في حين يثير الشكوك بسلوكه البراغماتي الذي لا يقتصر على تدخينه الشره والمتواصل فحسب، بل نجد لديه الملامح المعتادة للصورة التي تقدمها بعض وسائل الإعلام لتلك الفئة من صنّاع الموت !

تتشابك خيوط القصة مع إخفاق العملية في المحاولة الأولى، فيفترق الشابان عن طريق الخطأ، ثم يبدأ خالد البحث عن سعيد، في حين يتابع الأخير طريقه وحيداً لتنفيذ العملية، ولكنه يحجم عن تفجير إحدى الحافلات المكتظة بالإسرائيليين عندما يلمح فيها طفلة صغيرة، ومع حلول المساء يلتقي عن طريق المصادفة بصديقته سهى التي تخفي إعجابها به -الممثلة المغربية لبنى عزبل -

فيكشف لها عن حقيقة والده الذي كان عميلاً للصهاينة وأنه يعاني قسوة الحياة بعد تصفية والده من قبل المحتل وهو في سن العاشرة، ثم يقبّلها قبلة الوداع ويمضي هارباً إلى قبر والده ويحاول الانتحار فوقه بتفجير نفسه قبل أن يمنعه خالد في اللحظة الأخيرة، مما يثير الكثير من التساؤل حول هذه الانهزامية المفاجئة للمقاوم الذي بات انتحارياً بغير قضية، لينحصر البعد النضالي للشهادة في مفهوم أضيق؛ نحاول تلمسه في حوار الاستشهادي الآخر (خالد) مع سهى التي ترفض الفكرة من أساسها وبشدة.

في المشهد التالي، يدور حوار طويل بين سعيد والمشرف على العملية (أبو أكرم)، ويمنح المخرج لسعيد وقتاً كافياً لشرح وجهة نظره، فيبدأ بالشكوى من السجن الكبير الذي يسمى الضفة الغربية، ومن الجرائم التي يرتكبها الاحتلال في حق الشعب الفلسطيني، أما الجريمة الكبرى في رأيه فهي استغلال ضعف الناس وإسقاطهم في فخ العمالة ثم تصفيتهم، إذ كان والده طيباً، ولكنه ضعُف في يوم ما، ويجب أن يتحمل الاحتلال نفسه تبعات هذا الضعف. وقبل أن يسمح المخرج بتحول بوصلة الاستشهادي من قضية المقاومة إلى تبرير الخيانة، يتذمر سعيد من عجزه أمام صمت العالم عن جرائم الاحتلال، ومن المحتل الذي يمثل دور الضحية والجلاد في آن واحد، ويعلن عزمه على تنفيذ العملية لاسترداد كرامته وإيصال رسالته، حتى إن لم يبق أمامه سوى دور المقتول والقاتل برد الفعل في آن واحد، ويُقفل الحوار الأخير للاستشهادي دون أن يأتي على ذكر الجنة التي وضعها المخرج عنواناً لفيلمه.

في المشهد الأخير يخرج الصديقان مرة أخرى إلى تل أبيب، ونكتشف أن خالداً قد تراجع عن العملية ولم يأت إلا لإقناع صديقه بالعودة، ولكن سعيداً يباغته ويمضي قدماً في خطته، ثم يفجر نفسه في حافلة مليئة بالجنود (الإسرائيليين)، ويُختم الفيلم بشاشة بيضاء تعطي المشاهد هامشاً واسعاً من التأويلات المتباينة.

## تجريد المقاومة

يثير تطور الأحداث الكثير من التساؤلات، إذ لم يكن التحول في مسار شخصية البطلين مقنعاً، فلماذا يبدي سعيد تردداً في البداية ما دام مصراً على المضي قدماً بهذه القوة؟ وكيف يمكن لسهى أن تقنع خالداً في حوار قصير وغير متكافئ بالعدول عن رغبته العارمة في الوصول إلى الجنة بأقصر الطرق؟ وهل يعقل أن يتحول هذا الاندفاع المدعوم بقناعة دينية وعجز عن النضال، حسب قوله، إلى موقف مناقض تماماً في اللحظة الأخيرة، وإلى اقتناع لا ينقصه الحماس بوجود طرق أخرى للنضال؟

من جهة أخرى، يتعمد الفيلم منح الفرصة الوحيدة للاستشهاد لسعيد بدلاً من خالد، كما يسمح لسعيد بشرح وجهة نظره بكل عقلانية وهدوء دون أن يناقشه أحد، في الوقت الذي نجد فيه خالداً عاجزاً عن تبرير دوافعه من دون غضب وانفعال شديدين، ثم تنجح سُهى؛ الفتاة المثقفة التي عاشت جزءاً من حياتها في الخارج، في نقض هذه الدوافع مع وجود حلول بديلة؛ كاللجوء إلى منظمات حقوق الإنسان وعدم تقديم المبررات للمحتل لتطبيق المزيد من القمع عند تنفيذ مثل هذه العمليات، أما الرأي الأكثر وضوحاً فهو الذي يُختتم به حوارهما عندما تصرخ في وجه خالد قائلة: ليست هناك جنة، إنها مجرد خرافة في رأسك(**!**).

هذه الصورة الهزيلة للاستشهادي لم تكتف بتفريغه فكرياً، بل جردته أيضاً من دوره الفاعل والحقيقي من خلال تقديمه في صورة (الكومبارس) الذي يتلقى الأوامر في الليلة الأخيرة من حياته. أما الصورة التي ظهر فيها القادة فلا تبتعد كثيراً عن الصورة النمطية الغربية لمدبري العمليات الإرهابية الذين يدفعون الشباب العاجز والمحبط إلى الموت بالنيابة عنهم، فشخصية جمال المريبة لا تبعث على الارتياح، بنظراته التي لا تخلو من الخبث وتدخينه الشره، أما مشهد تناوله للشطائر ببرود في أثناء قراءة خالد بيان الاستشهاد أمام الكاميرا فيجرده حتى من المشاعر، ويبرز سيطرته التامة على الموقف والطمأنينة التي ينعم بها في الوقت الذي يدفع فيه الآخرين إلى الموت**!**

يتكرر التنميط أيضاً خلال مشهد تحضير الشابين للعملية على خلفية إسلامية، حيث يقوم عناصر الخلية بحلاقة رأسيهما وتغسيلهما كما يُغسَّل الميت ثم تركيب الأحزمة الناسفة وإلباسهما بذلات فاخرة، وفي النهاية يصطف الجميع خلف رئيسهم في صلاة جماعية، وتتوالى هذه اللقطات الصامتة على خلفية دعاء جماعي نمطي: «اللهم شتت شملهم وفرق جمعهم...»، في ربط سمعي وبصري لاشعوري بين الإرهاب والعبادة[73]**!**

هذه المشاهد وغيرها تفسر حصول الفيلم على تمويل فرنسي، هولندي، ألماني، بل من صندوق السينما في إسرائيل، ثم وصوله إلى دور السينما في أوربا والولايات المتحدة وعرضه في أكثر من خمس وأربعين دولة، وترشيحه من قبل السلطة الفلسطينية للمشاركة والفوز بعدد من الجوائز في كبرى مسابقات الأفلام في العالم. ويبقى كل ما قيل عن الضغوط التي مورست لمنع الفيلم من الانتشار والفوز بالأوسكار خارج دائرة الاهتمام، لإدراكنا المسبق بقدرة هذه الضغوط على منع الفيلم من الوصول إلى مسابقة الأوسكار في حال تأكد إصرار اللوبي الصهيوني على طرده، وهذا لا يقلل من شأن تصريحات المخرج حول صناعة الفيلم بتقنيات بصرية عالية، إلا أنها ليست

السبب الوحيد في رأينا للوصول إلى العالمية، خصوصاً أن أداء بعض الممثلين لم يكن مقنعاً، مثل الهدوء المتكلف إلى درجة البرود في أداء الممثل قيس ناشف، واللهجة الهجينة وغير المقنعة على لسان لبنى عزبل، فضلاً عن تدني مستوى الأداء لدى معظم الممثلين الثانويين و(الكومبارس)، وهو أمر قد يبدو مبرراً لدى المشاهد العربي الذي يدرك صعوبة العثور على محترفين في الأرض المحتلة، ولكنها نقطة ضعف محسوبة لدى المشاهد الغربي وحكام مسابقة الأوسكار.

من جهة أخرى، ومع كل ما قيل عن موقف صانع الفيلم من المقاومة، فمن الواجب إنصافه بالعودة إلى اعترافه الأخير بأنه قد «غيّر رأيه»، مصرحاً بأنه: «لازم تكون الأولويات المهمة حالياً دعم المقاومة في أي شكل في الدراما»[74].

ولكن؛ هل سينجح هاني أبو أسعد بموقفه الجديد هذا في إقناع مموليه بدعم أفلامه الجديدة والمشاركة في مسابقة الأوسكار مرة أخرى؟ وإذا كان ذلك مستحيلاً فهل سيدعمه الممولون العرب هذه المرة؟

يبقى أن نشير قبل اختتام هذا الفصل إلى أن فيلماً فلسطينياً آخر تم ترشيحه لمسابقة الأوسكار في فئة أفضل فيلم أجنبي عام 2010، وهو فيلم (عجمي) للمخرج الفلسطيني (إسكندر قوبطي) بالاشتراك مع الإسرائيلي (يارون شيني)، والذي يسلط الضوء على معاناة الفلسطينيين في يافا. ومن الجدير ذكره أن قوبطي قد تجرأ بعد ترشيح فيلمه للأوسكار من قبل إسرائيل على التصريح بأن فيلمه ليس إسرائيلياً، فهو فلسطيني ولا يمثل إسرائيل ولا هي تمثله كوطن، ولعل هذه التصريحات كانت إحدى أسباب إخفاق الفيلم في المسابقة.

## الجوائز العالمية التي حصل عليها فيلم (الجنة الآن)

جائزة مهرجان برلين للسينما العالمية.

جائزة الفيلم الأوربي.

جائزة العجل الذهبي في هولندا.

جائزة الجولدن جلوب في الولايات المتحدة.

جائزة مهرجان دوربان للسينما العالمية في جنوب إفريقيا.

جائزة منظمة العفو الدولية (آمنستي إنترناشيونال).

وجائزة قراء صحيفة (مورغن بوست).

# (سيريانا).. تعاطفٌ معنا أم ترسيخ لعجزنا؟!

أعتقد أن تحليل الفيلم الأمريكي (سيريانا) ليس بالأمر السهل، فهو مثال جيد على الأفلام المعقدة وذات الحبكة المُحكمة، ويحتاج المشاهد لفهمه إلى التركيز بشدة على محاور القصة التي تسير بالتوازي دون أي تقاطع، ليكتشف في اللحظات الأخيرة تجمع الخيوط لتشتبك معاً في نقطة واحدة، وهي التي تشير بجرأة بالغة إلى أن كل ما يجري في عالمَي السياسة والأعمال ليس إلا خطة مرسومة لمصلحة فئة قليلة من المتنفذين في الولايات المتحدة، وبهذا يمكن فهم شعار الفيلم الذي رافق ملصقاته: "كل شيء مترابط"!.. فالجميع مدان بطريقة أو بأخرى في هذا الفيلم: الأمريكيون، العرب، الباكستانيون، الإيرانيون، وحزب الله، إذ يسعى الجميع إلى تحقيق مصالحه في هذه المنطقة الحساسة من العالم، باستثناء عنصر واحد لا نرى له وجوداً يذكر في الفيلم.. وهو إسرائيل!

الفيلم من تأليف وإخراج (ستيفن جاجَن) الحاصل على جائزة الأوسكار عن سيناريو فيلم (المرور/ Traffic) عام 2000، وقد استوحى قصة فيلمه من كتاب (لا أرى شرّاً/ See No Evil) لمؤلفه (روبرت باير) والذي كان عميلاً للمخابرات الأمريكية (سي آي إيه) ومسؤولاً عن ملف الشرق الأوسط خلال ثلاثين عاماً، حيث يدور الكتاب حول أسرار هذه المخابرات وعلاقتها بشركات النفط وبملاحقة خلايا الإرهاب في العالم الإسلامي. وقد أنتج الفيلم عام 2005، وحظي باهتمام كبير في دور العرض الأمريكية والعالمية، وفاز النجم جورج كلوني عن دوره فيه بجائزة الأوسكار لأفضل ممثل في دور مساعد.

# قصة الفيلم

يؤدي (جورج كلوني) دور العميل للاستخبارات الأمريكية (بوب بارينز)، حيث يُطلب منه بيع صاروخين لإحدى الجماعات في طهران بهدف الإيقاع بها وتفجيرها، ولكنه يفاجأ بأن أحد الصاروخين سيسلم على الفور إلى (إرهابي) مصري؛ الممثل المصري عمرو واكد ، وتظهر المفارقة عندما يعدّ (بوب) تقريراً لقادته في واشنطن عمّا جرى، ولكن قادته لا يكترثون للأمر لسبب غير مفهوم، مع أنهم صرحوا له بأن الخطر لا يأتي من إيران التي يحكمها الإصلاحيون -وكان ذلك في عهد خاتمي- ولا من العرب المتحالفين مع أمريكا، بل من «الذين يريدون أن يردوا العالم إلى ما كان عليه قبل أربعة عشر قرناً». ونتيجة لهذا التقصير؛ تتحقق مخاوف (بوب) وينفجر الصاروخ في ناقلة نفط أمريكية عبر عملية فدائية ينفذها شاب باكستاني يائس؛ الممثل الإيراني مظهر منير، بعد طرده من عمله في شركة نفطية عربية.

وفي عملية أخرى يسافر (بوب) إلى لبنان متخفياً في شخصية رجل كندي لملاحقة ولي عهد إمارة عربية نفطية (الأمير ناصر السباعي)؛ الممثل السوداني الأصل ألكساندر صدّيق . فيلجأ إلى أحد قادة حزب الله (سيد حسين هاشمي)؛ الممثل محمد مجد ، ليأخذ إذنه ويطمئنه بأن مهمته المخابراتية في بيروت لا علاقة لها بالحزب، وكأن بيروت تقع كلها في قبضة حزب الله الذي يجب أن يوافق على كل ما يجري فيها، ثم يطلب (بوب) المساعدة من عميل إيراني (الموسوي)، والذي يتصرف أيضاً في بيروت كما يشاء في إشارة إلى النفوذ الإيراني في لبنان، ولكن الموسوي يفاجئ صديقه (بوب) باختطافه وتعذيبه بوحشية للحصول على أسماء الجهات التي أرسلته، ولولا تدخل حزب الله لإنقاذه في اللحظة الأخيرة لقُطع رأسه!

في الوقت نفسه يعيّن الأمير ناصر المحللَ الاقتصادي الأمريكي (برايان) مستشاراً له، الذي يحرص على تحذير الأمير مما يحاك من مؤامرات للاستحواذ على النفط بين كل من والده وشقيقه وبين الأمريكيين، فيحتدم التنافس بين الأمير ناصر وشقيقه الأصغر الأمير مشعل؛ الممثل أكبر كرتزا ، على خلافة والدهما الأمير حمد السباعي؛ الممثل ناظم صوالحة ، ولما كان الأمير ناصر يحمل أفكاراً تنويرية لإصلاح بلاده، ويسعى إلى التمرد على الغرب بتصدير نفطه إلى الصين بدلاً من الولايات المتحدة، فإن العميل (بوب) يكتشف أخيراً أن الهدف من تكليفه بملاحقة الأمير هو قتله، ولكنه يتمرد على أوامر قادته ويحاول إنقاذ الأمير فيُقتل الاثنان معاً عبر صاروخ أمريكي موجه بالأقمار الصناعية!

## رموز ورسائل وصور نمطية

الفيلم مليء بالرموز والإشارات السياسية والإيديولوجية، التي يتطلب تفكيكها إعادة المشاهدة أكثر من مرة، فضلاً عن الصور النمطية التي لا يسلم منها طرفا الصراع الأمريكي والعربي، ولعل الصورة الأكثر تنميطاً للمسلم (الإرهابي) هي تلك التي يجسدها عمرو واكد في دور (محمد شيخ عجيزة)، فنرى شاباً ملتحياً بملابس خليجية، يخفي وراء ابتسامته المصطنعة الكثير من الحقد والشر، ويحسن اصطياد الشباب العاطلين عن العمل ليعوضهم عن الفقر والشعور بالغربة بإقحامهم في جماعته، حيث يجدون الطعام والمأوى والترفيه فضلاً عن الشعور بالانتماء، ومن خلالها تُغسل أدمغتهم ويتحولون إلى قنابل موقوتة لتنفيذ العمليات الانتحارية. ومع جرأة الفيلم على إشراك الغرب في المسؤولية من خلال تواطئه مع الحكام الفاسدين لنهب خيرات الشعوب العربية والمسلمة، فقد وقع في مطب اتهام الفقر بكونه المحرض الأول على انتحار هؤلاء الشباب، وهو ادعاء لا يمكن تعميمه لعلمنا بأن الكثير منهم ينحدر من عائلات ميسورة.

من جهة أخرى، يفاجئنا المخرج بصورة نمطية صادمة لحزب الله ومواقع نفوذه في بيروت، كما تبدو المدينة الجميلة على الهيئة التي كانت عليها خلال الحرب الأهلية، فلا نرى سوى الدمار والفقر والشباب المسلحين يملؤون الأزقة والأسطح وكأنهم في حالة استنفار لهجوم محتمل!

أما المرأة الخليجية فظهرت في صورتها التقليدية مع تعليق بصوت (مات ديمون)؛ المحلل برايان، يختزل فيه رؤيته للبلاد على أنها نساء يرتدين العبايات السود ويمشين خلف الرجال بخمسة أمتار، ورجال يرتدون ملابس بيضاء نظيفة ولا يضطرون للعمل في ذلك الجو الحار فيسندون مهمة خدمتهم إلى العمالة الآسيوية! وتكاد الصورة التي يقدمها الفيلم للعرب والمسلمين تكون سيئة بالكامل، فهم متخلفون، كسالى، عنيفون وإرهابيون، أما حكامهم فمتواطئون مع الطغمة السياسية والرأسمالية في الغرب.

أما ما قيل عن تعاطف الفيلم مع العرب بإظهارهم في موقع الضحية للإمبريالية الأمريكية، فهو -في رأيي- إجحاف مضاعف، فالفيلم يتناول ما يجري في المنطقة بمفاهيم ورؤى استشراقية، والحالة الإيجابية الوحيدة للعرب نراها في المشهد الذي يعلن فيه الأمير ناصر لمستشاره الأمريكي عن خطته لإصلاح بلاده بتعديلات سياسية استقاها من دراسته في أكسفورد، وكأن الإيجابي العربي الوحيد هو ذاك الذي تعلم في الغرب وعاد إلى بلاده المتخلفة بأفكار التنوير الأوربية!

ومع أن تصوير معظم مشاهد الفيلم في دبي والمغرب، فقد فوجئت أجهزة الرقابة الإماراتية فيما بعد بمشاهد غير مقبولة واشترطت حذفها قبل عرضها في الدور المحلية، ومن أهمها مشهد يظهر فيه جنود عرب يضربون العمال الآسيويين على الحدود، إضافة إلى الغمز الذي يتردد على لسان (مات ديمون) عندما يشير إلى قيام شركة بن لادن بأعمال التكييف في الحرم المكي وجنيها بذلك المليارات، وهو أسلوب معروف في الدعاية الإعلامية (البروباغاندا) حيث يُربَط بين أمرين في جملة ظاهرها البراءة وباطنها الاتهام!

## الضريبة

لم يكتف العرب والمسلمون الذين شاركوا في الفيلم بترسيخ هذه الصور النمطية، بل قدموا لصنّاعه خدمة إضافية مجانية، فالانطباع الأهم الذي يحصل عليه المشاهد من الفيلم هو أن العرب والمسلمين ليسوا مجرد شعب متخلف وغرائزي، أو حتى فئة مقهورة من الناس، بل هم أقل شأناً من أن يفهموا حقيقة المؤامرة التي تحاك لهم، حيث يتساءل الأمير ناصر أمام مستشاره الأمريكي عما يجري في المفاوضات بين أخيه مشعل والأمريكيين ليصرخ المستشار في وجهه ويوقظه من غفلته، فالأمريكيون يريدون الاستحواذ على تسعين بالمئة من احتياطي النفط العالمي الذي ما زال في بلاده في الوقت الذي ينفق فيه الأمير ملايين الدولارات في واحدة من حفلاته. والأسوأ من ذلك أن تجابه صحوة الأمير وسعيه لتحريك الشعب للتمرد على أخيه برفض أمريكي عاجل، فالقوة الأسطورية لأسياد واشنطن لن تتضرر برفض العميل (بوب) الانصياع لأوامرهم وقتل الأمير الشاب، ولا يتطلب الأمر سوى توجيه صاروخ من الفضاء الخارجي لقتله في بلاده ووسط حراسه، وكأن الأمريكيين يسيطرون على الأرض والسماء معاً، ولن يقف شيء في وجه مصالحهم.

الأمر نفسه يتكرر على الجانب الأمريكي عندما يعجز محام أسود عن التصدي لقضية الفساد التي يكتشفها في إحدى كبريات شركات النفط المتواطئة مع الأمير العربي، بل ينال المحامي الشريف سخرية لاذعة في وسط الشارع لمجرد بحثه عن العدالة، ونسمع الحقيقة المرة التي تُعلن على مسامع المارة: «الفساد هو ما يحمينا»، وهو الفساد نفسه الذي يتسبب في إهمال نمو الخلايا الإرهابية، وهو الذي يذهب ضحيته العميل (بوب) بمجرد أن يصحو ضميره. وبهذه النهاية السوداوية يسقط الكثير من الاحتمالات ويبقى الشعور المحبط بعدم جدوى التغيير، فإدانة الشر في الأعمال الأدبية والفنية لا تكفي ما لم ينتهِ الحال بإقامة العدل وإعادة التوازن إلى ذهن المتلقي.

المفاجئ هنا هو احتفاء الإعلام العربي بالمشاركة المشرفة للفنان الشاب عمرو واكد في هذا الفيلم، وتنظيم ندوة جماهيرية في قصر السينما بالقاهرة لجمعه مع معجبيه، وكأن ظهور اسم ممثل عربي في فيلم عالمي هو بحد ذاته شرف يرفع رؤوس العرب حتى إن كان في صورة نمطية مسيئة!

ومن الجدير بالذكر أن الممثل السوري غسان مسعود، الذي فُتح له باب العالمية بعد أداء دور صلاح الدين في فيلم (مملكة السماء)، كان قد رفض دور الأمير حمد السباعي ليقبل به الممثل ناظم صوالحة، ومع أن عمرو واكد رفض المشاركة في فيلم أجنبي آخر مسيء للإسلام، حسب قوله، فقد قبل المشاركة في هذا الفيلم؛ لأنه يفضح الجرائم التي ترتكبها أمريكا للاستيلاء على ثروات دول الخليج، ولأن جميع الممثلين يجسدون شخصيات إنسانية بمن فيهم الإرهابي، وهو يؤمن بأن الجمهور والرقابة في مصر سيفهمون رسالة الفيلم ولن يسيئوا الفهم[75]، وكأن القضية الأهم هنا هي عدم استياء الجمهور المصري وعدم منع الفيلم من العرض من قبل الرقابة المصرية، دون الالتفات إلى أن الدور الذي قام به سيكرّس الصورة النمطية للإرهابي المسلم لدى ملايين المشاهدين الغربيين، وربما بعمق لم يسبق له مثيل من خلال تفاصيل الحياة اليومية لقائد

الخلية المسلم بين جماعته وتلاميذه، والحوارات المفصلة التي تربط الإرهاب بالعفة وصلاة الجماعة وتعلم القرآن!

من جهة أخرى، لم يتنبه الكثير من النقاد العرب إلى أن الممثل البريطاني (ألكساندر سيديج) الذي قام بدور الأمير ناصر قد وُلد في السودان لأب سوداني وأم بريطانية واسمه الأصلي صدّيق الطاهر الفاضل المهدي، وأن أصوله تعود إلى مؤسس الحركة المهدية محمد أحمد المهدي، وأنه ابن أخي رئيس الوزراء السوداني السابق (الصادق المهدي).

شارك (صدّيق) في سلسلة (Star Trek) التلفزيونية منذ موسم 1993 حتى 1995 محتفظاً باسمه الحقيقي صدّيق الفاضل، ثم قرر تبديله لاحقاً للمزيد من الاندماج، وعاد إلى الأدوار النمطية المسيئة عندما ظهر في دور الإرهابي العربي (أسعد) في الموسم السادس من المسلسل البوليسي الشهير (24) والذي عُرض على إحدى قنوات مجموعة (mbc) عام 2008.

# الكوميديون المسلمون في أمريكا.. سخرية منا أم لأجلنا؟!

مع أن الصورة التي يحرص الأمريكيون على ترويجها في العالم هي قيام أمتهم على مبادئ الحرية والديمقراطية، وقوة القانون في حماية حق الأقليات والأعراق في المساواة مع الجميع، فإن الحقيقة التي لا يمكنهم نفيها هي عدم سيادة هذه المبادئ المثالية على الثقافة العامة في المجتمع الأمريكي، إذ تبقى في معظمها مجرد شعارات وقواعد أخلاقية وقانونية بعيدة عن التطبيق، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالتمييز ضد السود والمسلمين، بل يؤمن الكثير من الأمريكيين بأنه يجب على المهاجرين اللجوء إلى الكوميديا إذا ما أرادوا حقاً تدريب الأمريكيين على نبذ العنصرية.

أدرك الكثير من المهاجرين صحة هذه القاعدة ونجاعتها، وطبقوها بنجاح في فترات مختلفة من القرن العشرين، وكان للكوميديين السود على وجه الخصوص دور كبير في لفت أنظار المجتمع إلى قضاياهم في عقدي الستينيات والسبعينيات، حتى تمكنوا بالفعل من الحصول على تأييد الكثير من البيض لحقوقهم المدنية، فلمعت حينذاك أسماء كل من ديك غريغوري، ريتشارد بريور، صموئيل ريد وبيل كوسبي. ويدعم البروفسور (جاك شاهين) من جامعة إيلينوي الرأي القائل بالدور الكبير للفكاهة في إعادة النظر في الصور النمطية فيقول: «لا أعتقد أنك ستبدّل تفكيرك فجأة خلال مشاهدتك للعرض، ولكنك عندما تغادر وتسمع الروايات الإخبارية فيما بعد، سيظهر لك لاحقًا صحة بعض ما تبيّن في ذلك العرض، وعندها يُعيد الناس التفكير بالأمور»، كما يُنقل عن الكوميدي الراحل المعروف (بيتر أوستينوف) قوله: «إن الناس يأتون دائماً إلي بعد نهاية العرض ليقولوا لي: شكراً جزيلاً لك لأنك جعلتنا نفكر».

وبعد تعرض المسلمين لواحدة من أكبر حركات الاضطهاد في التاريخ الأمريكي إثر هجمات أيلول/سبتمبر، لجأ بعض الشباب الموهوبين من ذوي الأصول الإسلامية إلى (الكوميديا) وسيلةً لإيصال صوتهم إلى المجتمع. يقول الكوميدي مصري الأصل (أحمد أحمد): «لا يمكننا أن نعرّف بأنفسنا بالطرق الجادة لأنه لن يسمعنا أحد، فالطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي أن نأخذ الأمر بطريقة هزلية»!

وفي عام 2007؛ عُرض على العديد من القنوات الأمريكية فيلم وثائقي بعنوان (الكوميديون الأمريكيون المسلمون ينهضون / Muslim American Comics Come of Age) صُورت فيه تجارب وحياة خمسة كوميديين مسلمين أمريكيين من أصول شرقية؛ وهم المصري أحمد أحمد ، الإيرانية تيسا هامي ، الهندي أزهر عثمان ، والفلسطينيان دين عبيد الله وميسون زايد .. وهم جميعاً أمريكيو المنشأ والولادة، ويمكن القول بأن هؤلاء الخمسة هم من أكثر الكوميديين المسلمين شهرة في أمريكا اليوم، وتقوم مهنتهم في الأساس على تقديم النكات والمواقف المضحكة في المسارح والنوادي الليلية، وفقاً لما يسمى في الولايات المتحدة بالكوميديا الإلقائية (Stand up comedy).

قد يبدو الدافع الذي أعلنه معظم أو جميع هؤلاء الكوميديين لاعتلاء المسرح في غاية النبل، فهم يحملون بذلك راية الدفاع عن الحقوق الإنسانية والقانونية لملايين المسلمين في أمريكا، بل يفتحون الباب أمام المجتمع الأمريكي للاقتراب من الإسلام وطرح الأسئلة بجدية أكبر، ولكن صحة هذه

الدوافع والطرق التي يسلكها بعض أولئك الشباب تحتاج إلى تحقيق، فبعض النكات تبدو مؤلمة حقاً للكثير من المسلمين الذين لا يستسيغون هذه السخرية اللاذعة، كما لا يبعد أن يستغل بعض الكوميديين تلك الموجة لاعتلاء سلم الشهرة وجني المال على حساب غيرهم!

# كوميديات مسلمات.. ولكن!

في إحدى نكاتها الساخرة تقول ميسون زايد : «أنا ما زلت عذراء، بملء إرادتي.. [ثم تستطرد] وبإرادة والدي أيضاً»!.. ويضحك الجمهور الأمريكي ساخراً، في حين تقول ميسون أمام الكاميرا في الفيلم الوثائقي سالف الذكر: إنها لم ترغب بارتداء الحجاب في أمريكا، وإن والدها قد احترم رغبتها تلك، لذا ظهرت على الشاشة بملابس قصيرة جداً، ولم يمنعها ذلك فيما يبدو عن تمثيل الفتاة المسلمة والدفاع عنها وفقاً لمفاهيمها الخاصة!

ومع أنها أصيبت بشلل دماغي جزئي فقد حصلت ميسون على درجة البكالوريوس في التمثيل وقدمت عروضاً في مسارح عديدة في الكثير من الولايات الأمريكية، ثم انتقلت لتقديم عروضها في المناطق التابعة للضفة الغربية وبعض المدن المحتلة مثل الناصرة، حيفا، بيت لحم، رام الله، والقدس.

أما الكوميدية الإيرانية (تيسا حامي)، التي تعيش مع والديها المهاجرين من إيران، فقد اختارت وضع الحجاب على رأسها في أثناء ظهورها على المسرح لإضفاء بعض المصداقية، ومع اعترافها بأن والديها غير متدينين، حيث تنقل في إحدى نكاتها عن أمها أن جدها عالم الدين «سيتقلب في قبره لو عرف أن حفيدته كانت على خشبة المسرح تتحدث عن السحاقيات»، إلا أنها تحرص على استشعار معاناة المسلمات المحجبات في أمريكا -حتى إن سخرت من حجابهن- إذ صعدت على خشبة مسرح نادٍ كوميدي في بوسطن في إحدى ليالي آب/أغسطس 2004 وهي ترتدي بنطالاً أسود ومعطفاً أسود يصل إلى الفخذ مع غطاء للرأس، ثم حدقت في الجمهور وقالت: «كان ينبغي عليّ حقاً أن أرتدي معطفاً طويلاً"، ثم أضافت: "غير أني شعرت بنوع من الفسق اليوم»!

مواقف ساخرة أخرى تتكرر مع الكوميدية إيرانية الأصل (نيفين فارساد)، التي قدمت في مهرجان نيويورك الدولي الثانوي للفنون عام 2004 عرضاً ساخراً تحت اسم (Bootleg Islam)، وهو العرض الذي أشارت إليه صحيفة (وول ستريت جورنال) على غير عادتها، إضافة إلى اهتمام صحيفة (نيويورك صن) به في تحقيق أجرته عن المسرح السياسي، علماً بأن عرض (نيفين) لا يكاد يتعرض للسياسة، فمعظم اهتمامها منصب على استلهام المواقف المثيرة للسخرية من عائلتها بوصفها نموذجاً للعائلة المسلمة، كالسخرية من ابنة عمتها العذراء الساذجة والبالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً والتي تحلم برؤية زوجها عارياً في ليلة زفافها!

الأمر نفسه يتكرر مع فتاة أخرى وجدت في عائلتها المتدينة مادة غنية بالنكات المثيرة لضحك الأمريكيين، فعندما بدأت (شازيا ميرزا) الظهور على المسرح كانت ترتدي الحجاب، ومع أنها خلعته لاحقاً فهي تزعم أنها متدينة جداً، ويُذكر أن وسائل الإعلام الأمريكي منحتها فرصاً للشهرة أكثر من معظم زميلاتها مثل صحيفة (نيويورك تايمز) وبرنامج (60 Minutes) على شبكة (CBS)، وهو ما يمكننا تفهمه عندما نستمع إلى بعض نكاتها، إذ تقول في إحداها: «اسمي شازيا ميرزا.. هذا ما تقوله على الأقل رخصتي لقيادة الطائرات».. علماً بأن أمثال هذه النكات لم تطلقها (ميرزا) إلا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بفترة قصيرة.

أما عن عائلتها الباكستانية المقيمة في بريطانيا فتقول (شازيا): «يسألني الناس لماذا تمشي أمي خلف والدي بخمس خطوات، وأنا أقول: حسناً منظره أجمل من الخلف»، في حين تخصص بعض سخريتها لمعتقدات المسلمين نفسها حين تروي قصة تعرضها لقرصة خفية في أثناء زيارة لها إلى مكة المكرمة قائلة: «لا بد أنها كانت يد الله»!

أما الموقف الأكثر غرابة فهو قرار (ميرزا) التي كانت معلمة فيزياء في مدرسة بريطانية نزع حجابها عندما أخبرها أصحاب النوادي الليلية أن نكاتها باتت قديمة وتحتاج إلى بعض التجديد! وكما هي العادة في مثل هذه المواقف، سارعت (ميرزا) إلى التصريح بأن الحجاب لا علاقة له بالأخلاق، فأخلاقها لم تتغير بعد نزع غطاء رأسها، كما أبدت انزعاجها ممن يتهمها باستغلال حجابها وتدينها في الماضي لمكاسب شخصية.

ومن الجدير بالذكر أن (ميرزا) تخلت فيما بعد عن النكات السياسية وقصرت اهتمامها على تقاليد عائلتها المتدينة، وخير ما يلخص هذا التحول في الاهتمام بقضايا المسلمين الكبرى ومعاناتهم إلى مجاراة الغرب في ترسيخ الصورة السلبية التي كان من المفترض بهؤلاء الكوميديات أن يحاربنها فسنجده في اعتراف ميسون زايد التي تقول: «لا يتعلق الأمر بالعِرق.. إنه يتعلق بكوننا نساءً»!

## فرقة ملتزمة.. وتعتيم إعلامي!

أزهر عثمان بدا مختلفاً بهيئته المثيرة للجدل، فقد كان هذا الشاب -وهو محام وأستاذ جامعي أمريكي من أصل هندي- متعاطفاً مع الفكر المتطرف، ولكنه -حسب قوله- اكتشف خطأ هذا التوجه ومال نحو الاعتدال، ومع ذلك فلم يتخلّ أزهر عن مظهره التقليدي، وهو لا يخشى الظهور في ملابسه وقبعته الباكستانية ولحيته الطويلة في الشوارع الأمريكية وبرفقة زوجته المحجبة.

بدأ أزهر طريقه نحو الكوميديا عام 2004، ونجحت نكاته في لفت الأنظار إلى ما يعانيه المسلمون من سوء الفهم والإدانة المسبقة، ففي العرض المسمى (الله خلقني مضحكاً) صعد على خشبة المسرح وقال للجمهور بالعربية: «السلام عليكم»، ثم استطرد: «إذا كنتم لا تعرفون معنى هذه الجملة فسأترجمها لكم.. إنها تعني: سوف أقتلكم».. وانفجر الجمهور ضاحكاً.

ثقة (أزهر) بدينه وثقافته تعطيه الكثير من المصداقية فيما يقول، وتضفي على نكاته مسحة من الجدية التي يتحلى بها المؤمنون بقضيتهم، ففي إحدى نكاته نجده يقول: «لقد حققنا الكثير من التقدم في سبيل التخلص من العنصرية في الولايات المتحدة، فالرجل الأسود ما زال يشكو من عدم حصوله على محاكمة عادلة في أمريكا».. ثم يتابع: «أما المسلم فإنه يشكو من عدم حصوله على محاكمة من الأساس»!

وفي نكتة أخرى يتحدث (أزهر) عن شاب مسلم يتابع أسماء الممثلين والفنيين التي تظهر في الشارة النهائية لأحد أفلام هوليود، ثم يجد اسماً عربياً مدرجاً في القائمة فينتفض ويهلل من شدة الفرح وهو يقول: أخيراً لقد بدأ المسلمون بغزو هوليود!.. كما سخر في إحدى المرات من موقف الأمريكيين منه عندما يصعد إلى الطائرة، فما إن يضع قدمه في المطار حتى تلاحقه النظرات من كل الجهات، وبمجرد وصوله إلى الطائرة يدب الرعب في قلوب الركاب، حتى إذا هبطت بسلام في نهاية الرحلة يبادله الجميع نظرات الاعتذار مع ابتسامات حمقاء!

يشارك (أزهر)، الذي درس الشريعة الإسلامية في القاهرة، في فرقته المسرحية زميلان آخران وهما: الأمريكي من أصل فلسطيني محمد عامر ، والشاب الأسود المثقف (بريانت ريجينالد موس) الذي غيّر اسمه إلى (بريتشر موس) بعد اعتناقه الإسلام قبل عشرين سنة ويُعرف اختصاراً باسم (الداعية موس)، واشتهر (موس) منذ سنوات طويلة بخبرته في العمل مع فرق كوميدية إفريقية ولاتينية ويهودية كافحت للمطالبة بحقوق الأقليات، كما ظهر في برامج تلفزيونية أمريكية شهيرة مثل (ساتردي نايت) و(دايمون واينز) و(جورج لوبيز)، في حين يصرح محمد عامر بأن الفرقة استمدت فكرة تأسيسها من (منكّت الرسول) الصحابي الجليل نعيمان الأنصاري[76].

وتركز هذه الفرقة نقدها على ما يتعرض له المسلمون من الاضطهاد على وجه الخصوص، كما تتعرض لبعض وجوه الخلل في طريقة فهم المسلمين للكثير من الأمور دون تجريح، ومع ذلك فقد تعرضت لنقد بعض الجاليات المسلمة في الغرب حتى مُنعت من تقديم حفلتها في إحدى جامعات بريطانيا، في الوقت الذي تُفتح فيه الأبواب على مصاريعها أمام الكوميديين الآخرين الذين يتخذون من إسلامهم وأصولهم الشرقية مادة للسخرية.

ولعل هذا ما يفسر عدم حصول الفرقة على القبول الكافي لدى الإعلام الأمريكي، فاشتراط الفرقة في معظم الأحيان عدم تقديم الخمر خلال العرض، وظهور أعضائها في هيئة إسلامية، واستنادهم إلى خلفية ثقافية وحقوقية في نكاتهم اللاذعة، هي أمور لا تنال إعجاب الكثيرين حتى لو قاموا بتمريرها تحت ذريعة الكوميديا.

# اكتشفت فجأة أني عربي!

في المقابل، نجح كوميديون آخرون من أصول عربية ومسلمة في نيل إعجاب الأمريكيين على طريقتهم، ومن أشهرهم الكوميدي (دين عبيد الله / Dean Obeidallah)، المتحدر من أب فلسطيني وأم إيطالية ويحمل الجنسية الأمريكية، والذي أبدى ارتياحه مع اسمه الأول (Dean) لكونه لا يُظهر هويته العربية، ولكنه أصبح يتذمر مؤخراً من اسمه الثاني (عبيد الله)، لذا فهو يُسارع في بعض عروضه إلى إخبار جمهوره بأنه كان مجرّد شاب أبيض يعيش حياة شاب أبيض من نيوجيرسي، وعندما وقعت أحداث 11/9 أصبح فجأة: عربياً!

كان (دين) يعمل محامياً ثم انتقل إلى التحرير في شركة إعلامية، ومع أن دخله كان جيداً لم يرغب في الاستمرار؛ إذ لم يجد ما يحقق طموحه إلا في الكوميديا، فبدأ بتقديم النكات في نوادي نيويورك دون الإشارة إلى أصله العربي مستفيداً من مظهره الأمريكي، وعندما وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ظل حريصاً على إخفاء هويته، ولكنه وجد بعد عدة شهور أنه من المناسب استغلال أصوله العربية، وواصل نجاحه حتى حصل في عام 2005 على الجائزة الأولى لمسابقة (روح بيل هيكز) الكوميدية.

وفي تجربة أخرى؛ احتضنت مالكة أحد أشهر نوادي الكوميديا الإلقائية (ميتزي شور) سنة 2000 ثلاثة شباب شرقيين لتأسيس فرقتهم الكوميدية مطلقة عليهم اسم (الفرسان العرب/ The Arabian knights)، وقدمت لهم فرصة جيدة للولوج إلى عالم الشهرة، فقد انطلق من هذا النادي الشهير عدد من كبار ممثلي هوليود الكوميديين، مثل (روبين ويليامز) و(جيم كاري).

وبعد أحداث أيلول/سبتمبر 2001 حوّل أعضاء الفرقة الثلاثة نشاطهم أيضاً إلى السخرية من أوضاع المسلمين، ومما يتعرضون له من اضطهاد، بعد أن أدى بعضهم أدواراً في أفلام هوليودية تكرس الصورة المعروفة للمسلم الإرهابي!.. وفي العام 2005 حوّل هؤلاء الشباب اسم فرقتهم إلى فرقة (محور الشر) الكوميدية (The Axis of Evil)، وبدؤوا بتقديم حفلاتهم في العديد من المدن داخل الولايات المتحدة وخارجها.

اشتهر عضو هذه الفرقة أحمد أحمد؛ مصري المولد وأمريكي النشأة، منذ منتصف التسعينيات عندما ترك والديه المقيمين في كالفورنيا وانتقل للعمل في هوليود وهو في سن التاسعة عشرة، حيث لم يكن يرفض الأدوار التي تدور حول الإرهاب والعنف والتخلف، إلى أن سئم من تقديم دور مسلح عربي أو سائق سيارة أجرة، حسب قوله، فتحول إلى الكوميديا ليتحكم في المادة التي يقدمها.

يقول في أحد عروضه: «لقد توقفت عن التمثيل منذ مدة طويلة ودخلت عالم الكوميديا، ففي عالم التمثيل هناك العديد من الصور النمطية، لذا كنت دائماً أحصل على دور الإرهابي. تصوروا أنني قمت بدور الإرهابي في فيلم قديم يتحدث عن مجموعة من إرهابيين يقومون بخطف طائرة، تصوروا أن مديرة أعمالي اتصلت بي وقالت: إنه يجب أن أحاول القيام بالدور رقم أربعة، فسألتها: ما هو الدور أربعة؟ فقالت: الدور هو الإرهابي (رقم أربعة) لأن أدوار رقم واحد، اثنين، وثلاثة حاز عليها ممثل أسود وشاذ ويهودي تباعاً، فذهبت للقاء المخرج وفريق العمل وأديت الدور بشكل مبالغ فيه لأني أردت أن أسخر منه، فأعجب المخرج بأدائي وطلب مني القيام به مرة أخرى،

"اجلس سوف تعطيني وإلا سأقتلك".. فقال المخرج: عظيم هذا بالضبط ما كنت أبحث عنه، أريد أن تؤديه مرة أخرى لكن هذه المرة أريد منك أن تتقمص الروح الشرق أوسطية.. أرني تلك القدرة الكائنة في شعبك، فسألته: أتقصد الغضب؟ فقال: بالضبط استعمل ذلك الغضب الذي يتميز به شعبك، فاستعملت هذا الغضب الذي يتميز به شعبي وحصلت على الدور، ثم اتصلت بي مديرة أعمالي وأخبرتني بالأمر، فقلت لها: إنني لم أكن أحاول أن أحصل على الدور بل كنت أسخر منه، فقالت لي: ما فعلته كان ناجحاً، وقد حصلت على الدور، فقلت لها: أبلغيهم شكري وأني سأرفض هذا الدور ففي كل مرة أقوم به أشعر بأني أغذي وحش الصور النمطية، ولن أفعل ذلك بعد اليوم، فقالت لي: سوف يدفعون لك ثلاثين ألف دولار أسبوعياً مقابل هذا الدور».. وهنا يصمت أحمد وعلى وجهه ملامح الحيرة، ويضحك الجمهور!

أمام هذا الموقف نتساءل: ما جدوى محاربة الصور النمطية بإطلاق النكات الساخرة أمام ما لا يزيد على ألفي مشاهد في قاعة المسرح، في الوقت الذي يقوم فيه الكوميدي نفسه بتكريس الصورة النمطية نفسها في فيلم سينمائي يشاهده الملايين حول العالم وعلى مدى سنوات عديدة؟ خصوصاً إذا علمنا أن أحمد لم يضطر إلى المشاركة في تلك الأفلام المسيئة للمسلمين في بداية مشواره ليتوقف عندها بعد تحقيق قدر من الشهرة كما يفعل البعض، بل عاد إلى الظهور في الأفلام التي تغذي وحش الصور النمطية ، ومنها الفيلم الكوميدي (ترنيمة أمريكية / ( American Carol 2008))، والذي لم يفوّت مخرجه اليهودي (ديفيد زَكر) أي فرصة فيه لشيطنة المسلمين وتمجيد الجيش الأمريكي الحامي الأول للحرية، وإلى درجة من المبالغة قد لا يصل إليها أي فيلم تفكر البنتاغون في إنتاجه. وفي السنة نفسها ظهر (أحمد أحمد) بصحبة (ميسون زايد) في فيلم (لا تعبث مع زوهان)، وهو أيضاً من أكثر الأفلام تحقيراً للمسلمين تحت ذريعة التقريب والتطبيع مع اليهود في أمريكا. ولعل هذه الأدوار تبرر الفرص التي قُدمت لأحمد في الإعلام الأمريكي، فقد ظهر في قنوات تلفزيونية عديدة مثل (ABC)، ( BS)، (MTV) و(Central Comedy)، كما حصل على جائزة الكوميدي (ريتشارد بريور) للأقليات العرقية عام 2004. ولكن هذه الشهرة لم تقنع نقاده من الأقلية المسلمة الذين وجدوا في نكاته عبئاً إضافياً هم في غنى عنه، ففي إحدى نكاته يتحدث عن علاقاته مع العديد من أصدقائه اليهود في لوس أنجلوس، وبعد أن يسرد نقاط التشابه في الالتزامات الدينية بين المسلمين واليهود، يقول: إن بينهما فرقاً واحداً، فاليهود لا ينفقون الكثير من المال لأنهم متمسكون به، أما المسلمون فلا ينفقونه لأنهم لا يملكونه أصلاً!

# من المسرح إلى الشاشة

بعد نجاح الكوميديا (الشرق أوسطية) على المسارح وفي النوادي الأمريكية والبريطانية أصبح من الممكن نقل هذه التجربة إلى التلفزيون والسينما، للوصول إلى عدد أكبر من الجمهور، ويبدو أن التجربة لم تختلف في محاسنها ومساوئها عن مثيلتها في الكوميديا الإلقائية.

المخرجة والمنتجة الشابة الكندية من أصل باكستاني زرقاء نواز كانت تعمل بجد منذ منتصف التسعينيات قبل أن تحقق شهرتها العالمية اليوم عبر أنجح مسلسل كوميدي عن المسلمين في الغرب، فبعد فيلمَيْها القصيرين (حفلة شواء لدى المسلمين) (1996) و(تهديد بالقتل) (1998) نجحت نواز في إقناع هيئة الإذاعة الكندية (CBC) بإنتاج أول ثماني حلقات من مسلسلها (مسجد صغير بين المروج) (2007)، وكانت الفكرة تدور حول مشاكل جالية مسلمة صغيرة تحاول الاندماج في وسطها البروتستانتي في قرية وهمية غرب كندا، بدءاً من تأسيس مسجد صغير مروراً بكل ما يتعلق بالاختلافات الثقافية والدينية؛ كالحجاب وتهم الإرهاب، وجاءت المفاجأة مع استقطاب نحو مليوني مشاهد -وهو رقم جيد في كندا- مع بث الحلقة الأولى في مطلع عام 2007، ثم الحصول على ثلاث جوائز محلية وعالمية لتتابع نواز كتابة نصوص أربعة مواسم سنوية حتى عام 2010.

ومع أن نواز نجحت في دفع المشاهد الكندي لإعادة النظر في الكثير من المسلمات والصور النمطية المسيئة، فمن المؤسف أيضاً أن نجاحها لم يأت على طبق من ذهب، فهي لا تسخر من العنصرية تجاه المسلمين فحسب، بل تمتد -كما هو الحال لدى كوميديين آخرين سبق ذكرهم- لتشمل المسلمين أنفسهم وبطريقة لا تخلو أحياناً من الإيذاء والتجني، وهي نتيجة متوقعة إزاء خوضها طريقاً وعراً وشائكاً للوصول إلى هدفها الصعب في تحقيق الاندماج، وتنبع هذه المشكلة -في رأيي- من صعوبة الوقوف على رؤية موفقة للاندماج وعلى نحو يحقق رضا المسلمين والغربيين على حد سواء، لذا تجمع نواز في بعض حلقاتها بين مواقف متباينة يصعب على المسلم العارف بدينه التساهل معها تحت أي مبرر، كأن يرفض شيخ ملتحٍ عرضاً راقصاً محتشماً لدوافع شرعية معروفة، ثم يضطر لحضوره بل مباركته تحت ضغط ابنته غير المحجبة عندما تواجهه بتسجيل سري يظهر فيه وهو يراقص بعض النساء في أحد الأعراس، وتواجه نواز ازدواجية العقلية المسلمة في الغرب عندما يصارع هذا الشيخ الباكستاني رغباته في النظر إلى الراقصة على المسرح، وبين إغلاق عينه وفتحها أمام سخرية ابنته الشابة المتزنة وغير المحجبة. تترك نواز المشاهد العربي المغترب في حيرة أمام مطالبته بالجمع بين التزام ديني مفعم بالثقة واندماج لا يخلو من المخالفة الشرعية، لتبرز في النهاية ضحالة المعرفة الدينية لدى نواز وغلبة العنصر الغربي على مفهومها للاندماج المفضي إلى التمييع.

على الجانب البريطاني المقابل؛ ولتحقيق الأهداف ذاتها من اندماج للمسلمين وكسر للصور النمطية، وبعقل أكثر تفتحاً من عنصرية (آدم ساندلر)؛ كاتب فيلم (لا تعبث مع زوهان) وبطله، وضع الكاتب اليهودي "ديفيد باديل" نصاً كوميدياً لفيلم ( الكافر ) (2010) محاولاً من خلاله أيضاً التقريب بين اليهود والمسلمين عبر الكوميديا والمواقف الساخرة، ولكن في بريطانيا هذه

المرة، وشارك في إنتاج الفيلم عدد لا بأس به من المسلمين وعلى رأسهم المنتجة الشابة (أسماء حسن).

يدور الفيلم حول قصة (محمود ناصر)؛ الممثل من أصل إيراني أوميد جليلي ، الذي يكتشف في وقت متأخر أنه وُلد لعائلة يهودية قبل أن تتبناه عائلة مسلمة، فيبدأ البحث عن إرثه اليهودي عبر سلسلة من المفارقات التي أراد الفيلم أن يسخر بها من التعصب لدى المسلمين واليهود. ومع أن الصحافة في الشرق والغرب احتفت بالفيلم -وسبق أن أثنينا على بعض حسناته في فصل سابق- فمن نافلة القول الإشارة إلى أن فيلماً كهذا لا بد أن ينتهي إلى تجريد القضية من أبعادها التاريخية، ثم تجريد الإسلام نفسه -بما هو دين ناسخ لكل ما قبله- من جوهره، ليقدم لنا الحل على طبق علماني بحت، وبعيداً عن كل ما يمت إلى الدين بصلة ما بقي التدين قريناً للتزمت، والمفضي بدوره إلى الانغلاق والإرهاب!

## هل سيحقق الكوميديون المسلمون أهدافهم في الغرب؟

بناء على تصريحات الكوميديين المسلمين أنفسهم فإن أهدافهم تتراوح بين تصحيح الصور النمطية للأقليات العربية والمسلمة في دول الغرب من جهة، وإصلاح أخطاء هذه الأقليات لمساعدتها على الاندماج بالمجتمعات الغربية من جهة أخرى. وللتحقق من إمكانية نجاح هذه المحاولة؛ نسترجع بعض التجارب المماثلة التي سبق إليها الكوميديون من أقليات أخرى.

لقد عانى اليهود طويلاً من الصورة النمطية المسيئة إليهم في أوربا ثم في أمريكا، والتي تحصرهم في خانة الضعفاء، الهامشيين، البخلاء، وعديمي الضمير والذمة. وترسخت هذه الصور في الثقافة الغربية مع النظر إلى اليهود لقرون طويلة بوصفهم أقليات منبوذة تحمل على ظهرها وزر صلب المسيح -عليه الصلاة والسلام- وتُسند إليها المهن الوضيعة التي يترفع عنها الأوربي المسيحي مثل الإقراض بالربا والبغاء. ولما كان المسرح يركز منذ عصر اليونان على الأقليات والمجموعات الهامشية عرقياً ومهنياً وطبقياً فقد عانى اليهود في أوربا السخرية والإدانة في العديد من المسرحيات الشهيرة، ونذكر منها (تاجر البندقية) لشكسبير و(يهودي مالطة) لكريستوفر مارلو.

مع ذلك لم تبق هذه الصور النمطية إلى الأبد، فمع التحول الرأسمالي في القرن السادس عشر وتصاعد قوة (البورجوازية) التي منحت لكل من يملك المال والقدرة حقَّ المشاركة في المجتمع؛ بدأ اليهود بالخروج من قوقعتهم والاندماج في المجتمع وامتهان التجارة والصناعة، ورافق هذا التحول تحسن صورة اليهود في الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر.

وفي مطلع القرن العشرين، أصبحت الولايات المتحدة الوجهة المفضلة للمهاجرين اليهود من شرق أوربا وروسيا القيصرية، حيث وجد اليهود في أرض الأحلام مكاناً مناسباً ليمارسوا دورهم في المجتمع بحرية أكبر مع سيادة الروح الرأسمالية والقيم الديمقراطية، وتمكن أثرياؤهم من الاستثمار في شركات وأعمال ضخمة ساعدت على ترسيخ مكانتهم في المجتمع، بينما وجد عامة اليهود فرصاً جيدة للعمل في السينما التي كانت تبشر بولادة صناعة جديدة مدرة للربح وذات قدرة أكبر على التأثير في الرأي العام من الأدب والمسرح، ولما كانت مهنة التمثيل في نظر الأوربيين مهنة وضيعة، لم يجد اليهود أي صعوبة في ملء هذا الفراغ بعد أن اعتادوا على العمل في مثل تلك المهن.

وهكذا لمعت أسماء الممثلين اليهود في هوليود مثل (الإخوة ماركس) و(ماكس ليندر) و(آل جولسون)، وكانت لهم السيطرة التامة إلى درجة أنهم قاموا بجميع الأدوار المطلوبة حتى أدوار الزنوج السود، كما استغلوا العاطفة الدينية البروتستانتية لدى الشعب الأمريكي وقدموا له أعمالاً دينية تناسب ميوله انطلاقاً من التوراة؛ مثل فيلمي (حِكَم سليمان) و(الوصايا العشر).

أما المجال الأهم الذي برعوا فيه فهو الكوميديا، والذي مهّد لهم طريق الاندماج بقوة في المجتمع، فنجحوا في القيام بالأدوار التي تدور حول الصور النمطية لليهود مع الكثير من السخرية مثل المصرفي البخيل، رجل الأعمال الفاشل، الرومانسي الحالم، والرجل المتزمت الحازم، حيث مهّدت هذه الأعمال الكوميدية سواء في المسرح أو السينما للتعامل مع تلك الصور النمطية على أرض الواقع بشيء من السخرية.

ومع مرور الوقت، أصبحت هوليود في قبضة اليهود، وصار لهم الحق في عرض الصورة التي يريدونها عن أنفسهم، كما أن اندماجهم في المجتمع الأمريكي قلّص الكثير من الفروق التي كانت موجودة في أوربا، حتى أصبح اليهودي كأي مواطن أمريكي عادي سواء من الطبقتين الوسطى أو الثرية، وظهرت الشخصيات اليهودية من كلتا الطبقتين في السينما الأمريكية مع التركيز على أن اليهود هم أمريكيون عاديون ويحملون تاريخاً عريقاً يفخرون به. وتزامنت هذه التحولات مع تطابق المصالح السياسية بين الصهيونية والغرب عموماً، فزُرعت دولة لليهود في الوسط العربي-الإسلامي ليقوموا بدور الجماعة الوظيفية كما كانوا دوماً على مر التاريخ، وهو دور المبرر الشرعي لتدخل الغرب في شؤون المنطقة، كما ساعدت الدعاية الصهيونية على تحويل ما جرى في ألمانيا النازية من اضطهاد لليهود إلى وسيلة لابتزاز العالم وإظهار هذا الشعب في دور الضحية التي تستحق الشفقة، وهي الدعاية نفسها التي استصدرت من الفاتيكان القرار التاريخي ببراءة اليهود من دم المسيح.

هذه العوامل كلها ساعدت على تغيير النظرة العامة تجاه اليهود، وإمكانية تقبل وجودهم في المجتمع الغربي، ويضاف إليها عامل الحرص البروتستانتي، وهو المذهب الأكثر انتشاراً في الولايات المتحدة ومعظم دول أوربا الغربية، على حشد اليهود في أرض الميعاد (فلسطين) لتعجيل موعد عودة المسيح، ومن ثم إبادة كل من اليهود والمسلمين وإقامة مملكة العدل على هذه الأرض، مما يعني مساندتهم مادياً وسياسياً لإنشاء دولتهم والامتناع عن اضطهادهم إلى أن يأتي دور المسيح في القضاء عليهم!

في ظل هذه التطورات السياسية والاجتماعية، أصبح من الممكن للكوميديين اليهود أن يسخروا من أنفسهم في هوليود دون أن يخشوا تبعات هذه السخرية، فقد أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع الغربي، والأمريكي تحديداً. لذا برع كل من (وودي آلان) و(ميل بروكس) في تقديم النكات وصناعة الأفلام الكوميدية ذات السخرية اللاذعة من اليهود خلال السبعينيات والثمانينيات، أما اليوم فلم نعد نرى أثراً يذكر لهذا النوع من الكوميديا، حيث لم يعد من الضروري لليهود الحديث عن هذه المرحلة من تاريخهم بعد أن أصبحت لهم اليد الطولى في كل من السياسة والاقتصاد والإعلام في الولايات المتحدة، بل أصبحت السخرية منهم إحدى المحرمات التي يعاقب عليها القانون.

أما التجربة الأخرى المهمة لما يسمى بكوميديا الأقليات فهي تجربة الكوميديين السود، الذين اشتهروا في عقد الستينيات وما بعده بالتزامن مع تصاعد حركة الحقوق المدنية وتأييد الشعب الأمريكي لها من الأعراق والأحزاب السياسية كافة، إذ لم يعد استمرار التمييز العنصري ممكناً مع ثبوت عدم صحة وجود أي فروق في تطور الجنس البشري بين السود والبيض كما كان شائعاً، كما لم يعد ممكناً أيضاً تجاهل حقوقهم المدنية المشروعة التي تعد شرطاً لتحقيق مبادئ الديمقراطية والحرية والمساواة التي تقوم عليها الثقافة الأمريكية، علماً بأن السود لم يشكلوا يوماً حضارة تناهز حضارة الغرب، ولم يكن في تاريخهم ولا حاضرهم أي دور منافس لحضارة الغرب.

إزاء هذا الواقع لتطور قضايا كل من اليهود والسود وأوضاعهم، قد تبدو المقارنة مع وضع أقليات العرب والمسلمين ضرباً من الجهل بحقائق الأمور، فالمسلمون لم يكونوا يوماً مجرد أقلية تعيش في كنف الحضارة الغربية كاليهود الذين لا يزيد عددهم في العالم كله على اثني عشر مليوناً حسب بعض التقديرات، بل هم أمة تربو على المليار وربع المليار إنسان، ولديهم ثقافة وتاريخ وتشريع

في غاية الرقي، وهي الثقافة الوحيدة التي تُقلق الغرب منذ نشأتها، بدءاً من الحروب الصليبية وصولاً إلى اعتماد نظرية صراع الحضارات في التعامل معها.

بناء على ذلك، قد تساعد الكوميديا السياسية التي يقدمها المسلمون والعرب اليوم في الولايات المتحدة على تخفيف بعض الاحتقان، وربما على إظهار المسلمين في صورة البشر العاديين الذين يحق لهم أن يضحكوا ويعيشوا كبقية الناس!، وفي حال استمرارها على نحو منظم وهادف فمن الممكن أن تمهد لإعادة النظر في الكثير من قضايا المسلمين وحقوقهم، ولكن قد تصبح هذه الكوميديا في الوقت نفسه أداة لتكريس الوضع القائم بدلاً من العكس، كما هو الحال في بعض الدول العربية التي تمنع كل أشكال المعارضة باستثناء الكوميديا السياسية الساخرة، التي تتحول مع الوقت إلى مجرد أداة لتنفيس الاحتقان، وربما إلى رسالة غير مباشرة مفادها: «اسخروا من أنفسكم، فلن تحصلوا منا إلا على الضحك والتصفيق»!.. وعندها فإن الرابح الوحيد في هذه اللعبة هم نجوم الكوميديا، حيث المال والشهرة والسجاد الأحمر ودفاتر التوقيع.. وربما أيضاً الظهور بمظهر المناضلين وأصحاب الرسالة، وأي رسالة؟!

# (بابل).. أين حظ العرب والمسلمين من العولمة؟

رُشح فيلم (بابل/ Babel ) لسبع جوائز أوسكار سنة 2007، وحاز على جائزة أحسن فيلم في مسابقة الكرة الذهبية (جولدن جلوب)، كما أحرز بطله (براد بيت) جائزة أفضل دور مساعد في المسابقة نفسها، وظل الفيلم محور اهتمام الصحافة لفترة طويلة كما هو حال الأفلام المهمة التي تختار مكانها بعناية في صفحات التاريخ السينمائي.

يحكي مخرج الفيلم المكسيكي (أليخاندرو غونزاليس إينياريتو) في فيلمه قصة معقدة من ثلاثة محاور في ثلاث دول، متعمداً تسليط الضوء على المتناقضات والحواجز التي تفرق العالم إلى شعوب وثقافات ورؤى مختلفة، ومستمداً رؤيته من أسطورة بابل الواردة في التوراة والتي تزعم أن البشر أرادوا يوماً بناء برج في بابل ليصلوا به إلى السماء فعاقبهم الرب وبلبل ألسنتهم، فأصبحوا في اليوم التالي ولكل منهم لغته الخاصة حتى عجزوا عن التواصل فيما بينهم، وبدأت بذلك سلسلة التشعب إلى أقوام ولغات وثقافات مختلفة.

# حبكة درامية معقدة

يبدأ الفيلم بزوجين أمريكيين (كيت بلانشيه) و(براد بيت) يقرران القيام برحلة سياحية إلى المغرب بهدف استعادة الوئام المفقود بينهما منذ فقد أحد أولادهما الثلاثة، وفي أثناء الرحلة في صحارى المغرب يشتري رجل بدوي من آخر مسن بندقية صيد، كان هذا الأخير قد حصل عليها هديةً من سائح ياباني، ويقدمها إلى ولديه الصغيرين ليحميا بها قطيع الأغنام من خطر الذئاب، ولكنهما يقرران اختبار مداها من اليوم الأول فيطلق أحدهما النار على حافلة سياحية في طريق صحراوي، وتصيب الرصاصة بالمصادفة الزوجة الأمريكية في رقبتها، فيسرع الجميع إلى أقرب قرية لإسعافها، ويبدأ الخبر بالانتشار فتسرع السلطات المغربية إلى معالجة الأمر خوفاً من أن يكون العمل إرهابياً، وتبدأ الشرطة المغربية بمداهمة بيت البدوي العجوز وضربه مع زوجته ليعترفا بالأمر، فيقر ببيع البندقية إلى بدوي آخر لتبدأ مطاردة هذا الأخير مع عائلته وينتهي الأمر بإطلاق النار وقتل أحد أبنائه.

في الجهة الأخرى من العالم تقرر الخادمة المكسيكية التي بقيت مع ولدي العائلة الأمريكية لرعايتهما أن تأخذهما معها إلى المكسيك لحضور زفاف ولدها، ويستعرض الفيلم بذكاء الفروق الواضحة في ظروف معيشة الأطفال بين كل من الصحراء المغربية والعشوائيات المكسيكية والمدن الأمريكية. وفي طريق العودة إلى الولايات المتحدة يُصر ضباط الجمارك على تعقيد الأمور فيقتحم أخو الخادمة حاجز الحدود بسيارته ويفر هارباً إلى داخل البلاد بعد أن يترك أخته المسنة مع الولدين المدللين في الصحراء، وتنتهي القصة بقبض الشرطة على الخادمة وترحيلها إلى الخارج.

أما في اليابان فتشتبك الخيوط على نحو مغاير؛ إذ لا تجد المراهقة الصماء (شيكو) في ترف الحياة مع والدها المصرفي ما يعوض حاجتها إلى الحب والحنان بعد وفاة والدتها، فتطلب الدفء في علاقات عابرة مع الشباب، وإلى درجة ارتمائها في أحضان الضابط الذي يزورها في البيت بهدف التحقيق في البندقية التي أهداها والدها للبدوي المغربي وتسببت في جريمة قتل.

## صورة العرب والمسلمين في الفيلم

تنوعت الآراء كثيراً في تقييم الفيلم في الصحافة العربية بين مؤيد ومعارض، ومع أن بعض النقاد مال إلى قراءة الفيلم من منظور رؤيته الفلسفية التي ناقشت تعقيدات العولمة وتنوع الثقافات في إطار فني شائق، فإن ما يهمنا في هذا السياق هو الصورة التي قدمها بعض العرب والمسلمين المشاركين في الفيلم عن شعوبهم، والضريبة التي دفعتها تلك الشعوب لتلك المشاركة.

للوهلة الأولى، تبدو هذه الصورة في غاية التخلف بالتركيز على حياة البداوة وقسوة الصحراء، مع إهمال روعة الطبيعة المغربية وغناها الحضاري في مدنها الكبرى. وتتجسد هذه الصورة في مشهد تجمهر النساء والأطفال لرؤية السائحة المصابة وهي تتلقى العلاج في بيت إحدى النساء العجائز وكأنهم أمام مشهد لزائر من الفضاء الخارجي. ونرى هذه الصور النمطية أيضاً في اتهام الطفل البدوي لأخيه بالتحرش بأختهما الطفلة الصغيرة، في إشارة مقيتة إلى الكبت الجنسي الذي وصل إلى درجة هيام طفل صغير بأخته الصغرى في بيئة مقفرة لم تبلغها بعد منتجات العولمة المشبعة بالإباحية!

أما الصورة الأسوأ فجسّدها بعض الممثلين المغاربة في أدوار رجال الشرطة الذين لا يعرفون سوى لغة الضرب والرفس حتى في حق العجائز والأطفال، حرصاً على تبرئة ساحتهم من تهم الإرهاب أمام الغرب، في مقابل الصورة المشرّفة لتعامل سلطات الدول المتقدمة مع مواطنيها، سواء في السلوك الراقي للمحقق الياباني أو حرص الحكومة الأمريكية على إنقاذ إحدى مواطناتها لمجرد تعرضها للأذى.

من جانب آخر؛ رسم الفيلم صورة جميلة للدليل السياحي المسلم (أنور)؛ الممثل محمد أخزم ، الذي يبذل كل جهده لمساعدة السائحَين الأمريكيَّيْن واستضافتهما في بيته إلى حين وصول حوامة الإسعاف، ثم يرفض أخذ المال جزاء على خدماته. كما يسخر الفيلم بطريقة غير مباشرة من هاجس الأمن لدى الأمريكيين الذين يصابون بالذعر لمجرد تعرض حافلتهم لرصاصة طائشة، ويتابع السخرية من المجتمع الغربي بأسره مع تسارع وسائل الإعلام العالمية إلى نقل الخبر وتداعياته قبل أن تبرأ ساحة المسلمين من هذه التهمة.

في نهاية الفيلم، وبعد أن يتجول المُشاهد بين قصصه الموزعة على ثلاث قارات يحق له أن يتساءل: أين حظ العرب والمسلمين من العولمة؟ وهل يمكن اختزال واقع مجتمعاتنا في مظاهر الكبت الجنسي والدكتاتورية والتخلف وإرهاب العالم؟ ولماذا تدفع هذه المجتمعات ضريبة مشاركة بعض الممثلين والفنيين العرب في فيلم هوليودي لتحقيق بعض المكاسب الشخصية؟ وهل تحققت بالفعل نبوءات بعض المستقبليين[77] عن قدرة العولمة على تمييع الهوية الوطنية لشعوب (العالم الثالث)، ربما إلى درجة تجعل من المقبول لدى البعض الإساءة إلى ذواتهم ومجتمعاتهم، وبمباركة من قياداتهم بذريعة الكسب المادي البحت؟!

# (مملكة السماء) ... عندما تكرمت هوليود بإنصافنا!

صلاح الدين الأيوبي.. أيقونة سحرية تداعب أحلام المسلمين منذ احتلال فلسطين في منتصف القرن العشرين، ومثال نموذجي للبطل الأسطوري الذي يسعى صانعو الأفلام العرب إلى شرف تجسيده في أعمالهم، فقد أعيد تمثيل حكايته في السينما والمسلسلات العربية عدة مرات، وظل فيلم صلاح الدين مشروع العمر الذي سعى إلى إنجازه المخرج العالمي مصطفى العقاد على مدى أكثر من عشر سنوات، حتى توفي، أو قُتل عمداً كما يرى البعض، إلى أن بادرت هوليود مرة أخرى لتقديم هذا الدور ومن وجهة نظرها الخاصة، فحبَس العرب والمسلمون أنفاسهم، وتناقلوا الأخبار والشائعات منذ بداية الحديث عن تحضيرات فيلم (ردلي سكوت) (مملكة السماء) حتى وصوله إلى دور العرض، وما إن شاهدوه بأعينهم حتى تنفسوا الصعداء وبالغوا في تقديره والثناء على صانعيه!

# قصة الفيلم

في عام 2005، حقق المخرج البريطاني (رِدلي سكوت) -وهو من مواليد 1937 ويحمل لقب فارس ( Sir )- وعده بإنجاز فيلم تاريخي عن الحروب الصليبية يحمل اسم (مملكة السماء) أو (مملكة الجنة / Kingdom of Heaven)، بنصّ كتبه السيناريست اليهودي (وليام ماناهان)، وبطولة كل من أورلندو بلوم، إدوارد نورتون، ديفيد ثيولس، ليام نيسن، ناتالي كاكس، ومايكل شين، إلى جانب الممثل السوري غسان مسعود الذي قام بدور صلاح الدين، والمصري خالد نبوي ، والبريطاني- السوداني ألكساندر صدّيق ، وبلغت كلفة إنتاج الفيلم نحو 130 مليون دولار.

يركز الفيلم على قصة الحدّاد (باليان) الذي يرفض في البداية التوجه إلى القدس مع والده، ثم يحج إلى المدينة المقدسة مضطراً ليكفّر عن تورطه في قتل أحد الرهبان. ومنذ وصوله إلى ميناء الأرض المقدسة (مسينا) الذي يعد نقطة انطلاق الصليبيين إلى القدس، يبدأ البطل الصليبي باكتشاف التعصب الديني لدى الأوربيين الذي يتجلى في مواعظ التحريض ضد المسلمين حيث لا يُعد قتلهم خطيئة.

يصل (باليان) إلى القدس، ويفاجأ بنبأ وفاة والده الذي يورثه حكم مقاطعة (أيبلان)، وهي إحدى حاميات الطريق إلى القدس، وهنا تبدأ تجليات الصورة المثالية للرجل الأبيض الذي جاء من أقصى العالم ليعمر الأرض، فيوحد القائد الشاب جهود جميع المزارعين والعمال في إقطاعيته ليحولوا الصحراء إلى جنة خضراء، علماً بأن الفيلم قد صُوّر في واحات المغرب الصحراوية والتي لا تشبه الطبيعة الجغرافية لأرض فلسطين.

في تلك الأثناء، ينشب صراع بين الملك (بالدوين الرابع) المصاب بالجذام وبين (حراس الهيكل) المتعصبين، ومعهم بارون الكرك (رينالد)، والمسمى عند العرب أرناط، والقائد (جي رينو)، فيتعمد هؤلاء الإغارة على قوافل المسلمين ونقض الهدنة مع صلاح الدين الذي يحشد جيوشه لاستعادة حصن الكرك، ويلتقي القائدان أمام أسوار الحصن فيلقي صلاح الدين التحية: «السلام عليكم» ويبدي استعداده للانسحاب بشرط معاقبة البارون الخائن فيوافق الملك، وفي نهاية الحوار يعِد صلاح الدين الملكَ بإرسال أطبائه إليه لمعالجته من الجذام.

يشرف الملك بعدها على الموت، ويُظهره الفيلم حتى اللحظة الأخيرة رجلاً في غاية النبل والأخلاق، فتُعين ابنته (سيبيلا) زوجها (جي رينو) ملكاً على عرش القدس، ليبادر على الفور بإطلاق سراح بارون الكرك الذي يتحرش مجدداً بالمسلمين وينقض الهدنة. فيتواجه الجيشان مجدداً في حطين بالرغم من نصيحة (باليان) بعدم الخروج، ويتجنب المخرج تصوير هزيمة الصليبيين مكتفياً بعرض جثثهم التي تنهشها النسور مع وصول (باليان) إلى أرض المعركة بعد انتهائها، فتشمئز نفسه ويتزايد نفوره من التعصب ، وتتوجه عدسة المخرج إلى كوم الجثث والرؤوس الذي نصبه المسلمون ليقذفوا في قلوب الآخرين الرعب، وهو تقليد عانى منه المسلمون أنفسهم في حملات التتار ولم يُذكر في كتب التاريخ قيام المسلمين بشيء من ذلك!

في خيمة صلاح الدين، نجد (رينالد) و(جي رينو) أسيران ينتظران مصيرهما، ثم نفاجأ بصلاح الدين وهو يباغت (رينالد) الخائن بضربة سيف قبل أن يحكم بقطع رأسه جزاء خيانته

المتكررة[78]! لكنه يعفو عن الملك (جي رينو) فليس من شيم الملوك أن يقتل أحدهم الآخر إذا وقع في الأسر. ثم يتابع صلاح الدين حشد جيوشه لاستعادة القدس، في حين يُعدّ (باليان) العدة لحمايتها بعد أسر ملكها ومقتل معظم مقاتليها في حطين، حيث لم يبق إلا العوامّ، فيحاول أسقف القدس إقناع (باليان) بالهرب لعدم قدرتهم على التصدي للجيوش الجرارة، ولكن (باليان) يرفض هذا العرض مصراً على البقاء وحماية شعبه، ثم يلقي خطبة عصماء يتحول الدهماء على إثرها إلى أبطال.

تدور معركة دامية عند أسوار القدس على مدى ثلاثة أيام، يقدمها المخرج عبر مشاهد ميلودرامية مطولة لاستبسال الصليبيين، وفي إطار تاريخي مزور للحضارة المصطنعة التي يرفل فيها الصليبيون من تقنيات وخطط عسكرية محكمة يباغتون بها المسلمين، إلى أن يقف صلاح الدين مندهشاً وعاجزاً أمام مشهد احتراق وانهيار أبراجه الخشبية مثل أحجار (الدومينو)، في حين لا يحتمل البطل (باليان) رؤية أحد الجنود المسلمين وهو يرفع رايته عند أعلى السور، فيندفع بكل بطولة ويقتل كل من يقف في طريقه ليرمي براية الهلال إلى الأرض في مشهد درامي مؤثر.

بعد إقناع المشاهدين ببطولة الصليبيين ونبل أهدافهم، يتمكن المسلمون بالمصادفة من اكتشاف نقطة ضعف في أحد الأسوار فيتسللون منها إلى المدينة، وعندها فقط تميل الكفة لمصلحة المسلمين حيث تغلب الكثرة الشجاعة، ويضطر (باليان) إلى الحوار مع صلاح الدين، وهو مرفوع الرأس. وهنا نجد (باليان) قد فقد كل ما كان لديه من إيمان ولم يعد في نفسه أي أثر للمقدسات، مهدداً بعدم الخروج من القدس حتى يدمر كل مقدساتها، كي لا يُبقي فيها شيئاً يطمع فيه أحد من المؤمنين بأي دين[79]، فيجيبه صلاح الدين بحنكته السياسية واعداً بالصفح عن جميع المقاتلين بشرط مغادرتهم المدينة، وعندما يذكّره (باليان) بمجازر الصليبيين في حق المسلمين عندما احتلوا القدس يجيبه بنبل: «أنا صلاح الدين.. صلاح الدين»، وما إن يُدِرْ صلاح الدين ظهره ويخطُ بضع خطوات حتى يسأله (باليان): «ماذا تعني لك القدس؟» فيستدير صلاح الدين ويجيب على الفور: «لا شيء»، ثم يستدرك رافعاً قبضة النصر: «كل شيء»!

يُستقبل (باليان) فور عودته إلى القدس استقبال الأبطال، وتبدأ قوافل الصليبيين بالجلاء من المدينة، وتمشي الملكة (سيبيلا) بين عامة الناس وكأنها واحدة منهم. وفي المشهد الأخير نرى ملك إنجلترا (ريتشارد قلب الأسد) يبحث عن (باليان) في أثناء مروره بفرنسا في الطريق إلى الشرق، فيطلب منه الانضمام إلى حملته لاسترداد القدس، لكن (باليان) يرفض العرض ويصر على البقاء حداداً مغموراً في الريف الفرنسي قائلاً: «مملكة السماء يفعل الله بها ما يشاء»، ويتابع حياته مع زوجته الجديدة (سيبيلا) في بيت متواضع[80]، بعد أن تخليا عن أطماع الجاه والسلطة لمن يبحث عنها من الملوك ورجال الدين.

## رسالة الفيلم

نبدأ قراءتنا لرسالة الفيلم مع التذكير بنقطتين: الأولى هي الحوار الذي جمع الفنان غسان مسعود مع مخرج الفيلم في أثناء مقابلة اختيار الممثل الذي سيؤدي دور صلاح الدين، ففي نهاية الحوار سأله المخرج: هل تعتقد أن صلاح الدين كان رجل دولة أم رجل حرب؟ وأجاب مسعود: بل رجل دولة. وفي المساء حصل على الدور بالفعل!

النقطة الثانية هي تصريح أدلى به الممثل السوري باسم ياخور للصحافة السورية بأنه كان أحد المرشحين لهذا الدور، ولكنه لم يحصل عليه لأن المخرج أراد إظهار صلاح الدين في مظهر القائد السياسي، وهو ما يتعارض مع ضخامة جسم ياخور، وكأن المخرج قد استكثر على صلاح الدين صفة البطولة حتى في جسده، مع أن التاريخ يؤكد على فروسيته منذ صغره.

بالعودة إلى الفيلم، نجد أنه يدين دوافع القادة الصليبيين لتلك الحملات التي يقر بحصرها في السلطة والثروة، ويقدم الصورة النمطية للتدين في الغرب الحديث؛ التي تقوم على العلاقة التي كانت قائمة في القرون الوسطى بين الكنيسة والملوك، فرجال الدين يشكلون طبقة مستقلة في المجتمع تقوم بمهمة السيطرة على عقول الناس وقلوبهم، ويتحالف معها الملوك والنبلاء الذين يسيطرون على أجساد الناس وأرزاقهم، وبهذا المنظور يصبح الدين مجرد كذبة وضعها المنتفعون من رجال الكنيسة، ثم وُظفت بالتواطؤ مع القادة لامتلاك ولاء الناس والحجْر على عقولهم، ثم تجييشهم لتحقيق أطماع كل من رجال الدين والسلطة في السيطرة على (أرض اللبن والعسل) في المشرق الإسلامي.

انطلاقاً من هذه الفلسفة يقدم الفيلم رؤيته اللادينية للخروج من أتون التعصب، وهو الحل الذي يكتشفه (باليان) تدريجياً على امتداد الفيلم، إذ يبدأ طريقه إلى القدس بمحض المصادفة بعد تورطه في قتل الراهب، وهناك يصحو على حقيقة الدوافع الخسيسة للقادة ورجال الدين عندما يصارحه أحد القادة أمام مشهد جثث القتلى في حطين بأنه لم يعد يصدق أحداً بعد اكتشافه خبث نيات الجميع من حوله، ويعرض عليه مرافقته في الانسحاب من المنطقة كلها، فيرفض (باليان) مصراً على الدفاع بشرف عن الشعب المستوطن لهذه الأرض. وعندما يحاصر صلاح الدين القدس يتكرر موقف التخاذل من أسقفها الذي يطلب منه الهروب، ولا ينتهي هذا المشهد إلا بعد أن تترسخ لدى المشاهد صورة رجل الدين الانهزامي والمتخاذل، والذي لا يكترث لحياة الرعاع من الناس ولا يجد جواباً عن سؤال (باليان) عن مصيرهم في حال فراره سوى القول: «إنها مشيئة الرب».

وهكذا تضعف ثقة (باليان) في الدين كله، ليخطب في شعبه كأحد النواب الديمقراطيين في البرلمانات الأوربية الحديثة مستخدماً مصطلحات حداثية مألوفة؛ من قبيل الدفاع عن الإنسان لكونه إنساناً، وليس عن الحجارة التي تبنى بها دور العبادة. وما إن تطرُق هذه الكلمات الملهمة أسماع الرعاع المتعصبين، الذين أغفل الفيلم مجازرهم في حق المسلمين في القدس، حتى تستنير عقولهم بنور الحداثة وينبذون أسقفهم المتخاذل، ثم ينقلبون أبطالاً للاستبسال في الدفاع عن أنفسهم وعن إنسانيتهم، وليس عن الحجارة والأرض التي جاؤوا لتقديسها!

وللمزيد من إقناع المشاهد بعدم جدوى الدين وخلوه من العقل يقدم (باليان) بعض البراهين العقلية، فعندما يأمر بإحراق جثث القتلى خوفاً من انتشار المرض يعترض الأسقف بحجة وجوب تركهم على حالهم كي يُبعثوا يوم القيامة، فيجيب (باليان) بأن الرب الذي يأمر بترك الجثث حتى تتفسخ وتقتل الأحياء بالعدوى هو رب لا يستحق العبادة.

ولا تقتصر الإدانة بالطبع لدين الأوربيين بل تمتد إلى الإسلام الذي يزعم الفيلم أن ملوك المسلمين قد وظفوه أيضاً لمصالحهم الدنيوية، فبعد تصريح صلاح الدين بأن القدس لا تعني له شيئاً يعيد الجواب مستدركاً بأنها في الحقيقة «كل شيء»، وهذا الموقف يلخص الصورة التي أرادها الفيلم لصلاح الدين فهو ليس بطلاً يدافع عن مقدسات المسلمين، بل قائد سياسي محنك ينصب اهتمامه -كالقادة الصليبيين- على الأرض التي سيبسط نفوذه عليها، والقدس ليست أكثر من ورقة رابحة يمكنه من خلالها حشد المسلمين تحت رايته لمكانتها المقدسة في نفوسهم!

بالتوازي مع هذا الموقف المفترى على صلاح الدين، يحرص الفيلم على إثبات نُبل البطل الصليبي حتى في حال كفره بالأديان، فعندما يكتشف (باليان) حقيقة أن القدس ليست سوى أكذوبة وضعها الملوك عبر التاريخ ليسيطروا بمعابدها المقدسة على عقول الشعوب، وعندما تسقط أمام عينيه من يد المتعصبين الصليبيين إلى يد المتعصبين المسلمين الذين يقودهم قائد محنك لا يقل براجماتية عنه؛ نجده يسلمها إلى صلاح الدين غير عابئ بها ما دام صلاح الدين قد تمسك بوعده بعدم التعرض للناس بالأذى خلال جلائهم عنها، ثم يعود إلى شعبه ليبشرهم بسقوط هذه المدينة التي لا تستحق الموت من أجلها، ويقول: «إذا كانت هذه هي مملكة الرب فليفعل بها الرب ما يشاء».. إذن فلنترك الرب يتصرف في مملكته، أما نحن البشر فسننصرف إلى شؤوننا الدنيوية!

وتجدر الإشارة هنا إلى تصريح غسان مسعود في برنامج (بالعربي) لجيزيل خوري على قناة العربية بأنه قرأ مئات الصفحات عن صلاح الدين، ولأنه لا يريد تبني ما قيل عنه من انتقادات فقد اكتفى بنقل آراء من يقول بأنه أسس للديكتاتورية والإقطاعية في هذه المنطقة من العالم، مُقرّاً بعدم رغبته في إثارة حساسية من يحب صلاح الدين، وأبدت جيزيل على الفور إعجابها بهذه الفكرة!

وبالعودة إلى رسالة الفيلم، ثمة مقاصد أخرى ما زالت بحاجة إلى البحث، فبعد إدانة الفيلم لدوافع الصليبيين في احتلال (أرض اللبن والعسل)، وبعد تصفيق الكثير من النقاد العرب لهذه الجرأة، يتجنب الفيلم الحديث عن ضرورة خروج المحتل وعودته إلى وطنه بل يقدم بديلاً آخر يتجلى في صورة المحتل النظيف التي رُوج لها طويلاً في حقبة الاستعمار ، وبهذا تصبح السيادة على الأرض المحتلة أمراً مشروعاً، ويعلق الأكاديمي اللبناني- الأمريكي أسعد أبو خليل على هذا الطرح بقوله: «شعرت بحزن، عندما رأيت بطل الفيلم، وبعبقرية غربية يعلّم هؤلاء العرب الأقل منه كيف يحفرون للحصول على ماء كأنهم لم يكونوا يقومون بهذا الأمر منذ قرون. إنه أمر يشبه الخرافة الغربية بأن هجرة الصهاينة جعلت (الزهور تكسو الصحراء) في فلسطين»!

وهنا نستنتج رسالة أخرى مفادها أن الحل الأمثل للصراع القائم اليوم على أرض فلسطين هو أن يلقي الطرفان السلاح، وأن يسير الفلسطينيون على خطا صلاح الدين عندما رضي بالهدنة مع الصليبيين الذين عاشوا بوئام مع السكان الأصليين تحت راية الملك العادل (بالدوين الرابع)، وأن يكف كل منهما عن الاستماع إلى صوت (المتطرفين) في الجانبين، وعندها سينعم الفلسطينيون بالسلام في ظل (الديمقراطية الإسرائيلية)، وسيتمكنون من بناء دولة فلسطينية معتدلة ومنزوعة

السلاح! وإذا لم يقبلوا بالأمر الواقع واستمروا في المطالبة بحق العودة، فسيستميت المحتلون في الدفاع عما ورثوه عن آبائهم كما فعل (باليان) عندما خطب في جيشه معترفاً بأن القدس لا تستحق الدفاع عنها من أجل معابدها بل من أجل البشر الذين يحتلونها، ولما كانت القداسة مرفوعة عنها فليس لأحد حق انتزاعها ممن يعمرها ويحسن استغلالها.

علاوة على ما سبق، يقر الفيلم بحق الجيل الثاني من الصليبيين الذين وُلدوا في القدس بالبقاء فيها، حتى إن كانت دوافع آبائهم في احتلالها متهافتة، إذ لا ذنب للأبناء في أكاذيب آبائهم، في حين لا يحق للمسلمين المطالبة بأرض تم انتزاعها من آبائهم قبل أن يُخلقوا. وبهذا المنطق يفقد الفلسطينيون حقهم في العودة، حتى إن ثبت خطأ الصهاينة المؤسسين في طرد آبائهم قبل ستين سنة من أرضهم، ويبقى الحل إذن في بقاء الجيل الثاني من الصهاينة على أرضهم، وبقاء الجيل الثاني من الفلسطينيين في الشتات!

## ماذا كسب العرب والمسلمون من الفيلم؟

مع كل هذه الرسائل السياسية والأكاذيب التاريخية التي يمتلئ بها الفيلم، تسابقت وسائل الإعلام العربية على مدى عدة شهور للثناء على الفيلم وتتويج مخرجه (ردلي سكوت) على عرش الإنصاف التاريخي للحقيقة التي تجاهلها الغرب قروناً طويلة، فقد بهرهم مشهد صلاح الدين وهو يدخل إلى الكنيسة بعد فتح القدس ليرفع الصليب عن الأرض ويضعه باحترام على المذبح، علماً بأن هذا المشهد كان من اقتراح غسان مسعود نفسه، ولم يكن مكتوباً في نص الفيلم[81]، أما مشاهد الإساءة والأكاذيب والدعاية السياسية التي يحفل بها الفيلم فقد تغاضى عنها الكثيرون، وكأن سعادتهم بهذا الجزء اليسير من حقهم في الإنصاف شغلتهم عن الالتفات إلى كل ما سبق!

ويزداد الموقف سوءاً مع مشاركة العرب في الفيلم وبكثافة لم تكن هوليود قد اعتادت عليها بعد، فهناك ممثلان عربيان بارزان، وآخر من أصل عربي (ألكسندر صدّيق) ومئات الممثلين (الكومبارس) من المغاربة، فضلاً عن تصوير معظم مشاهد الفيلم على أرض المغرب.

مع ذلك؛ لم يلق الفيلم في الغرب ما لقيه من احتفاء في الشرق، بل لم يحقق الإقبال الكافي في الصالات الأمريكية بما يتناسب مع حجم تكاليفه الضخمة، كما نشرت الصحافة الأمريكية الكثير من التعليقات العنيفة في حق الكاتب والمخرج بسبب ما كشفاه من زيف الصليبيين، بل صرّح البروفسور المتخصص في تاريخ الصليبيين بجامعة كمبريدج (جوناثان رايلي سميث) لصحيفة (ديلي ميل) البريطانية بأن «الفيلم تافه، وأنه خطير جداً على العلاقات بين الغرب والعالم العربي». وعندما أراد المخرج تصوير بعض المشاهد الخاصة بالقدس في كنيسة (ميزكيتا) الكاثوليكية في قرطبة التي كانت مسجداً كبيراً لمسلمي الأندلس، واجهه أسقف الكنيسة بالرفض المطلق، فكان البديل هو الانتقال إلى المغرب!

وللإنصاف؛ لا بد من الإقرار ببعض المواقف النبيلة التي سمح الفيلم لصلاح الدين بالظهور فيها، فهو يعرض على عدوه الملك المساعدة بإرسال أطبائه إليه، كما لا ينكث العهود ولا يعامل أعداءه بالمثل، حتى إن افتعلوا المجازر في حق المسلمين، وقد أقر المؤرخون الأوربيون على مرّ العصور بهذه الصورة المثالية لصلاح الدين حتى أصبح نموذجاً للعدو النبيل. ولكن هذا لا يجب أن يمنعنا من إدانة الفيلم الذي لم يستطع نفي مساوئ الصليبيين فأقام قصة الفيلم كلها حول صورة أسطورية للبطل الصليبي (باليان) كي يتخلص من عقدة الذنب، ثم دفع الشعب الصليبي كله للوقوف معه لتبقى أخطاء الطغاة مجرد حالات شاذة.

وإذا كان المسلمون قد كسبوا تلك الصورة النبيلة لصلاح الدين، فقد دفعوا الضريبة في المقابل عندما تقتصر دوافعه لمهاجمته الصليبيين على نكثهم للهدنة، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة لضم القدس إلى إمبراطوريته، وعندما يغفل الفيلم حقيقة وقوف المسيحيين العرب إلى جانب صلاح الدين ضد الصليبيين في القدس، وعندما يغفل أيضاً حقيقة أن الصليبيين لم يعودوا إلى أوربا بعد فتح القدس بل نزح الكثيرون منهم إلى صور التي ظلت على الهدنة، كما عاودت (سيبيلا) مع زوجها (جي رينو) الكرة وحاولا استعادة عكا!

لقد خسر العرب والمسلمون في هذا الفيلم حقيقة كبرى لا توافق أبداً هوى هوليود، وهي أن فلسطين أرضُهم سواء لكون الفلسطينيين هم سكانها الأصليين -منذ عصر الكنعانيين- أو لأن معظم سكانها الفلسطينيين قد اعتنقوا الإسلام وعاشوا في كنفه بسلام مع اليهود والمسيحيين، أو لأن المسلمين الذين فتحوا القدس في عهد عمر رضي الله عنه كانوا هم الوحيدين الذين لم يسفكوا دماء أهلها ولم يضطهدوا من بقي منهم على دينه في ظل الحكم الإسلامي. ولكن الفيلم يعطي الحق في السيطرة عليها للأقوى، فمن كان يمتلك السلاح والقوة فإن استيلاءه عليها مشروع حتى إن كان لا يؤمن في قرارة نفسه بقداسة شيء منها، وهذا هو بالضبط ما تفعله الصهيونية اليوم في فلسطين.

## هل نجح الفيلم في التشجيع على الحوار بين الحضارات؟

وجد بعض المثقفين العرب في الفيلم فرصة تاريخية للحوار مع الغرب، حتى وصل الأمر ببعضهم، ومنهم غسان مسعود، إلى التذكير بأن العرب أطلقوا في الماضي على الغزاة الأوربيين اسم الفرنجة وليس الصليبيين، وأن هذا الاسم قد ابتكره الأصوليون الإسلاميون في العصر الحديث[82] (!)، ولعل الأستاذ مسعود لم يعثر في مئات الصفحات التي قرأ فيها عن تاريخ صلاح الدين -وفقاً لتصريحه- على حقيقة أن الفرنجة هم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (Cruse Signati) أي (الموسوم بالصليب) بعد أن اتخذوا الصليب شعاراً لحملاتهم التي كانت الأطول في تاريخ الحروب بين البشر، أما لفظ الصليبيين (Crusaders) فنحَتَه المؤرخون الأوربيون في القرن الثامن عشر وتُرجم إلى العربية كما هو[83]!

ومع أن بعض النقاد يذكّرون بصعوبة الثقة في فيلم وضع نصه كاتب يهودي وأنتجته شركة (فوكس) التي يملكها (روبرت مردوخ)، أكد الأستاذ غسان مسعود في لقاءاته الصحفية حرصه طوال الوقت على أن يكون الفيلم منصفاً وعادلاً، مستنكراً الاعتراض على يهودية الكاتب لأن «نحو 80% من ثقافتنا الأدبية والمسرحية والسياسية ناتجة عن منظّرين وكتّاب يهود مثل ماركس ومارخولد دون أن يعترض أحد»[84] (!) كما برّأ المخرجَ من تهمة الانحياز[85]، مع أنه رفض فيما بعد -وبموقف يستحق الثناء- المشاركة في فيلم (جسد الأكاذيب / The Body of Lies) للمخرج نفسه عندما لمس فيه ما يسيء إلى العرب والمسلمين[86].

من جهة أخرى، اختار بعض الكتاب العرب التسامح مع صناع الفيلم لأنهم صنعوه للغرب وليس للمسلمين، وهذا في رأيهم يبرر ظهور الفيلم بتلك الصورة، وقد نتفق معهم في تفهم هذا المبرر لاختيار أدوار البطولة من الطرف الآخر أو تصوير المعارك التي تظهر بطولات الصليبيين مع تجاهل المعارك الأخرى التي سقطوا فيها ضحايا وأسرى مثل (حطين)، أما تزوير التاريخ لتحويل الهزيمة والخيانة وسفك الدماء إلى بطولة ونبالة وإحياء للأرض فهذا لا يبرره إلا المنطق الذي يحترف تزوير الحقائق لمصلحته، مهما كانت واضحة ومعروفة، وهو ما سجله التاريخ بدءاً من الحملات الصليبية ومروراً بالاستعمار والعولمة، وانتهاءً باحتلال فلسطين والعراق وأفغانستان!

علاوة على ذلك، لم يكتف البعض بالتبرير بل أثنى على الفيلم وصانعيه لإدانته الحروب وعرضها في مظهر مقيت، مثل تقزز (باليان) من رؤية الجثث في (حطين)، وعدم خوضه حرب الدفاع عن القدس إلا مضطراً، وحرصه مع الملك (بالدوين الرابع) على الحوار والسلم، وحرص صلاح الدين أيضاً على السلام والمهادنة، مما يعني أننا أمام مشروع للحوار بين الحضارات لإحلال السلام العالمي بدلاً من الحرب والعنف، والحوار بدلاً من التطرف، وربما اللادينية بدلاً من الدين.

قد يكون افتراض دعوة الفيلم إلى الحوار صحيحاً، ولكن ما جدوى تقديمها في صورة محشوة بالأكاذيب؟ ولماذا يُقدَّم البرابرة في صورة شعب متحضر مع أن المؤرخين الغربيين أقروا بأنهم لم يتعلموا عادات النظافة إلا بعد مخالطة المسلمين في حروبهم الطويلة وسرقة كتبهم ومنجزاتهم العلمية التي لم يعلموا بوجودها من قبل[87]؟ وما الغاية من ظهور القائد المجاهد صلاح الدين في

صورة رجل سياسة علماني[88]؟ وهل يمكن القول بأن هذه الإضافات هي مجرد اجتهادات تحكمها الضرورة الفنية لكتابة السيناريو؟!

إن الصورة التي يريد الفيلم أن يبني عليها حواراً بين الشرق والغرب تقوم أساساً على التخلص من عبء التاريخ المشين، فبعد أن جرت العادة على كيل التهم للمسلمين وادعاء العصمة عن الخطأ، فإن كل ما يُقدم لنا اليوم لا يزيد على الإقرار بأن المسلمين كانوا أصحاب حضارة وأمانة مع الاستدراك في الوقت نفسه بأنهم لم يكونوا وحدهم كذلك، فالأوربيون كانوا يتحلون أيضاً بكل تلك الصفات، بل يحاكمون كل من يشذ عنها. ولأن الغرب قد تخلص من عقدة الذنب وعبء التاريخ الملطخ بالدم عبر التبرؤ من مسيحيته وإحلال اللادينية بديلاً عنها، فيجب على المسلمين السير على خطاه وأن يتخذوا من صورة صلاح الدين في الفيلم النموذج المثالي للقائد المسلم البراغماتي الذي يمكن للغرب التحاور معه.

الفيلم يتجاوز في أهميته السرد التاريخي لأحداث وقعت في مرحلة الصدام بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامي، فالصدام مع الأسف ما زال قائماً حتى هذه الساعة ولكن في صور أخرى، ومع أن الغرب قد انقسم منذ عصر التنوير إلى فريقين متصالحين: متدين وعلماني، إلا أن كلَيهما يتخذ الموقف نفسه من المسلمين، فالبروتستانت ينتظرون معركة هرمجدون التوراتية لإبادة المسلمين وإقامة مملكة الرب على أرض فلسطين، والعلمانيون عاجزون عن التعايش في كوكب واحد مع أصحاب ديانة توسعية ذات ثقافة مستقلة. لذا فإن الدعوة إلى الحوار من قبل من يرى مثل هذا الفيلم عملاً منصفاً ستبقى في رأينا مجرد دعاية إعلامية ونفاق دبلوماسي، وإذا أراد المسلمون حقاً أن يصلوا إلى نتيجة ما من هذا الحوار فحبذا لو وحّدوا موقفهم أولاً قبل أن ينفرد فريق دون غيره بإقرار ما يريده نيابة عن المسلمين جميعاً، ثم ينسب إلى نفسه قيم الانفتاح والتسامح والرغبة في الحوار، في حين يُتهم الآخرون بالوقوع في أسر نظرية المؤامرة[89]!

# (المملكة).. من لم يكن معنا فهو ضدنا!

في منتصف عام 2007، تناقلت الصحافة العربية نبأ شروع هوليود بتصوير فيلم ضخم يتعرض لقضية (الإرهاب) ضد الأمريكيين المقيمين في السعودية، ولفت هذا الخبر أنظار الجميع لحساسية القضية، خصوصاً أنها المرة الأولى التي تعالج فيها بطريقة مباشرة ومركزة.

بعد أقل من أسبوعين من عرضه في الولايات المتحدة في أيلول/سبتمبر 2007 بدأ عرضه في عدد من الدول العربية، لكن مُنع من العرض في كل من الكويت والبحرين. حقق الفيلم عائدات ضخمة منذ انطلاقه، وظل مدرجاً ضمن قائمة أكثر الأفلام دخلاً في شباك التذاكر الأمريكي لعدة أسابيع، وقد يعود ذلك إلى الدعاية الضخمة التي حظي بها، أو إلى موجة الاهتمام بقضية الفيلم التي بلغت أوجها في تلك الفترة، على تواضع المستوى الفني للفيلم مقارنة بأفلام الحركة (الأكشن).

## قصة الفيلم

يبدأ الفيلم بعرض وثائقي جريء وغير مسبوق لتاريخ المملكة وعلاقتها بالولايات المتحدة حسب رؤية صنّاعه، مبتدئاً بتأسيس المملكة العربية السعودية عام 1932 على يد (ابن سعود) الذي سيطر على معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية بمساعدة « المحاربين الإسلاميين الوهابيين» حسب الفيلم، الذين كانوا ضد الغرب ويريدون العودة بالزمن إلى العهد الذي لم يكن فيه الإسلام مهدداً من قبل الغرب. وأثناء البحث عن الماء بمساعدة أمريكية عُثر بالمصادفة على كميات هائلة من النفط، التي سمح الملك بتصديرها إلى الغرب مع اعتراض الكثيرين في بلاده.

في عام 1938، أقيم أول اتحاد بين البلدين مع تأسيس شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو)، وأقيم مجمع سكني لإقامة العاملين فيه، حيث كانت الشريعة الإسلامية الصارمة تطبَّق خارج حدوده، في حين ينعم سكانه بالحرية.

بقي الأمريكيون في المملكة لحمايتها، وتدهورت سمعة الفئة الحاكمة بسبب حياتهم المترفة مما أفقدهم ثقة «المحافظين الدينيين». وفي ردّ على الدعم الأمريكي لـ «إسرائيل» في حرب 1973، قام «الوهابيون» بالضغط على الملك لمنع تصدير النفط، وتبين للجميع أنهم قادرون على التحكم بحياة الغربيين، وقد أدى هذا الحظر إلى إعادة التوازن بين المصدّرين والمستهلكين.

في عام 1990 اجتاح العراقيون الكويت، وعرض (بن لادن) على حكومته استدعاء جيشه من أفغانستان لإخراج العراقيين من الكويت، ولكنهم فضلوا الاستعانة بنصف مليون جندي أمريكي، فبدأ (بن لادن) بإثارة الشغب ضد الحكومة في الشوارع والمساجد ، ثم شرع في تنفيذ عملياته حول العالم خلال عقد التسعينيات.

المفارقة الطريفة هي أن هذا التوتر القديم والعميق يقوم بين دولتين هما: الدولة الأكثر إنتاجاً للنفط في العالم، والدولة الأكثر استهلاكاً له.. ويصل التوتر إلى أقصاه مع هجمات أيلول/سبتمبر 2001، والتي قام بها تسعة عشر شاباً، خمسة عشر منهم كانوا سعوديين، مما يعني تحول (بن لادن) إلى (قوة عالمية)، مع تصريحات لسفراء السعودية في الولايات المتحدة ببذل كل الجهد لملاحقته[90].

بهذه الدعاية الفجة يقدم الفيلم درساً استراتيجياً لفهم قضية الإرهاب برمتها، وبطريقة قد توحي بأن صناع الفيلم تلقوا فنون الإنتاج السينمائي في الاتحاد السوفييتي خلال حكم ستالين، حيث يُزور التاريخ وتؤوّل الحقائق لتحقيق أهداف مسبقة، كإقناع العالم بأن رفعَ أسعار النفط خلال حرب تشرين/أكتوبر كان بضغط من الوهابيين الحاقدين على الغرب، وليس نتيجة تنسيق عربي لمعاقبة الأمريكيين على الجسر الجوي الذي أقاموه لإمداد الصهاينة بالسلاح، وأن أسامة بن لادن كان يقود جيشاً قادراً على مواجهة نحو مليون جندي عراقي، وأنه كان يخطب في الشوارع والمساجد ضد أمن الدولة، والأهم من ذلك كله نسبة كل ما نراه من إرهاب إلى عقيدة الوهابيين الذين كانوا وما زالوا يريدون العودة بالمملكة إلى الوراء، دون الإشارة إلى أي ظلم يقع عليهم من الخارج!

بعد هذه المقدمة التي لا تقبل الجدل؛ يبدأ الفيلم بتأسيس العلاقة بين المُشاهد والعناصر الرئيسية للفيلم. ففي الولايات المتحدة، نجد أنفسنا أمام بطل الفيلم (رونالد فلوري)؛ وهو ضابط أسود في مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI)، ويقوم بدوره الممثل جيمي فوكس؛ الذي يشرح لزملاء ابنه الصغير في المدرسة كيف كان يوم ولادة هذا الطفل هو أسعد أيام حياته في مشهد يشحن المُشاهد بالتعاطف اللازم مع الضحايا الأمريكيين الذين يقدسون الروابط الأسرية. وفي الوقت نفسه نشاهد مباراة بيسبول تجري داخل أسوار مجمع سكني مخصص للأمريكيين وسط الرياض، مع لقطات أخرى سريعة للروابط الأسرية داخل المجمع، بالتزامن مع لقطات يظهر فيها قائد الخلية الإرهابية المسنّ (أبو حمزة) وهو يحتضن حفيده الصغير على سطح إحدى البنايات المطلة على المجمع السكني طالباً منه المتابعة عبر المنظار المقرِّب للحدث الذي تقوم مجموعة من الشباب بتصويره، لترسيخ صورة الطفل العربي الذي ينشأ على العنف منذ الصغر.

عند مدخل المجمع السكني المحصن بعدة حواجز أمنية، ينجح اثنان من أعضاء الخلية؛ وهما يرتديان ملابس الشرطة بقتل اثنين من رجال الشرطة وخطف سيارتهما، ثم ينقضان على سكان المجمع ويفتح أحدهما عليهم النار بطريقة عشوائية. وعندما يعم الذعر والفوضى بين الناس، يصرخ أحد رجال الخلية المتنكرين في زي الشرطة طالباً منهم التوجه إليه لحمايتهم، ثم يفجر نفسه بينهم مع ترديد الشهادتين.

يتصل محقق أمريكي (فرانك) يعمل في الرياض من موقع الحدث ببطل الفيلم (رونالد) الذي ما زال يقص القصص للتلاميذ الصغار ليخبره بالجريمة، وعندما يهمّ المحقق (رونالد) بمغادرة المدرسة يكتشف ابنه الصغير بسليقته السليمة أن هناك أشراراً في الخارج ينتظرون من يقضي عليهم، في حين أننا نجد (أبو حمزة) يمسك رأس حفيده الصغير ويجبره على مشاهدة الجريمة. وعندما يحتشد المسعفون والمحققون في المكان، يُكمل المتطرفون جريمتهم بتنفيذ الانفجار الأكبر، فيُنسف بناء كامل من عدة طوابق، ويُقتل أكثر من مئة ضحية ومنهم العميل فرانك.

يناقش فريق التحقيق مع زملائهم في (الإف بي آي) إمكانية الذهاب إلى المملكة للمشاركة في التحقيق، ولكن الطبيبة الشرعية (جانيت مايز)؛ الممثلة جنيفر غارنر، تخبر الجميع بأن السلطات هناك لا تسمح بتدخل أي أحد في التحقيق حفاظاً على هيبتها، ولما كانت هيبتها تعني استمرار تدفق النفط، وهذا هو الأهم، فإنهم لن يذهبوا. وينهي (رونالد) الخلاف مع تهديده السفير السعودي؛ الممثل رعد راوي، بفضح تورطه في تمويل ثلاثة (إرهابيين) في بوسطن[91]، ويصل التصريح الاستثنائي للفريق بالسفر إلى السعودية في طائرة عسكرية.

على الجانب السعودي، يتولى اللواء عبد المالك؛ الممثل محمود سعيد ، مهمة التحقيق في الأمر، ويُتهم النقيب هيثم؛ الممثل الفلسطيني علي سليمان ، بالتواطؤ مع المتطرفين، ويحاول اللواء انتزاع اعترافاته بالتعذيب، ولكن العقيد فارس الغازي؛ الممثل الفلسطيني أشرف برهوم - يُظهر براءته على الفور.

وبتكليف من الأمير أحمد بن خالد؛ وهو شاب صغير السن ويقوم بدوره الممثل عمر بردوني ، يتولى العقيد غازي مهمة الحفاظ على أمن الفريق القادم من أمريكا، الذي يضم إلى جانب المحقق (رونالد) الطبيبة (جانيت) وخبير المتفجرات (جرانت سيكس) وخبير الكومبيوتر (آدم ليفت)، ولكن

السعوديين يرفضون التعاون مع الفريق، فيطلب (رونالد) من الأمير المزيد من حرية التحرك ويأتي الجواب بالموافقة.

في اليوم التالي، يصطحب العقيد غازي المحقق رونالد معه إلى متطرف تائب كان يعمل مع (أسامة بن لادن) شخصياً، وهو رجل مسن ويدعى (عز الدين)؛ الممثل الإسرائيلي يوري غابرييل! وقد انتهى به الأمر إلى التعاون مع السلطات السعودية للقبض على المتطرفين. وفي نهاية الحوار يكشف عز الدين عن إصبعين مفقودين من أصابع يده اليمنى، ويخبرهما بأن كل من يعمل في تركيب المتفجرات سيفقد حتماً بعض أصابعه، في إشارة إلى (أبو حمزة).

مع تطور الأحداث يشتبك الفريق مع عصابة من المتطرفين ويُخطف (سيكس)، لتبدأ عملية المطاردة لإنقاذه والتي تقود الفريق إلى منطقة السويدي، وعندها يصرخ العقيد غازي: لا ينبغي لنا أن نكون هنا! ومع أن الفريق تعرض لوابل من الرصاص وقذائف (الآر بي جيه) من جميع الجهات إلا أنه ينجح في قتل الجميع دون أن يُخدش!.. وهو مشهد مألوف في أفلام هوليود عندما يتساقط (الإرهابيون) بثيابهم العربية وأسلحتهم الآلية ونجده في أفلام كثيرة مثل (Cast a giant shadow) في الستينيات، و(Death before dishonor) في الثمانينيات، و( True Lies) في التسعينيات، ولكن الفارق الوحيد في هذا العقد هو أن الممثلين العرب باتوا يشاركون في صيد (الإرهابيين) إلى جانب الأمريكيين و(الإسرائيليين).

بعد تصفية المهاجمين، تنجح الطبيبة الماهرة في الوصول إلى زميلها في اللحظة الأخيرة قبل أن يُذبح أمام الكاميرا، ويستغرق قتل العنصر الأخير من العصابة الكثير من الجهد ليأخذ المُشاهد وقتاً يسمح بربط صورة وجهه الملتحي بالبشاعة المطلوبة.

وقبل أن يهم الفريق بالخروج من المنطقة إثر نجاح العملية، تدخل الطبيبة إحدى الشقق لتعتذر من طفلة أفزعتها عن طريق الخطأ. وقبل أن نتعاطف مع العائلة المكونة من نساء وأطفال وشيخ عجوز، نكتشف أننا أخيراً أمام رئيس العصابة (أبي حمزة) بثوبه الأبيض ولحيته البيضاء ووجهه الوقور، وما إن يكتشف العقيد غازي حقيقة الرجل من أصابعه المبتورة، حتى يقوم حفيده المراهق بإطلاق النار على رأس العقيد، ثم يُقتل الفتى وجدّه، ويُسلم العقيد غازي الروح سعيداً بالانتصار وهو في أحضان صديقه المحقق رونالد.

## رسائل وصور نمطية!

يعد هذا الفيلم نموذجاً صارخاً للأفلام المشحونة بالدعاية (البروباغاندا) في مرحلة ما بعد أيلول/ سبتمبر 2001، كما أنه من أكثرها توريطاً للعرب والمسلمين في تحقيق تلك الدعاية وفقاً للرؤية الهوليودية الجديدة لظاهرة المسلمين الأخيار ، وقد حظي الفيلم بترحيب جيد من قبل بعض الصحفيين العرب لتقديمه صورة قد تعد إيجابية للمسلمين الرافضين للعنف، فضلاً عن إظهاره مدى التعاون الرسمي للسلطات العربية في الحرب على الإرهاب . في الوقت الذي يرى فيه آخرون أنه يسيء بشدة إلى العرب والمسلمين، إلى درجة منعه من العرض في بعض الدول. وسنكتفي هنا بسرد بعض الرسائل الموجهة والصور النمطية الواردة في الفيلم، مع تحليل بعض النماذج.

يقدم الفيلم معظم الصور النمطية التي اعتدنا عليها في أعمال هوليود التي تتعرض للعرب والمسلمين، وخصوصاً تلك التي تتعلق بالسعودية على وجه الخصوص. فما إن تحط طائرة الفريق في (قاعدة الأمير سلطان) وتُطلب جوازات سفرهم، حتى يلاحظ أحد الضباط وجود ختم (إسرائيلي) في إشارة سريعة إلى المقاطعة العربية، أو لنقُل الذعر العربي ، التي لا ترضي صناع الفيلم تجاه الكيان الصهيوني. وعندما يصل الفريق إلى مسرح الجريمة، تتوجه الكاميرا إلى مجموعة من رجال الشرطة في أثناء أدائهم صلاة الجماعة ضمن سلسلة من اللقطات السريعة التي تتولى تعريف المشاهد ببشاعة الجريمة. وفي نهاية المشهد، يلتفت أحد الضباط السعوديين إلى النقيب هيثم المكلَّف بحراسة الفريق الأمريكي، ويقول له ساخراً: «أأنت مستعد للموت وأنت تدافع عن عدوك؟»، ثم تدور العدسة مجدداً باتجاه الشرطة الذين يؤدون الصلاة!

في المشهد الذي يليه، يقوم الأمير أحمد بزيارة الفريق في مسرح الجريمة للمرة الأولى، ويسارع أحد مرافقي الأمير لوضع عباءة رجالية على جسد الطبيبة (جانيت) لإخفاء صدرها البارز في مشهد يثير استياء الفتاة المتحررة وسخرية المشاهد في الوقت نفسه. وفي مشهد آخر يخبر العقيد غازي المحقق رونالد على استحياء عن عدم إمكانية اصطحاب الطبيبة معهم إلى الوليمة في قصر الأمير لأنها دعوة للرجال فقط، قائلاً: أنت تعرف التقاليد، فيترك المحقق هذا الأمر للعقيد كي يحرجه، فتتمكن منه عقدة النقص ويخجل من إخبار الطبيبة بالأمر، في إشارة إلى تهافت تلك التقاليد وضعف ثقة أصحابها بأنفسهم.

أما الصور النمطية للشعب السعودي، وللمسلمين عامة، فتجد مكانها في معظم مشاهد الفيلم، ونذكر منها مشهد رحلة الفريق البرية على أطراف الرياض حيث تلاحق الكاميرا عدداً من الجمال ورجلاً يصلي بجانب سيارته على طرف الطريق الصحراوي في عدة لقطات خارج سياق الحدث. وفي مشهد آخر؛ تحاول الطبيبة (جانيت) تشريح جثة أحد ضحايا التفجير فيصرخ الشرطي المتعصب بأسلوب همجي: «لا.. حرام.. هذا شاب مسلم».

ويبدو واضحاً حرص صناع الفيلم على توزيع بعض رسائلهم الخفية بين المَشاهد دون مناقشتها، أو طرحها على ألسنة بعض الشخصيات دون التعليق عليها، إذ يصرخ أحد سكان المجمع السكني، بعد مقتل زوجته، في وجه العقيد السعودي قائلاً: «أهذا ما يريده النبي محمد.. أهذا ما يريده الله؟..

أيحب الله أولادكم أكثر من أولادي؟ أيحب الله زوجتك أكثر من زوجتي؟»، ثم يسمح المخرج للمحقق (رونالد) بأداء دور المهدئ للاحتقان والذي يعجز بالضرورة عن منع وصول هذه الرسالة إلى أسماع المشاهد الأمريكي.

رسالة أخرى أكثر خبثاً نسمعها على لسان المحقق (سيكس)؛ الممثل اليهودي كريس كوبر، عندما يمسك في مشهد خارج عن السياق بنسخة إنجليزية من القرآن الكريم، ويسأل زملاءه: «كم عدد العذارى؛ أي الحور العين، اللاتي ستحظى بهن بعد هذه الحياة الدنيا في حال اتباعك لما يؤمن به المتعصبون؟»، وتجيب (جانيت) على الفور: سبعون، فيرد عليها (سيكس): إجابة خاطئة. وينتهي المشهد دون تعليق أو تصويب، مع ترك الأمر للمُشاهد كي يتوقع الإجابة التي تناسبه، وبطريقة تعطي صناع الفيلم هامشاً لادعاء البراءة.

أما مشهد المطاردة الذي يقود الفريق إلى منطقة السويدي في وسط الرياض فيضم الكثير من الصور النمطية للإسلام لتصب في العقل الباطن للمُشاهد دفعة واحدة، ويبدأ المشهد بتنميط المنطقة تمهيداً لما سيأتي عندما تعلن الطبيبة (جانيت): «السويدي هو معقل مشهور للمسلحين ومركز لتجنيد القاعدة»، علماً بأن هذا (المعقل المشهور) لا يختلف عن أي حي شعبي في وسط الرياض، ولكن رسالة الفيلم تستلزم شيطنته على طريقة هوليود في تصوير أحياء (هارلم) و(برونكس) في نيويورك عند تحقيرها للسود، لذا يتحول حي السويدي فجأة إلى ما يشبه أحياء عصابات المخدرات في ساو باولو[92]! وتُملأ الأحداث سمعياً وبصرياً بالصور النمطية للنساء المنقبات والرجال الملتحين والمآذن المرددة لأصوات التكبير.

ويتكرر الأمر نفسه في مشاهد المداهمة، بدءاً بالآيات القرآنية وسجاجيد الصلاة المعلقة على الحيطان، ووصولاً إلى بشاعة الشباب الملثمين وصوتهم المرعب في قراءة البيان قبل ذبح الرهينة: «لقد تم القبض على العلج الأمريكي، وسوف يلقى جزاءه بالذبح بالسكين، وذلك لتعاونهم مع إسرائيل بغية الإفساد في الأرض ومحاربة المسلمين».

في المشهد الأخير، يعود الفريق المنتشي بالنصر إلى (الإف بي آي)، ويُختم الفيلم بمحادثتين تجريان في وقت واحد، في كل من واشنطن والرياض.

ففي الأولى يسأل أحدهم (رونالد) عن الكلمات التي همس بها في أذن (جانيت) لمواساتها عندما علمت بمقتل صديقها العزيز (فرانك) في بداية الفيلم، وفي الثانية تسأل ابنة الشيخ (أبي حمزة) ابن أخيها الصغير عن الكلمات التي همس بها جدّه في أذنه وهو في النزع الأخير. ويأتي الجواب واحداً من (رونالد) وحفيد (أبي حمزة): «سنقتلهم جميعاً»، ثم تغوص الكاميرا في عيني الطفل البريء، والمفجوع بفقد جده أمام عينيه. إنها نشوة النصر بتحقيق الوعد الذي قطعه (رونالد)، ولكنه نصر منقوص، فقد مات الشيطان حقاً، ولكن سلالته لن تموت، وستبقى الحرب قائمة![93].

## رسالة الفيلم الخفية

علاوة على ما سبق ذكره من الرسائل والصور النمطية التي يمتلئ بها الفيلم، يمكن القول بأن الرسالة التي يلخصها مشهد قتل (أبي حمزة) هي الأكثر خطورة وأهمية، فبعد إنقاذ (سيكس) من الذبح ومحاولة الطبيبة الاعتذار من الطفلة المحجبة إيذاناً بانتهاء المهمة، يبدأ المشهد بالربط مع ذاكرتنا البصرية للجيش الأمريكي في العراق، ونسترجع لاشعورياً مشهداً مشهوراً تناقلته وسائل الإعلام لطفلة عراقية يجبر الجيش الأمريكي عائلتها على الخروج من المنزل في أثناء مداهمته، وتبدأ الرسالة بتنميط صورة الجيش الأمريكي عبر الإنسانية المفرطة للطبيبة المجندة (جانيت) بإخفاء سلاحها عن عين الطفلة والمسارعة إلى تقديم الحلوى والاعتذار.

ويستمر التنميط الخفي مع تحول بيت متواضع يستجدي أهله الرحمة إلى وكر للإرهاب، فينطلق الموت المباغت من مسدس الفتى المراهق دون مبرر، ولا يُقتل الفتى بالرصاص الأمريكي إلا بعد شروعه في محاولة قتل أخرى، ولا يفوّت الفيلم فرصة التأكيد على إنسانية الجيش الأمريكي مجدداً عندما تبذل (جانيت) جهدها لإسعافه.

ويستمر التنميط بالانتقال من الأطفال القتلة والنساء المحجبات إلى الشيخ الوقور العاجز عن الحركة، الذي يخفي تحت عجزه ولحيته البيضاء حقيقة إجرامه، لنكتشف في النهاية أن أكثر الأسر المسلمة إقناعاً لنا في ظاهرها بالسلم والرفق هي أشدها عنفاً وإجراماً، وستُبرر بذلك جميع المشاهد الواقعية لعمليات المداهمة التي ستعرضها نشرات الأخبار فيما بعد عما يجري في العراق وأفغانستان وفلسطين المحتلة.

## الضريبة!

مع أن المسلمين هم من أكثر الشعوب معاناة من الاضطهاد والفقر والتخلف، فإن معظمهم يدرك أن التطرف والتفجير العشوائي وخطف الأبرياء وقتلهم هي كلها جرائم لا تنتمي إلى الإسلام ولا إلى أي دين يحترم الإنسانية، وأن مشكلاتهم لا يمكن أن تحل بتلك الطريقة، لذا فإن إحصاءات الاتحاد الأوربي تؤكد أن عملية إرهابية واحدة من بين كل خمس مئة تقريباً تعود إلى متطرفين إسلاميين[94]، ولكن هوليود ما تزال مصرة على انتهاز هذه النسبة التي لا تكاد تُذكر لتضخيم خطر الإسلام وشيطنته، دون الاكتراث لحقيقة أن تناول هذه القضية الشائكة بمنظور سطحي وساذج لن يفضي إلا إلى المزيد من العنف، فتحقير المسلمين وتبرئة البطل الأمريكي مع كل ما يجري في العراق وغيرها، هي كلها أمور تزيد من الشعور بالإحباط والعجز، وتنمي لدى الشباب المتحمس الرغبة في الانتقام.

والسؤال هنا: إذا كان هذا الفيلم يناقش خطراً حقيقياً وغير مصطنع، فلماذا إذن لا تُصور الحقيقة كاملة؟ إذ يقدم لنا صورة بريئة للأطفال الأمريكيين بدءاً من ابن المحقق (رونالد) ثم ابن المحقق (فرانك) الذي قضى في التفجير، ومروراً بالأطفال الذين تعرضوا للأذى في المجمع السكني، أما الأطفال في الجانب العربي فإما أن يكونوا أبرياء كأولاد العقيد غازي المتعاون مع الأمريكيين، أو أبناء عوائل متطرفة فيمارسون القتل أو يحملون لواء العنف كحفيد (أبو حمزة).

لا شك في أننا نتعاطف مع الأطفال الأمريكيين الذين تضرروا من الإرهاب، ولكننا لم نرَ في تاريخ هوليود كله لقطة واحدة لأطفال دير ياسين وصبرا وشاتيلا وكابُل والفلوجة وجنين وبيروت وغزة. ولا شك أيضاً في أننا نتألم لمقتل زوجة ذاك الأمريكي الغاضب، ولكنا لا نكاد نعثر في أرشيف هوليود على قصص لنساء محجبات تنتهك أعراضهن ويذبحن أمام عيون رجالهن وفي وسط بيوتهن[95].

لذا ومع أنه لابد من ضرورة إدانة الإرهاب ومكافحته والتبرؤ منه، فإن العدل لن يتم ما لم تكتمل الصورة ويُدان المخطئون من الطرفين، وإلا فسيُنظر بعين الشك إلى كل مساهمة يقدمها العرب في أفلام كهذه، ما اقتصر الطرح على رؤية واحدة. وإذا كنا نشيد بجهود المستشار السعودي في هذا الفيلم ( أحمد الإبراهيم ) في إجراء الكثير من التعديلات فمن غير الممكن غض الطرف عما يتضمنه الفيلم من إساءة وصور نمطية في حق الكثير من مظاهر الإسلام وحياة المسلمين اليومية[96]، كما لا يمكن التساهل مع مشاركة ممثلين عرب و(إسرائيليين) في فيلم كهذا وخصوصاً في مشاهد لا تخلو من المصافحة والمودة؛ كالذي جمع بين الممثل الفلسطيني أشرف برهوم والإسرائيلي يوري جابرييل !

# عندما تنتقل هوليود إلى الشرق

جرت العادة في هوليود، وفي مراكز السينما الأوربية أيضاً، على الانتقال إلى العديد من مواقع التصوير في أنحاء مختلفة من العالم للبحث عن مناطق جغرافية تتناسب في طبيعتها ومناخها وعمارتها وسكانها مع شروط بعض الأفلام.

ولأن عدداً كبيراً من الأفلام الأمريكية والأوربية يتطلب التصوير في مناطق صحراوية وأراض شاسعة، أو في نقاط التقاء الصحراء بالواحات الخضراء والجبال التي تكسوها الثلوج، فضلاً عن القصص التي تدور في مدن وقرى عربية أو (شرق أوسطية)، فقد وجد الكثير من المخرجين ضالتهم منذ نشأة السينما في أرض المملكة المغربية، حتى أصبحت قبلة لصانعي الأفلام من مختلف أنحاء العالم وعلى مدار السنة. وفي السنوات الأخيرة، بدأت بعض الدول العربية الأخرى بتقديم عروضها لاستقبال صانعي الأفلام على أرضها، فنشطت تلك الصناعة أيضاً في كل من تونس والأردن، ومؤخراً في الإمارات العربية المتحدة.

# ورزازات.. هوليود الصحراء المغربية

(ورزازات) هي عبارة أمازيغية مركبة من كلمتين: (وار) وتعني من دون، و(زازات) وتعني الضجيج، حيث اختار أهل المنطقة من الأمازيغ عبارة (من دون ضجيج) اسماً لمدينتهم التي كانت مجرد قرية صغيرة في عهد الاحتلال الفرنسي، ثم توسعت ونمت لتصبح واحدة من أكثر المناطق جذباً للسياحة في المغرب، نظراً لما تتمتع به من طبيعة جذابة تجمع بين خضرة الواحات المليئة بالينابيع العذبة والجو اللطيف والجبال الشاهقة المكللة بالثلوج، وبين الأودية الجافة القاحلة وكثبان الرمال الصحراوية.

هذه الطبيعة الجميلة والمتنوعة جذبت السينمائيين أيضاً إلى واحات ورزازات وصحاريها من أوربا وأمريكا، فتاريخ السينما في هذه المنطقة يبدأ مع تاريخ السينما نفسه، حيث صنع مؤسس السينما الفرنسي (لويس لوميير) فيلمه (لو شيفريي ماروكان /الراعي المغربي) عام 1897 في ورزازات، ثم لحق به المخرج الفرنسي (لويتز مورا) لتصوير فيلم ( الدم ) عام 1922، وقد أحصى الكاتب الفرنسي (جورج سادول) نحو خمسين فيلماً نُفذ في المغرب قبل الحرب العالمية الثانية، أي في حقبة السينما الصامتة، وكان الكثير منها يهدف إلى تمجيد الاستعمار الفرنسي ويرسخ الصور النمطية السيئة للشرق المتخلف، لذا كانت فرق عمل هذه الأفلام أوربية بالكامل، حتى الأدوار العربية كانت تسند أيضاً إلى ممثلين أوربيين. وفي نهاية عقد العشرينيات بدأت السينما الألمانية والبريطانية والأمريكية بالانتباه أيضاً إلى الإمكانيات الطبيعية والجغرافية لهذه المنطقة، ثم توسع الإنتاج بغزارة أكبر بعد الحرب العالمية الثانية لتصبح ورزازات واحدة من أشهر مناطق الجذب السينمائي في العالم.

وبعد وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام 2001 وبدء ظاهرة أفلام (الحرب على الإرهاب) دخلت ورزازات مرحلة جديدة من تاريخها، وأصبحت المنطقة الأوفر حظاً لتصوير جميع المشاهد التي تتطلب وجود صحارٍ وأراضٍ مفتوحة كالمعارك والأحداث التاريخية، كما أصبحت بقية المناطق والمدن المغربية القبلة المفضلة لكل من يريد أن يصور فيلماً عن الشرق الأوسط ، حتى بلغ معدل ما يتم تصويره في المغرب قبل نهاية هذا العقد ما بين عشرين إلى ثلاثين فيلماً طويلاً كل عام، عدا الأفلام الإعلانية والوثائقية والبرامج التلفزيونية، كما ارتفع رقم معاملات تصوير الأفلام من نحو 25 مليون دولار عام 1997 إلى أكثر من 240 مليوناً عام2007[97]. ويقال: إن هذا الرقم قد اقترب من المليار دولار في نهاية عام[98] 2009.

تقدم السلطات المغربية من خلال المركز السينمائي المغربي تسهيلات كبيرة لفِرق الإنتاج السينمائي الأجنبية، مثل تسهيل الاستيراد المؤقت للأسلحة والذخائر والمتفجرات، وتخفيض تكاليف النقل والمبيت والتصوير في الأماكن التاريخية، والإعفاء من الضريبة على جميع الممتلكات، مما ساعد على تخفيض كلفة الإنتاج بنسبة تقترب من الثلث بالمقارنة مع مثيلاتها في أوربا والولايات المتحدة، وقد ساعدت هذه البيئة النشطة على توجه العديد من رجال الأعمال للاستثمار في المنطقة وإنشاء شركات الإنتاج والاستوديوهات الضخمة بمواصفات عالمية مثل استوديو (أطلس

كوربوريشن)، كما سمح هذا التوجه لسكان المنطقة باحتراف العمل في مختلف المهن التي يتطلبها الإنتاج السينمائي.

# من يدفع الضريبة؟

ينشط في مدينة ورزازات عدد من السماسرة ووكلاء شركات الإنتاج الأجنبية للبحث عن (اليد العاملة) المحلية الرخيصة، أو بعبارة أدق للبحث (عن الوجوه العاملة) لتصويرها في الأفلام السينمائية ضمن أعداد كبيرة من (الكومبارس)، حيث تكاد تكون المهنة الوحيدة لمعظم سكان المدينة البالغ عددهم 17 ألف نسمة، وقد أدى انخفاض الأجور وتوافر المواهب المحلية إلى اكتفاء بعض المخرجين الأجانب بالممثلين المغاربة حتى في الأدوار المهمة، بدلاً من جلبهم من الخارج، إذ لعب المغاربة الأدوار كافة باستثناء دور البطولة في الفيلم الإيطالي ( حدائق الجنة /لي جاردن ديدن) الذي أنتج في نهاية التسعينيات.

ولتعريف العالم بحقيقة ما يجري هناك قدم المخرج المغربي محمد الصافي عام 2001 فيلمه الوثائقي (ورزازات موفي)، الذي ينقل فيه بالصوت والصورة معاناة سكان هذه المنطقة على الرغم من الصورة الجميلة التي يحرص آخرون على نقلها. فنرى في الفيلم صفوفاً طويلة من السكان الفقراء وهم ينتظرون دورهم لأداء الاختبار أمام لجنة اختيار الممثلين، أو لمعرفة نتائج الاختبار التي ينتظرونها بفارغ الصبر. كما يجري الفيلم مقابلات مع العديد من الممثلين الكومبارس للتحدث عن تجاربهم، والذين يبدون استعدادهم للقيام بالأدوار المطلوبة كافة، وهي تتنوع بين أدوار الجنود والخدم والحرس، أو حتى تكوين جيوش من البشر الذين يملؤون موقع التصوير إذا دعت الحاجة حسب رؤية المخرج.

أما الممثلون ذوو الخبرة الطويلة فيطمحون إلى القيام بأدوار ثانوية أو النطق ببعض العبارات كي يتحولوا إلى ممثلي (كومبارس) من الدرجة الأولى، وربما يتدرجون في التقدم مع الوقت ليصبحوا ممثلين أكثر احترافاً وشهرة.

ويتحدث ضيوف الفيلم من الممثلين الشباب والمسنين عن معاناتهم المادية التي لا تغطيها أجورهم الزهيدة، فضلاً عن شعورهم بالغبن، حيث يقول أحدهم أمام الكاميرا: «لقد عملت في أحد عشر فيلماً للمخرج نفسه، ولم يقل لي شكراً ولو مرة واحدة، إنهم يطلبون منا فقط أن نصفق للبطل»!

وحسب استطلاع أجرته مجلة العربي الكويتية، فإن أجر ممثل (الكومبارس) الواحد يبلغ نحو 20 دولاراً فقط بعد أن يقتطع السماسرة والوكلاء المحليون قرابة الثلث من أجورهم، علمًا بأن عملهم قد يتطلب الحضور في مواقع التصوير من طلوع الشمس إلى ما بعد الغروب[99].

أما الضريبة الكبرى فتدفعها شعوب كاملة من العرب والمسلمين مع كل فيلم يُنتج على أرض المغرب وهو يحمل الصور النمطية السيئة لهذه الشعوب إلى العالم كله، في الوقت الذي يخرج فيه بعض الممثلين والفنيون ووكلاء (الكومبارس) بأجورهم العالية دون اكتراث بما يدفعه الآخرون من ضريبة، وهو سلوك يذكرنا بالسمعة السيئة لوكلاء النجوم في هوليود، إذ يتداول الأمريكيون نكتة تتحدث عن طبيب متخصص بأمراض القلب يخبر أحد المرضى بحاجته الماسة إلى عملية زرع قلب لإنقاذ حياته، ثم يطمئنه بأن لديه قلبين جاهزين لعملية الزرع ويعودان إلى شخصين توفيا حديثاً في حادثين مروريين، أحدهما بطل رياضي شاب في العشرين من العمر، أما الآخر فهو وكيل لنجوم هوليود في السبعين من العمر، فيختار المريض القلب الثاني، ويسأله الطبيب

مندهشاً: ولماذا تفضل قلب هذا العجوز على قلب الرياضي الشاب؟ فيجيب: لأني أريد قلباً غير مستعمل!

وإذا كان الأمر كذلك، فإن المسؤولية هنا لا تقتصر على الوكلاء فحسب، بل نتساءل عن دور المركز السينمائي المغربي وغيره من أجهزة الدولة المغربية في مراقبة ما يجري تصويره على أرض هذا البلد العربي المسلم، وأيضاً عن دور الصحافة المغربية ذات الهامش الواسع من الحرية، فضلاً عن أصوات أعضاء البرلمان المغربي المعروف بتعدد أطيافه وجرأته على المساءلة، وسنستعرض فيما يلي نماذج لبعض الأفلام التي صورت في (أرض المرابطين) على نحو يستحق طرح هذه التساؤلات.

# نماذج للأفلام التي صورت في المغرب

1- فيلم (باتون/ Patton )

أنتج هذا الفيلم سنة 1970، وهو يحكي قصة الجنرال الأمريكي (جورج س. باتون) خلال الحرب العالمية الثانية، والذي يكتشف خلال الحرب أنه يتقمص جميع القيم الحضارية التي عرفها أسلافه منذ آلاف السنين. في الوقت الذي يفسر فيه ما يراه لدى العرب من صفات وحشية ومتخلفة على أنها امتداد أيضاً لقيمهم القديمة! فعندما يرى النساء العربيات وهن يجردن جثث جنود الحلفاء في تونس من ملابسهم ويسرقن حاجياتهم يستعيد (باتون) صوراً مشابهة في خياله الموسوعي، وكأنه كان شاهداً على تاريخ المنطقة نفسها منذ آلاف السنين فيقول: «في هذا المكان كان القرطاجيون يدافعون عن المدينة أمام ثلاث فصائل رومانية قاتلت بشجاعة، ولكنهم لم يتمكنوا من المقاومة فكانت المذبحة، النسوة العربيات أخذن ملابسهم وبقي الجنود عراة في الشمس منذ ألفي عام.. لقد كنت هناك»، ومن المؤسف أن يصُوّر هذا الفيلم الذي يحقر العرب في حاضرهم وماضيهم على أرض المغرب ليحصد فيما بعد سبع جوائز أوسكار، كان من بينها جائزة أفضل فيلم وأفضل مخرج وأفضل (سيناريو) أصلي[100].

2- سلسلة أفلام المومياء:

أنتج فيلم المومياء عام 1932 بإمكانيات وخدع متواضعة، ثم أعيد إنتاجه مع الكثير من التعديلات للاستفادة من التقنيات التكنولوجية الحديثة على يد (ستيفن سومرز) الذي كتب قصته وأخرجه عام 1999، مسنداً أدوار بطولته إلى كل من (برندان فريزر) و(راشيل وايسز)، وتدور قصته حول أسطورة وقوع الكاهن المصري القديم (إيمحوتب) في حب ابنة الفرعون (سيتي الأول)، ومن ثم قيام الفرعون بقتل ابنته والحكم على الكاهن بالدفن حياً، لتلتقي عالمة الآثار البريطانية (إيفلين) بعد قرون طويلة بمواطنها (ريتشارد) الباحث عن كنوز مصر ويحاول كل منهما الاستعانة بالآخر لتحقيق أهدافه في الوصول إلى المدينة المفقودة، وعندما تقرأ (إيفلين) تعويذة سحرية من كتاب الموتى عن طريق الخطأ، تعود الحياة إلى الكاهن إيمحوتب، والذي يبدأ سلسلة من أعمال القتل التي يسعى إلى تتويجها بخطف (إيفلين) وإحلال روح حبيبته ابنة الفرعون في جسدها، وهنا يأتي دور (ريتشارد) لإنقاذها بعد صراع مع جيش من المومياوات، وفي النهاية ينتصر العرق الأبيض وتُقتل مومياء الكاهن إيمحوتب التي لم تكتمل فترة حياتها الثانية، ويأتي السكان الأصليون إلى البطل البريطاني لشكره على تحريرهم من هذا الخطر الذي ظل كامناً طوال قرون، لنفاجأ بأن هؤلاء السكان ليسوا من العرب المصريين، بل هم بنو إسرائيل الذين يتحدثون بالعبرية، ويمثل دور قائدهم الممثل الإسرائيلي (عوديد فهر/ oded fehr ) المولود في تل أبيب والضابط السابق في سلاح البحرية الإسرائيلي، والذي احتشد خلفه العشرات من سكان ورزازات لتشكيل جيوش اليهود المدافعين عن أرض مصر!

أما الجزء الثاني من الفيلم والمسمى بـ(عودة المومياء/ The Mummy Returns) فكان من أكثر الأفلام استعراضاً للمؤثرات الخاصة عندما عُرض في سنة 2001، مما أكسبه المركز الأول في شباك التذاكر الأمريكي منذ أسبوع عرضه الأول، إذ بلغت عائداته 70.1 مليون دولار،

فاستحقت حينئذ لقب ثاني أعلى عائدات يسجلها فيلم في أسبوع، ويسبقه في ذلك فيلم (The Lost World: Jurassic Park) للمخرج (ستيفن سبيلبيرغ) عام1997[101]، والذي تم تصوير بعض مشاهده في كل من المغرب والأردن ومصر.

يتابع الفيلم في هذا الجزء القصة نفسها، حيث يعود البطلان الإنجليزيان إلى مصر بعد أن أصبحا زوجين مع ولدهما العبقري، وتبدأ مهمة العائلة بالبحث عن السوار السحري للملك العقرب الذي يقال: إنه حكم مصر قبل الفرعون (مينا الأول)، وبعد العثور عليه تبدأ المعركة مع مومياء إيمحوتب وجيشه لمنع الملك العقرب من العودة إلى الحياة من جديد، وتبرز المواهب البطولية لكل من الإنجليز واليهود على أكثر من صعيد، ففي الوقت الذي يستبسل فيه اليهود لمحاربة جيوش الهياكل العظمية من حراس الفرعون، تتحول عالمة الآثار (إيفلين) إلى محاربة بارعة لمواجهة ابنة الفرعون، إلى جانب زوجها الذي يقاتل مومياء إيمحوتب، في حين يتفرغ ابنهما العبقري لحل اللغز، ليُقتل الملك العقرب أخيراً برمح إيزيس الذي يحمل نجمة سداسية.

يُذكر أن أجهزة الرقابة المصرية كانت قد منعت الجزء الأول من الفيلم من العرض في الدور المصرية، لما يتضمنه من صور نمطية مسيئة للمصريين؛ فهم إما متخلفون أو عملاء خونة يسهل إغراؤهم بحفنة من المال، فضلاً عن التأكيد على دور اليهود في بناء مصر القديمة وظهورهم في صورة المنقذ للبلاد!

إلا أن الرقابة نفسها وافقت فيما بعد على عرض الجزء الثاني من الفيلم (عودة المومياء) عام 2001 إثر حوار مفتوح بين النقاد في عرض خاص، حيث رأى المعارضون أن الفيلم يتضمن إساءة واضحة إلى الحضارة المصرية، وإظهار مصر على أنها أرض مليئة بالشر والسحر، واستخدام المخرج رموزاً ماسونية كالهرم الذهبي والنجمة السداسية، وتقديم فكرة خاطئة عن مصريي عام 1933 بأنهم جهلة متخلفون. في حين رأى المؤيدون أن الفيلم سخيف ولا يستحق الاهتمام، وأنه مجرد عاصفة من المؤثرات الخاصة التي لا تتجاوز فكرة إبهار المشاهد[102]، وهو الرأي الذي أقنع الرقابة المصرية، وسمح بتكرار عرض الفيلم بكل أجزائه على قنوات مجموعة (mbc) على مدى سنوات، وقد أدى بالفعل إلى إبهار المراهقين ذوي الثقافة المحدودة؛ فوضعوا العديد من المقالات والتعليقات على شبكة الإنترنت للتعبير عن إعجابهم بهذا الفيلم الذي (يمجد الحضارة المصرية)!

ولعل آراء كهذه تقف أيضاً خلف عرض المسلسل الكارتوني (المومياء) الذي يحكي القصة نفسها، وبكل ما فيها من صور مسيئة على قناة (mbc3)، علماً بأن هذا المسلسل لم يلق النجاح في وطنه أمريكا عندما عرض الجزء الأول منه سنة 2001، بل أدى إخفاقه إلى توقف عرض الجزء الثاني منه سنة 2003، وعدم طرحه في الأسواق على أقراص (DVD)!

3- فيلم هيدالغو (Hidalgo):

يتحدث الفيلم عن سباق للخيل جرى سنة 1890 برعاية شيخ قبيلة بدوية في اليمن (الشيخ رياض ويجسده الفنان عمر الشريف )، ويعود بنا الفيلم المنتج حديثاً (سنة 2004) إلى سخافات هوليود التقليدية الأولى في العقد الثاني من القرن العشرين، حيث لم تكن تتجاوز معرفة عامة الناس في الغرب عن الشرق أساطيرَ ألف ليلة وليلة، وشظف عيش البدو في صحراء تشح فيها الماء، وحسناوات يتلهفن لمقدم (الكاوبوي) الأبيض لإنقاذهن من حياة الحريم، لذا يبدو من غير المفهوم

إعادة تصوير الشرق العربي بهذه الرؤية الاستشراقية الحمقاء في القرن الحادي والعشرين، وبمباركة عدد كبير من الممثلين و(الكومبارس) العرب وعلى أرض عربية!

يقبل راعي البقر الأمريكي (هوبكنز) دعوة الشيخ البدوي للمشاركة في السباق بدافع مساعدة إحدى قبائل الهنود الحمر التي صودرت خيولها من قبل الجيش الاتحادي، وتقع عينه في لحظة وداع بلاده على تمثال الحرية، في حين تستقبله بلاد العرب بمشهد العبيد المقيدين بالسلاسل[103]، ثم توكل مهمة الاعتناء به وبحصانه إلى العجوز السخيف (يوسف) بعد أن خيره قومه بين قطع يده أو خدمة الضيف الأمريكي جزاء لسرقته بعض الحليب[104]. وعندما يدخل (هوبكنز) الخيمة يرفض الشيخ رياض مصافحته خشية أن يفقد قدرته على التنبؤ بالمستقبل بمجرد ملامسة يد شخص (كافر)، ثم يخبره الشيخ بأن عنايته بالخيول نابعة من اهتمام القرآن بها مما يدفعه إلى إجبار نسائه على النوم وقوفاً في الليالي الباردة ليتمكن حصانه (الحتال) من النوم في الخيمة.

يُقدم الفيلم عقيدة الإسلام بطريقة لا تُقنع أشد الناس حمقاً، وأخشى أن يكون هذا مألوفاً لمشاهدي مثل هذه الأفلام في الغرب، فالبدو يؤمنون بأن مشاركة ضيفهم (الكافر) في السباق تدنيس لهم، وأن الشمس لا بد أن تحرقه قبل وصوله إلى خط النهاية، كما يؤمنون بأن القدر قد صنف الناس مسبقاً إلى رابحين وخاسرين ولا جدوى من مقاومته، فعندما يقع الفارس (الصقر) في بركة من الطين ويشرف على الغرق ويهب (الكاوبوي) لنجدته يؤكد له البدوي المؤمن أن هذه رغبة الله ويتوسل إليه أن يقتله، ولكن البطل المستنير يصر على إنقاذه ويشرح له أن المكتوب يتحقق عندما ينفذ إرادته هو وحصانه للفوز بالسباق، وليس بالاستسلام[105]. أما النقاب على وجه ابنة الشيخ (جزيرة) فلا نجد له تفسيراً سوى في قولها: «أنت لا تفهم عالمنا»، وهو عالم لا نفهمه نحن أيضاً خصوصاً عندما تشكو الفتاة العربية المقموعة إلى مخلصها الأمريكي عزم والدها على تزويجها من (ابن الريح)؛ الممثل المغربي سعيد طغماوي ، في حال فوزه بالسباق لتصبح زوجته الخامسة، وليس الرابعة! وعندما يقتحم الشيخ ورجاله خيمة ضيفهم الأمريكي ويجدون (جزيرة) عنده، نكتشف مرة أخرى أحكاماً جديدة في الشريعة لم نسمع بها من قبل، إذ يُحكم عليهما بحد الزنا مع أنهما كانا يتجاذبان أطراف الحديث لا أكثر، ولأن الرجم لا يُطبق على الزانية إلا بعد أن يغرقها والدها فستُعفى من هذه الميتة البشعة لعدم وجود الماء ويُكتفى بجلدها سبع جلدات، في حين يُقطع عضو الزاني[106]، ولكنهما ينجوان في اللحظة الأخيرة -كما هي عادة هوليود- عندما يقتحم الخصم اللدود (كاتب) مع رجاله مضارب القبيلة ويخطفون (جزيرة)، ليقع الشيخ في حيرة إزاء مبادلة ابنته المخطوفة بحصانه الأصيل، ويقرر أخيراً أن الحصان أغلى من العائلة، مع علمه بأن الخاطف سيسلم ابنته العذراء إلى الغجر ليعبثوا بها.

تأتي براءة البطل الأمريكي أخيراً عندما يجبن جميع الفرسان العرب الذين نشؤوا على القتال عن إنقاذ الأميرة، في حين يحارب (الكاوبوي) مع حصانه مثل (زورو) مع أنه لم يخض معركة من قبل، فيقتل كتيبة من الرجال، ويعيد (جزيرة) إلى قبيلتها، ثم ينتصر في الجولة التالية من السباق وينجو من كل المؤامرات التي تحاك لقتله في مجاهل الصحراء، ويعالج حصانه الأسطوري (هيدالغو) من جراحه في حين يهلك الآخرون، ولا يفوت المخرج فرصة لتشويه كل ما يمت إلى الشرق بصلة فحتى البيئة تبدو في غاية القبح، فتارة تغرقها عاصفة رملية أسطورية لا يتمكن سوى الأمريكي من مقاومتها بذكائه، وتارة يغزوها سرب من الجراد الذي يغطي الشمس، فضلاً عن حرارتها الرهيبة وجفافها الدائم وعقاربها المرعبة، بل لا ينجو حتى الحيوان من العنصرية

عندما تنهزم الخيول العربية، التي يتنافس فرسان العالم على سلالتها الأصيلة، أمام (هيدالغو) الذي لم تطأ حوافره أرض الصحراء القاحلة من قبل!

وبعد فوزه في السباق، يقدم البطل للشيخ مسدسه الثمين الذي كان مرهوناً في حال خسارته للدلالة على كرمه الأصيل، ويتعلم الشيخ من الأمريكي، الذي طالما وصفه بالكافر، عقيدة الإيمان بالقدر على النحو الصحيح، ويصافحه مقراً بعجزه عن قراءة الغيب حيث لم ينجح في التنبؤ بنتيجة السباق. ثم يودع البطل الوسيم الفتاة التي وجدت الخلاص على يديه وخلعت بفضله الحجاب[107]، ويتواضع الجميع أمام انتصار عظمته ويكتشفون للمرة الأولى خطأهم في تدنيس ذلك الكافر الذي لم ينجحوا في إرسال روحه وروح حصانه إلى الشيطان.

يعود البطل مجللاً بهالة من القداسة ومحملاً بجائزته الثمينة إلى بلاده ليشتري بها كل الخيول المصادرة من الهنود الحمر ويعيد إليها حريتها، ثم يبلغ النبل مداه ويطلق حصانه (هيدالغو) أيضاً، لتجري أسراب من الخيول في السهول الخضراء وتنشر في الآفاق رسالة الحرية التي جاء بها الرجل الأبيض إلى العالم أجمع، ويعود البطل القنوع خالي الوفاض بعد أن لقّن الناس في الشرق والغرب كيف تكون محاسن الأخلاق.

الفيلم مليء بنماذج يصعب حصرها للصور النمطية والأكاذيب المغرقة في العنصرية والسخف والتمجيد الكاريكاتوري للعرق الأبيض، حيث لا نجد صفة إيجابية تُذكر للعرب أو لدينهم، حتى لدى الشيوخ الطاعنين في السن الذين يتوسم فيهم الناس الحكمة والحلم، في حين ينافس البطل الأبيض في سموه أخلاق الأنبياء[108]. ومن المثير للدهشة حقاً أن يعاد إنتاج مثل هذه الأفلام في عصر العولمة حيث يمكن لطفل في السادسة أن يتعرف حقيقة الإسلام بكبسة زر على حاسبه الشخصي، ولا ندري إن كانت هذه الحقيقة التي غيّبها صانعو الفيلم عمداً -على الأرجح- قد غابت أيضاً عن عمر الشريف وسعيد طغماوي ، أم أن هناك مبررات لا نعرفها تجيز لهما ولفريق العمل المغربي المشاركة في فيلم يحقر العرب والمسلمين جميعاً على هذا النحو الجارح[109].

4- فيلم المصارع ( Gladiator ):

يعرض هذا الفيلم التاريخي قصة قائد الجيش الروماني (ماكسيموس)؛ الممثل النيوزيلندي (رسل كرو)، الذي يعتزم الإمبراطور (أوريليوس) نقل سلطاته إليه، فيسارع ابن الإمبراطور (كومودوس) إلى قتل أبيه طمعاً في السلطة، ويفر (ماكسيموس) بجلده قبل أن يُقتل، فيعلن الإمبراطور الشاب البحث عن القائد المتمرد ويقتل زوجته وولده. وبعد العديد من الصعاب، يجد (ماكسيموس) نفسه أسيراً لدى البدو في شمال إفريقية، ويباع في روما عبداً مملوكاً ليقوم بدور المصارع ( Gladiator ) الذي يقاتل حتى الموت في مسارح الرومان. ومع أن الفيلم مليء بالأخطاء التاريخية، إلا أن إقحام العرب، أو الأمازيغ، في الفيلم لم يكن له أي مبرر سوى الإساءة، فضلاً عن كونها أكذوبة تاريخية، إذ يقصر حضور المغاربة على دور اللصوص ذوي الملامح القبيحة والقلوب القاسية، والذين يخطفون المقاتلين الأقوياء لبيعهم إلى تجار العبيد وإجبارهم على القتال الدموي في مسارح روما للترفيه عن الناس.

وقد صُوّر هذا الفيلم أيضاً في المغرب عام 2000، وهو من إخراج البريطاني (ردلي سكوت)، الذي أخرج لاحقاً فيلم (مملكة السماء)، وكان جميع ممثلي (الكومبارس) وتجار العبيد الملتحين والمعمّمين من السكان المحليين!

5- فيلم قواعد الاشتباك ( Rules of engagement ):

هو من أكثر الأفلام إساءة إلى العرب والمسلمين في تاريخ هوليود على الإطلاق، فهو ليس مجرد فيلم يحكي قصةً عن الإرهاب أو يكرس الصور النمطية لشعب بأكمله، بل يتجرأ بخبث على تبرير المجازر في حق المدنيين من المسلمين!

تعود قصة الفيلم إلى وزير البحرية الأمريكية الأسبق (جيمس ويب)، وتدور حول محاصرة مجموعة من المدنيين اليمنيين مقرّ السفارة الأمريكية في صنعاء، حيث يفاجأ المشاهد برجال البحرية الأمريكية من المارينز، بقيادة الممثل الأسود ساموبل ل. جاكسون، وهم يمطرون الشعب الأعزل من الرجال والنساء والأطفال المحيطين بالسفارة بوابل من الرصاص، وقبل أن يتعاطف المشاهد مع الضحايا الأبرياء، تبدأ (العدالة الأمريكية) بأخذ مجراها النزيه في الأحداث، فيتولى المحقق (الممثل تومي لي جونز) التحقيق في الأمر، ويُفاجأ بطفلة صغيرة تسير على ساق واحدة من ضحايا تلك المجزرة، فيتبعها ليجد مستشفى في الهواء الطلق يضج بالجرحى، ويعثر بمحض المصادفة تحت أحد الأسرّة على شريط فيديو يحمل رسالة مسجلة لخلية إرهابية، وما إن يصحُ المحقق من وقع المفاجأة حتى يعيد المخرج عرض المشهد مع الحقيقة الكاملة، حيث يطلق المدنيون اليمنيون النار على السفارة الأمريكية فيضطر جنود المارينز إلى الدفاع عن أنفسهم، ثم تُركز الصورة على وجه الطفلة البريء الذي تعاطفنا معه في البداية، لنراها تشارك بقية (الإرهابيين) من النساء والرجال والشيوخ في إطلاق النار على الأمريكيين بمسدسها الصغير! وتنتهي المجزرة باستعراض جثث القتلى والنساء الثكالى يلطمن الوجوه، في مشهد مشابه تماماً لما نراه في نشرات الأخبار والأفلام الوثائقية من مجازر حقيقية تُرتكب في حق المدنيين في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها، وينجح الفيلم في حقن الجزء اللاواعي من عقل المشاهد بمصل المناعة ضد أي تعاطف مع أمثال هؤلاء الضحايا؛ بتحريضه على استحضار الصورة النمطية للشعب المسلم بنسائه وشيوخه وأطفاله وهم يطلقون النار قبل، أن يرتكب الأمريكيون أو (الإسرائيليون) في حقهم أي مجزرة مهما بلغت بشاعتها!

الفيلم مليء أيضاً بالصور النمطية المتعمدة، ففي العمق تتكرر مشاهد المآذن وأصوات الأذان وصور النساء المنقبات، وكل ما من شأنه الربط بين الإسلام والإرهاب، وقد لقي الفيلم إقبالاً كبيراً في دور العرض وتصدَّر لائحة شباك التذاكر الأمريكي لعدة أسابيع بعائدات بلغت حتى نهاية الأسبوع الثاني أكثر من 10 ملايين دولار.

أما الحقيقة الأكثر إيلاماً فهي تصوير هذا الفيلم في المغرب الشقيق بكل ما فيه من إساءة وتشويه، وقيام (الكومبارس) المغاربة بأدوار الإرهابيين مرة أخرى، علماً بأن بعض الجاليات اليمنية والعربية في الولايات المتحدة نظمت مظاهرات احتجاجية لإدانة الفيلم خلال عرضه في أكثر من ولاية، وتسبب الفيلم آنذاك بأزمة دبلوماسية أحرجت السفيرة الأمريكية في صنعاء، وترك أثراً عميقاً في نفوس كل من شاهده من العرب والمسلمين.

6- فيلم سقوط الصقر الأسود ( Black Hawk Down ):

في عام 2001؛ قدّم البنتاغون الدعم المباشر للمخرج (ردلي سكوت/ Ridley Scott ) لإنجاز فيلم يحكي قصة المحاولة الفاشلة لإسقاط الجنرال الصومالي (محمد فرح عيديد) من قبل الأمريكيين عام 1992، حيث يبدأ الفيلم بمقدمة مهمة تبرر دخول الأمريكيين إلى القرن الإفريقي،

فالصوماليون متورطون في حرب أهلية، ومليشيات عيديد تسيطر على البلاد بالحديد والنار، مما أجبر حماة الحرية الأمريكيين على التدخل ضمن قوات دولية أخرى بهدف إحلال السلام ولدوافع إنسانية(!).

تقوم قصة الفيلم على مهمة يضعها قائد القوات الأمريكية لاقتحام المبنى الذي يحتمي بداخله عيديد وأتباعه، وتنتهي بالإخفاق الذريع ثم الانسحاب من المنطقة بأكملها بعد فترة وجيزة، حيث تقتضي الخطة إنزال عدد من الجنود بالمروحيات، من فرقتي «دلتا» و«الفرسان» عاليتي التدريب، في منطقة مليئة بأتباع عيديد للسيطرة على مقر سلطته. وقبل أن تبدأ المجازر في حق المدنيين؛ يصرح قائد الكتيبة الشاب في بداية الفيلم بأنه يحترم الصوماليين لكونهم فقراء وغير متعلمين، كي يحسن المشاهد الظن بنيات الأمريكيين منذ البداية.

يظهر دور (المسلمين الأخيار) في الفيلم مع تعاون أحد الصوماليين مع القوات الأمريكية لإرشادهم إلى موقع المقر، ولكن المليشيات تنجح في اكتشاف المهمة بأساليب مراقبتها البدائية وتمطر الأمريكيين بالرصاص والقنابل، ثم تنجح مجدداً في إسقاط إحدى طائرات الهليكوبتر (الصقر الأسود) لتتحول المهمة إلى إنقاذ الجنود العالقين في أكثر الأحياء خطورة، وعندما تتوجه الهليكوبتر الأخرى لإنقاذهم يتم إسقاطها أيضاً، فيتورط الجنود في قتال الشوارع حتى صباح اليوم التالي، وتنتهي الأحداث بأسر أحد الطيارين ومقتل تسعة عشر أمريكياً، في مقابل ألف صومالي!

يعدّ هذا الفيلم من أكثر إنتاجات هوليود إساءة وتنميطاً لصورة (الإرهاب الإسلامي) وأكثرها تمجيداً للجيش الأمريكي. فالصوماليون ليسوا أكثر من حشود متخلفة متعطشة للدماء، بل إن التفاوض لديهم مرادف للقتل، كما يرد على لسان أحد قادتهم، وهم أفضل من تتوافر لديهم مجموعة الصور النمطية السيئة التي اعتادت هوليود على إلصاقها بالشعوب، من سواد البشرة والدين الإسلامي والفقر والتخلف فضلاً عن الإرهاب ، إذ نراهم ينصرفون إلى الصلاة في أثناء القتال، ويبيعون الأسلحة في الشوارع كما تباع الخضراوات، وينقضون كالذئاب على الجنود الأمريكيين. كما تعمد الفيلم توريط المدنيين في العنف، فحتى النساء والأطفال يحملون السلاح، وعندما يرى المشاهد أحدهم يُقتل برصاص أمريكي فسيبرر لاشعورياً هذه المجزرة، بل لن يبالي بمأساة أحد الصوماليين وهو يجري حاملاً طفله القتيل بيديه، وقد يسرّ كثيراً لرؤية ذلك القطيع من الزنوج وهم يتساقطون بالجملة برصاص الجيش الأمريكي.

والأهم من ذلك كله هو أن هذه الدعاية المجانية لتبرير محاولة الأمريكيين احتلال منطقة القرن الإفريقي، وتطويق منطقة الخليج، والسيطرة على منفذ استراتيجي للبحر الأحمر المطل على قناة السويس قد تم تصويرها مرة أخرى على أرض عربية، وبمشاركة حاشدة من ممثلين عرب، وأن توقيت عرض الفيلم في عام 2001 قد تزامن مع تصاعد تهديدات الإدارة الأمريكية بضرب الصومال الذي يؤوي الإرهابيين ، ومع اندلاع الحرب المفتوحة على (الإرهاب الإسلامي)، وأنه ما زال يُعرض باستمرار على مجموعة قنوات (mbc) وقناة (Fox Movies) العربية!

7-فيلم الريشات الأربع (The Four Feathers):

في عام 2002 رفضت حكومة السودان منح رخصة التصوير لطاقم الفيلم على أرضها؛ لما يتضمنه من إساءة إلى السودان وشعبه وتاريخه ودينه، فنقل الطاقم معداته إلى ورزازات.

تعود قصة الفيلم إلى رواية (الريشات الأربع) للكاتب الإنجليزي (ماسون كانت) التي سبق تصويرها سينمائياً خمس مرات خلال القرن العشرين، أما المحاولة الأخيرة التي حملت اسم الرواية نفسه فقد خرجت إلى النور برؤية المخرج الإنجليزي، هندي الأصل، (شيكار كابور)، ومن كتابة كل من ميشيل شيفر و حسين أميني الذي يُعتقد أنه مغربي الأصل.

يتحدث الفيلم عن ملازم بالجيش البريطاني يدعى (هاري)، يتم استدعاؤه للمشاركة في الحملة العسكرية المتوجهة إلى قمع الثورة المهدية في السودان عام 1884 ضد الاحتلال البريطاني، فيقرر تقديم استقالته لعدم اقتناعه بأخلاقية هذه الحرب ضد شعب يقاوم الاحتلال، ولكن خطيبته وثلاثة من زملائه يقدمون إليه ريشات أربعاً رمزاً للجبن، كما في الثقافة الإنجليزية، فيتراجع عن قراره ويسافر إلى السودان لينفي عن نفسه هذه التهمة، وعندما يصل إلى هناك يتنكر في زي سوداني ويعيش بالقرب من معسكر للإنجليز كي يراقب ما يحدث، فيشرف على الهلاك في الصحراء قبل أن يسارع (أبو فاطمة)؛ الممثل محمد بوشي ، إلى إنقاذه، ومع تطور الأحداث يتحول (هاري) إلى الصف الآخر ويشارك السودانيين في معاركهم ضد الإنجليز إيماناً بقضيتهم، وعلى عكس الأفلام المشابهة التي يتعاطف فيها الرجل الأبيض مع الشعب المضطهد ضد جيشه الغازي ويثبت في موقفه حتى نهاية الفيلم، كما في (الرقص مع الذئاب)، (الساموراي الأخير)، و(أفاتار) فإن التعاطف مع المسلمين لا يمكن أن يكتمل، إذ سرعان ما يصحو (هاري) عندما يرى جثث زملائه ممزقة في المعركة ليعود إلى صف الإنجليز أملاً بإنقاذ من بقي منهم على قيد الحياة، بل يتعاطف المسلم نفسه مع الإنجليز في حركة معاكسة لنفاجأ بجهود (أبي فاطمة) في تحرير الجندي الآخر (فيكار) من الاعتقال والتعذيب في أم درمان، ويعود (هاري) أخيراً رافع الرأس إلى خطيبته التي تنتظره في بريطانيا، ويرد إليها ريشتها فتصفح عنه من جديد.

تسبب هذا الفيلم باستياء شديد لدى الشعب والحكومة السودانيين، فمع وقوف بطل الفيلم الإنجليزي إلى جانب السودانيين وإظهار وجه العدالة جزئياً في قضيتهم، إلا أن الفيلم يحفل أيضاً بالمشاهد التي تمجد الجيش والقيم الإنجليزية على حساب السودانيين وثورتهم المهدية التي تمثل المقاومة الإسلامية في بلادهم، ولا يخلو الفيلم من الصور النمطية لكل من المسلم الطيب الذي يتعاون مع العدو ضد بلاده، و المسلم الإرهابي الذي يعذب الأسرى الإنجليز في السجون، والشعب المسلم المتخلف والبربري الذي لا يستحق التعاطف مع قضيته العادلة.

ومع كلِّ ما قيل عن إساءة الفيلم إلى المصريين أيضاً بإظهارهم في مظهر المتعاون مع العدو المحتل لقمع الثورة المهدية في السودان وإساءة بعض الضباط المصريين للثوار، فقد أجازت الرقابة المصرية عرض الفيلم بعد جدل حاد بين النقاد؛ حيث رأى المؤيدون أن الفيلم ينطلق من فكرة رفض الحرب ويسخَر من العنصرية الاستعمارية التي تتسبب في الدفع بهؤلاء الشباب إلى القتال والموت على بعد آلاف الأميال من بلادهم[110]. وبغض النظر عن هذه المبررات، فإن تزامن إنتاج الفيلم مع بدء احتلال كل من بريطانيا وأمريكا للعراق يثير الكثير من الشكوك، وكأن رسالة ما يسعى المنتجون إلى بثها في روح الجيش المقدم على الاحتلال والشعب الذي يسانده؛ مفادها أن المعيار الأخلاقي في الحرب لا يقوم على عدالة القضية بل على الانتماء العرقي. وربما كان لهذه الدعاية (البروباغاندا) دورها في إعادة انتخاب الرئيس جورج بوش الابن لولاية ثانية وبأغلبية كاسحة، على الرغم من المعارضة الشعبية الكبيرة للحرب قبل اندلاعها، ويكشف التاريخ الحديث عن ظاهرة تعاطف الرأي العام في أمريكا وبريطانيا مع قيادته بمجرد اندلاع الحرب إلى

حين عودة المحاربين سالمين حتى في حال عدم اعترافه بأخلاقيتها، وعندها لن يكلف الأمر أكثر من الاعتذار عن بعض الأخطاء، وسيبنى صرح تذكاري لضحايا الجيش، ويكرَّم من بقي منهم على قيد الحياة!

نشير أخيراً إلى أن المخرج (شيكار كابور) عاد مرة أخرى إلى المغرب؛ حيث صُور الفيلم، بدعوة من مهرجان مراكش السينمائي ليكون أحد أعضاء لجنة التحكيم في دورته السابعة عام 2007!

8- فيلم جسد الأكاذيب (Body of Lies):

يحمل هذا الفيلم الذي أنتج سنة 2008، اسم رواية الكاتب والصحفي (ديفيد إغناتيوس) (جسد الأكاذيب)؛ وهو صاحب عمود شهير في صحيفة واشنطن بوست، ويبدأ بمشهد لثلاثة شباب باكستانيين يشكلون خلية (إرهابية) في مانشستر ببريطانيا، وهم ينتظرون مداهمة متوقعة من قبل القوات البريطانية، ويظهر في الوقت نفسه قائدهم على الشاشة مهدداً بتكرار حادثة التفجير الأخيرة التي قاموا بها في (شيفيلد) ببريطانيا رداً على حرب أمريكا على الإسلام. وبمجرد دخول عناصر القوة إلى منزلهم يكبّر الشباب بأعصاب هادئة ودم بارد، ثم يسمي أحدهم بالله ويضغط على زر القنبلة لتنفجر بالجميع، في دلالة على أن الموت عند هؤلاء هو مجرد انتحار للهروب من تحمل المسؤولية.

المشهد التالي يمهد للإيديولوجية التي يؤمن بها صانعو هذا الفيلم، حيث نسمع شرحاً مفصلاً للقضية وأبعادها من وجهة نظر ضابط المخابرات الأمريكي (إد هوفمان)؛ النجم رسل كرو. ومفادها أن الناس تعبوا من مبررات كل من الأمريكيين والمتطرفين الإسلاميين، ومع أن العمليات ضد الأعداء في زيادة فإنه لم ير في الحقيقة أي تقدم، بل أصبح الأمريكيون في مواجهة (تكتل عالمي) مما يتطلب عملاً مستمراً ودؤوباً. ثم يشرح آلية عمل العدو الذي قرر أن يعيش في الماضي ويتصرف كما في الماضي حتى لا يراه الذين يعيشون في المستقبل، فلا يستخدم المتطرفون وسائل الاتصال الحديثة بل يعتمدون على التواصل الشفهي وجهاً لوجه ثم الاختفاء وسط الزحام. وتبلغ السذاجة مداها عندما يرى أن الأعداء لا يريدون التفاوض فغايتهم هي أن يعلم الناس بشأنهم، ورسالتهم تقوم على خيارين فقط: «إما أن تعتنقوا ديننا أو تموتوا»، وينتهي التحليل مع التأكيد على أن الحقيقة ليست معقدةً على الإطلاق، وأن الأعداء ينتظرون من حماة الحضارة أن يغمضوا أعينهم دقيقة واحدة فقط ليغيروا العالم بأسره!

تدور بقية الأحداث بين الشرق الأوسط وواشنطن، ويتولى مهمة العمل الميداني عميل الاستخبارات الأمريكية (CIA) (روجر فيرِس)، ويقوم بدوره النجم ليوناردو دي كابريو. وتكون البداية مع عميل عراقي اسمه (بسام)؛ الممثل اليهودي أوسكار إيزاك، يساعده في جمع المعلومات وقتل المقاومين، وفي إحدى العمليات الجريئة يُقتل (بسام) وتهبّ قوة أمريكية لإنقاذ الشاب الأمريكي دون اكتراث للعميل العراقي وسط ذهول (فيرِس).

تتواصل التعليمات من قائده (إد هوفمان) الذي نراه طوال الفيلم وهو يراقب (فيرِس) من مكتبه في قيادة المخابرات الأمريكية في (لانجلي- فيرجينيا) عبر الأقمار الصناعية دون أن يخفى عليه شيء! ويكلفه بمهمة استخبارية جديدة في الأردن، تقضي بتعقب أحد قادة تنظيم القاعدة واسمه (السليم) واغتياله، فيتولى منصباً جديداً في السفارة الأمريكية في عمّان لنكتشف أن السفارة لا تختلف كثيراً عن أي مقر للمخابرات، وأنها تتمتع بصلاحيات واسعة على أرض الأردن!

يلتقي (فيرِس) بضابط الاستخبارات الأردني هاني سلام؛ الممثل البريطاني مارك سترونج، ويدور بينهما حوار يكشف فيه (فيرِس) عن ثقافته قائلاً: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم»، فيهز هاني رأسه مؤيداً ويقول: (في دار الحرب)، ويتفق الاثنان على أنهما في صف واحد. ثم يكشف هاني لصديقه الأمريكي عن أساليب التعذيب التي يستخدمها في التحقيق مع المتطرفين للوصول إلى (السليم)، كما يصطحبه في رحلة إلى الصحراء ليستعرض مهارته في توظيف لص سابق؛ عمر كرامي ويجسده الممثل الفلسطيني قيس ناشف ، تحوّل من السرقة إلى التطرف ليصبح في النهاية عميلاً للمخابرات من داخل خلية (السليم)، ونفاجأ بأن كل ما يحتاج إليه الأمر لتحويل شاب فلسطيني نشأ في المخيمات إلى عميل هو منحه منزلاً لائقاً يعيش فيه مع أمه.

تنفجر قنبلة أخرى في سوق للزهور في أمستردام- هولندا، في حين يتابع (السليم) أحداث الانفجار عبر نشرات الأخبار من صالون منزله الفخم في عمّان، في صورة نمطية لقادة هذه التنظيمات الأقرب إلى رؤساء المافيا، فهم يسكنون قصوراً فخمة ويركبون سيارات فارهة ويحيط بهم الحرس والأتباع ويدخنون السجائر، بل نسمع عن أحد عناصر المخابرات الأمريكية تصحيحاً لمعلومات (فيرِس) يقول فيه: إن المتطرفين في الأردن ليسوا كزملائهم في العراق، فهم يشربون الخمر ويرتكبون الفواحش! وبذلك تتسع دائرة الصورة النمطية لأعداء الغرب في ذهن المشاهد، لتشمل أطيافاً أخرى غير تقليدية من المسلمين. ثم نستمع لاحقاً إلى شرح موجز عن شخصية (السليم) التي رسمها مؤلف القصة بمواصفات تضمن أكبر قدر من التنميط المجحف، فهو رجل سوري ينتمي إلى عائلة متوسطة الحال قامت السلطات بتصفيتها دون أن نعرف السبب، ففر إلى السعودية ودرس فيها الفيزياء والهندسة ثم أكمل دراسته في عمان وانتمى إلى حركة حماس!

يقرر (فيرِس) إحداث خلية إرهابية وهمية للإيقاع بالسليم، يتم من خلالها توريط مهندس أردني متدين (عمر صدّيقي)؛ الممثل الفلسطيني علي سليمان ، في انفجار مدبر بتركيا، فيبتلع (السليم) الطعم ويتصل بصدّيقي للتنسيق معه في عمليات مشابهة، ونفاجأ بأن خلية (السليم) أكثر كفاءة من جميع أجهزة المخابرات عندما تكتشف زيف الخطة، فتقتل المهندس البريء على طريقة المافيا قبل أن يتمكن أحد من إنقاذه.

وفي محور آخر يقع (فيرِس) في حب (عائشة) الممرضة الأردنية من أصل إيراني؛ الممثلة الإيرانية غولشفته فرحاني[111]، التي يتم من خلالها تنميط العائلة العربية حيث يُراقب سلوك الفتاة. وعلى مائدة الغداء، نكتشف غضب الأخت الكبرى؛ الممثلة المغربية لبنى عزبل ، من احتلال الأمريكيين للعراق، في حين تبدو عائشة أكثر سذاجة وحمقاً، وهو بالضبط ما يناسب أي عميل استخباري في العالم!

ويُستدرج (فيرِس) عبر عائشة إلى داخل سورية، فيجد نفسه أمام (السليم) في أحد أوكاره، ويبدأ سيل الصور النمطية المعروفة من تعذيب وحشي على يد الشباب الملتحين والآيات القرآنية التي تتلى بطريقة مثيرة للسخرية، ثم يقدم الفيلم رسالته على لسان (فيرِس)؛ فآيات القتال يتم تفسيرها من قبل المتطرفين على نحو خاطئ، وشيوخ الإرهاب ليسوا سوى رأسماليين يصنعون جيوشاً من العبيد عبر أموال البترول، وسيأتي اليوم الذي يختفون فيه جميعاً في رماد التاريخ. وقبل أن يُذبح (فيرِس) أمام الكاميرا تقتحم المخابرات الأردنية بقيادة هاني المقر فيُنقذ في اللحظة الأخيرة ويُعتقل السليم.

وبالرغم من المغالطات التاريخية والدينية والمنطقية الكثيرة في هذا الفيلم[112]، لا بد لنا من الإشارة إلى أثر العولمة والانفتاح الذي نعيشه اليوم في تغير مواقف المثقف الأمريكي من حكومته الذي ترك بصمته بشكل ما على هوليود، إذ لم تعد أمريكا منزهة عن الخطأ حتى في عين المخرج (ردلي سكوت) نفسه الذي أخرج في عام 2001 فيلم (سقوط الصقر الأسود) بكل ما فيه من دعاية فجة (بروباغاندا)، وهي ظاهرة امتدت إلى العديد من الأفلام الأخرى التي أنتجت في ظل (الحرب على الإرهاب) مثل (سيريانا)، (المنطقة الخضراء)، (التسليم ) و(إنذار بورن). وقد صدّر (ردلي سكوت) هذا الفيلم بعبارة ذات مغزى للكاتب (و. هـ. أودن) يقول فيها: «أنا وعامة الناس نعلم تماماً ما يتعلمه الأطفال في المدارس.. الذين يتعرضون للشر يردون بشرّ مثله»، وجسّد (سكوت) البيروقراطية الأمريكية في فيلمه ببراعة مع كل مرة يواجه فيها (فيرِس) الموت أو يحتاج إلى دعم، فيتصل بقائده في واشنطن عبر الهاتف النقال، في الوقت الذي يستمتع فيه هذا القائد بملاحقته عبر القمر الصناعي أو يمارس حياته اليومية مع أطفاله بهدوء شديد. كما قدم لنا المخرج عميلَ المخابرات الأمريكي في صورة متواضعة بعيداً عن أسطورة جيمس بوند، فهو إنسان عادي قابل للخطأ والغضب واليأس، قد يتمرد على قادته ويأسف لقتل الأبرياء ويقع في حب فتاة عربية.

ولكن التفاؤل بهذه الظاهرة سيقف بنا عند حدود هامش النقد المتاح في هوليود، فقد يُسمح أحياناً بنقد بيروقراطية قادة الولايات المتحدة وما يقعون فيه من أخطاء، ولكن ثمة خطان أحمران لا يمكن لأحد أن يقترب منهما، الأول هو الإطار العام للسياسة والثقافة الأمريكية، التي لا تحكمها توجهات حزبية أو أخطاء تُرتكب في هذه الحرب أو تلك، والثاني وهو الأهم: الصهيونية وكل ما يتعلق بها، سواء وجود (إسرائيل) أو سياساتها أو الديانة اليهودية أو أثر ضغوط اللوبي الصهيوني على أي سياسة ما في العالم.

ومن هذا المنطلق يمكن قراءة النهاية غير التقليدية للفيلم عندما يرفض (فيرِس) العرض الذي يقدمه رئيسه (هوفمان) بالجلوس في مكتب مريح بعيداً عن المشاكل معلناً قراره بالبقاء في (الشرق الأوسط) الذي يحبه، ومع استنكار رئيسه حيث «لا أحد يحب الشرق الأوسط» يصرّ (فيرِس) على الانسحاب من هذه الحرب القذرة متمرداً على الطرفين معاً، ويفضل العيش مع صديقته الساذجة بعيداً عن صراعات السياسة!

بقي أن نذكّر بأن معظم مشاهد الفيلم صُوّرت بين الرباط وورزازات في المغرب، وذلك بعد أن رفضت الأردن طلب التصوير على أرضها لما يتضمنه الفيلم من إساءة مباشرة إلى السلطات والشعب، وبعد أن رفضت أيضاً كل من أبو ظبي ودبي الطلب نفسه[113]، أما قائمة الممثلين فتضم المزيد من الأسماء العربية أخرى ومنها: جميل خوري، علي خليل، هدى زبيط، عمر بردوني، عبد الرحيم كشمير، سامي سمير، رامي حلمي وشريدي جبرين، في حين رفض الفنان السوري غسان مسعود المشاركة في الفيلم، مع أنه قد سبق له التعاون مع المخرج نفسه في فيلم (مملكة السماء)[114]، لذا أُسند دور الشيخ (السليم) إلى الممثل الإسرائيلي (علون أبو طبول)[115]، وهو من مواليد الأرض المحتلة عام 1965، وسبق أن أدى دور جندي إسرائيلي في فيلم ( ميونخ ) عام 2005. وقد نتساءل هنا عن المبررات التي تسهل على بعض الممثلين العرب التعاون مع ممثل "إسرائيلي"، وخصوصاً عندما يطلب المخرج من (عمر بردوني) أداء دور القائم بأعمال (السليم) مع كل ما يتطلبه الدور من احترام وتوقير لشيخه المفترض!

9- فيلم الجنس والمدينة 2 (Sex and the City II):

في ظل التساهل المتزايد لرقابة السلطات المغربية على طلبات تصوير الأفلام الأجنبية أصبح هذا البلد العربي الجميل البديلَ الأمثل للدول العربية الأخرى التي يصعب التصوير فيها، فبعد انتقال (سيريانا) من بيروت إلى الدار البيضاء، و(سقوط الصقر الأسود) من مقديشو إلى ورزازات، و(جسد من الأكاذيب) من الأردن إلى الرباط وورزازات، و(قواعد الاشتباك) من صنعاء إلى ورزازات أيضاً، بدأ فريق (الجنس والمدينة 2) في آب/أغسطس 2009 بالعمل على تحويل مراكش إلى أبو ظبي بعد رفض السلطات في كل من دبي وأبو ظبي طلب التصوير.

ويبدو أن الاحتجاجات الواسعة التي واجه بها المراكشيون فريق العمل لم تتمكن إلاَّ من تعطيله مؤقتاً، مما ضاعف مدة التصوير عدة أضعاف، كما لم تمنع اعتراضات الصحافة المغربية الفيلمَ من الوصول إلى دور العرض العالمية في أيار/مايو 2010، وبكل ما يحمله من إساءة وسخرية وجنس.

الفيلم بجزأيه الأول والثاني ليس إلا امتداداً للسلسلة التلفزيونية الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه، واستمر عرضها لخمسة عشر عاماً، وتدور القصة حول تفاصيل الحياة العاطفية والجنسية لأربع سيدات من نيويورك في إطار كوميدي، في حين اختار المنتجون في الجزء الثاني انتقال بطلات الفيلم إلى أبو ظبي لقضاء العطلة، حيث تبدأ هناك المفارقات بمحاولتهن التأقلم مع البيئة المحتشمة للمدينة، ولا يفوّت الفيلم أي فرصة للسخرية من التقاليد العربية والإسلامية، والتي رأى البعض أنها تأتي في سياق الحملة المحمومة لإطفاء جذوة التقدم في دولة الإمارات، حيث لا يستسيغ العقل الغربي اقتران الإسلام والحضارة في مكان واحد، خصوصاً عندما تنطلق الأحكام من منظور المركزية الغربية، فيُصبح المعيار الأخلاقي والمنطقي للسلوك هو التوافق مع ما يهواه الشارع الأمريكي وما يستحسنه لبقية الناس على هذا الكوكب، ويغدو التحدي الأكبر للفيلم في نقل قصة تحمل اسم (الجنس والمدينة) من نيويورك إلى أبو ظبي[116]!

أفلام أخرى:

إضافة إلى النماذج السابقة، نذكر أيضاً بعض الأفلام المسيئة التي صُورت كلياً أو جزئياً في المغرب، وهي:

- فيلم (لورنس العرب) الذي سبق الحديث عنه، وتم تصوير مشاهده بين المغرب والأردن.

- فيلم (جوهرة النيل/ The Jewel of the Nile) من إنتاج سنة 1985 وبطولة الممثل اليهودي (مايكل دوغلاس)، ويظهر فيه العرب شعباً همجياً بدائياً يحكمهم ديكتاتور متوحش، وتكرر عرضه على إحدى قنوات (mbc).

- فيلم (مملكة السماء) الذي تعرضنا له بالتفصيل في هذا الكتاب.

- الفيلم الفرنسي (علي بابا والأربعون حرامي) الذي صُور كاملاً على أرض المغرب سنة 2007.

- فيلم (الخائن/ Traitor) الذي قدم فيه بعض الممثلين المحليين صورة مسيئة إلى المسلمين الأمريكيين، وقد تحدثنا عنه سابقاً في الكتاب.

## تونس.. المحطة الإفريقية الثانية

تحتل تونس المرتبة الثانية في استقطاب صناع الأفلام العالميين في المنطقة العربية، وترتبط بدرجة أكبر بالمنتجين الأوربيين مقارنة بنظرائهم الأمريكيين، ويعود الفضل الأول في ذلك إلى رجل الأعمال طارق بن عمار ، الذي سبق التعرض لتجربته السينمائية والإعلامية في الفصل الثالث من الكتاب.

بدأ نشاط تونس الإنتاجي العالمي عندما أسس بن عمار شركة (كارتاغو فيلمز) سنة 1975 وتمكن في السنة نفسها من تصوير الفيلمين الكبيرين (ستار وورز) لجورج لوكاس و(غزاة التابوت المفقود) لستيفن سبيلبرغ في تونس، ثم أتبعهما بفيلم (القراصنة) لرومان بولانسكي الذي صوّر بأكمله في تونس في نهاية الثمانينيات.

انشغل بن عمار بعد ذلك بتوسيع إمبراطوريته الإعلامية في أوربا وعقد الكثير من عقود الشراكة والتعاون مع كبار رجال الإعلام والإنتاج السينمائي في العالم؛ مثل رئيس الوزراء الإيطالي (برلوسكوني) والأمريكي المعروف بميوله الصهيونية (روبرت مردوخ)، ليعود في عام 2001 إلى الإنتاج السينمائي مع فيلم ( امرأة قاضية ) مع المخرج الأمريكي (برايان دي بالما)، حيث أسس في العام نفسه بالقرب من العاصمة أول مدينة سينمائية تونسية بمواصفات عالمية، وتتضمن المدينة ستة استوديوهات ضخمة ومرافق أخرى تحتل بمجموعها مساحة قدرها 12 هكتاراً، وجاء تأسيسها في خطوة مكملة لمشروع مشترك بين بن عمار و(برلوسكوني) يحمل اسم (إمبريوم).

يأخذ النقاد على بن عمار أن جميع أفلامه التي صُورت في تونس لا تحمل أي بصمة عربية، كما لا تشير من قريب أو بعيد إلى أي قضية تهم سكان المنطقة، ففي إجابة عن سؤال طرحه الناقد محمد رضا على بن عمار حول غيابه عن الواجهة العربية وعدم اهتمامه بمساعدة السينمائيين العرب، قال بن عمار: «كلٌّ له دوره الذي يحسن القيام به. لا أستطيع أن أنتج أفلاماً عربية أو مساعدتها؛ لأن هذا ليس الدور الذي أنتهجه. الذي أستطيع القيام به هو أن أقدم نفسي بوصفي عربياً مثقفاً وجاداً وصادقاً وناجحاً إلى الغرب، وفي هذه الآونة بالذات، هذا هو الأمر الأكثر أهمية عندي»[117]. وقد يعني ذلك أن الأفلام العالمية التي ستصوَّر في تونس خلال المستقبل المنظور لن تخدم القضايا التي تهم العرب والمسلمين، ولن تتعدى كونها أعمالاً تجارية مربحة تبحث عن أقل التكاليف على أرض تونس، خصوصاً أن الصناعة السينمائية العالمية في تونس قد أصبحت كلها في قبضة هذه المجموعة بعد توقف الشركة التونسية للإنتاج والتوزيع (الساتباك) عن العمل منذ عقود.

النقد لا يتعلق هنا بعدم اهتمام المنتجين ورجال الأعمال بالقضايا العامة، فالعمل في صناعة الأفلام يتعدى المجال التجاري البحت، ويدخل في صميم التأثير الثقافي والسياسي وإعادة تشكيل الرأي العام. لذا فإن اقتصار مفهوم النجاح عند المنتجين على تحقيق أعلى الإيرادات سيؤدي بطبيعة الحال إلى مرور العديد من الأفلام الهوليودية التي لا تقف على الحياد، فضلاً عن تلك التي تسيء إلى قضايانا وتاريخنا وديننا، ويشهد الواقع على ذلك.

ففي أول إنتاج هوليودي في تونس؛ اجتمع كل من المنتج والمؤلف (جورج لوكاس) والمخرج (ستيفن سبيلبرغ) والممثل (هاريسون فورد) لإنتاج فيلم (غزاة التابوت المفقود) وهو الجزء الأول من سلسلة (إنديانا جونز) الشهيرة، وتكلَّف إنتاج الفيلم 18 مليون دولار وحصد أرباحاً تقدر بنحو 230 مليون دولار وفقاً لأرقام سنة 1989، ونظراً لهذا النجاح فقد تابع فريق الفيلم إنتاج ثلاثة أجزاء أخرى عُرض آخرها سنة 2008.

تدور الأحداث الافتراضية للفيلم في عام 1936 حول بحث النازيين الألمان عن (تابوت العهد) المفقود، والذي يؤمن اليهود بأنه يحمل ألواح التوراة. إذ تقول الأسطورة بأن الجيش الذي يتقدمه هذا التابوت المقدس سوف يكتب له النصر.

وقبل أن يعثر النازيون عليه؛ يُكلَّف عالم الآثار الأمريكي (دكتور هنري جونز)، والمعروف باسم (إنديانا)، بالمسارعة إلى إيجاده عبر طريق طويل ومليء بالمغامرات ينتهي به إلى القاهرة. وبفضل ذكائه وقوّته يعثر الدكتور جونز على التابوت الذي ظل مفقوداً لآلاف السنين في إحدى المغارات الفرعونية، ثم يدخل في مغامرة أخرى عندما ينتزعه النازيون منه بالقوة، ويتناوب كل من الدكتور جونز والجيش النازي المدجج بالسلاح على الاستئثار بالكنز، إلى أن يتمكن البطل الأمريكي بمفرده من إنقاذ حبيبته وكنزه معاً، وعندما يقع كلاهما في أسر النازيين ويُفتح التابوت تتولى المعجزة مهمة إنقاذهما، فتخرج الأشباح والنيران لتقضي على الجيش النازي كله، في الوقت الذي تتمزق فيه قيود البطلين ويخرجان من الزوبعة دون أن أي خدوش، وتنتهي القصة بعودتهما مع الكنز سالمَين إلى أمريكا.

وكما هي عادة أفلام الحركة في تلك المرحلة فالفيلم قائم برمته على فكرة تمجيد البطل الأمريكي وتحقير الشعوب الأخرى، فالدكتور جونز يجمع في شخصيته كلاً من الذكاء، العلم، القوة، الشجاعة والوسامة معاً، في مقابل الصورة النمطية للنازي الأحمق، المتعصب، الخائن والقبيح. وتُعرض هذه التناقضات جميعها على خلفية الصورة النمطية الأخرى المعتادة للعربي المسلم، والذي لا يستحق أكثر من بعض الأدوار الهامشية لملء فراغات الأحداث، فهو إما عميل للنازيين يُكلَّف بوضع السم في طعام البطل، أو شحاذ عجوز يتوسل إلى البطل طلباً لبعض النقود، أو عامل بسيط يتلقى الأوامر من السيد الأمريكي للحفر والبحث عن الكنوز، أو مقاتل فاشل يعجز عن صد لكمات البطل الأمريكي، أو حتى مهرج يستعرض مهاراته بالسيف قبل أن ينهي البطل الأمريكي المبارزة من الجولة الأولى بطلقة من مسدسه. كما تملأ حشود (الكومبارس) العرب الشاشة في مشاهد أخرى بهدف تأييد البطل الأمريكي المخلص في كل بطولاته، ولم يحظ أي ممثل عربي حتى بدور ثانوي يسمح بظهور اسمه على الشاشة!

أما الرسالة الأهم في الفيلم من وجهة نظرنا فتبدأ من اختيار مصر مخبأً للتابوت المفقود؛ للتذكير بنظرية غزو الفراعنة للقدس والاستيلاء على التابوت، ثم دفنه في مخبأ سري يحفل بالرموز الهيروغليفية والتماثيل الفرعونية في مدينة تانيس، ثم دمج الأعداء من ألمان وعرب معاً في مكان واحد لهزيمتهم، فما إن تُتلَ الصلوات بالعبرية ويُفتح التابوت المقدس حتى تتدخل القوى الإلهية وتنشق السماء لتعصف الرياح والأشباح بالأشرار النازيين، ولا ينجو سوى البطلين ليقوما بمهمة نقل الكنز السماوي إلى أمريكا، حيث يُحفظ بطريقة سرية في مستودعات الجيش الأمريكي الذي بات الحامي الرسمي لـ (شعب الله المختار)![118].

في مثال آخر؛ تمكن البعض من إقناع منتجي فيلم (المريض الإنجليزي) الشهير بتصوير الكثير من مشاهده في تونس سنة 1997، دون الالتفات إلى ما تحمله تلك المشاهد من إساءة مقصودة للعرب والإسلام، فضلاً عما يحفل به الفيلم، الذي حصد تسع جوائز أوسكار، من مغالطات تنم على السذاجة، إذ يفترض أن تدور بعض أحداثه في القاهرة خلال الأربعينيات، ولما كانت هوليود لا تهتم عادة بالتفاصيل عندما يتعلق الأمر بالعرب، فإن بيئة الفيلم لا تشير من قريب أو بعيد إلى القاهرة حيث يضع السكان على رؤوسهم القبعات المغربية، في حين تقام صلاة الجماعة في وقت ما زال الأذان يرفع فيه!

والأهم من ذلك، أن تُسنَد مهمة قطع إصبع أحد المرضى إلى ممرضة محجبة، تنفيذاً لأوامر ضابط نازي يذكرها بأن الأمر عادي بالنسبة إليها، لأن شعبها كان سيقطع يدها في حال ارتكابها فاحشة الزنا (!).. وهكذا تتحول الممرضة المسلمة بحجابها من ملاك للرحمة إلى كائن متوحش، بالتوازي مع الصورة المقابلة للممرضة الإنجليزية في نبلها وحسن معاملتها، فضلاً عن جمالها الذي يساعد المشاهد على المقارنة اللاشعورية بين الطرفين!

# الأردن.. جهود حثيثة للمنافسة

يعود تاريخ العمل السينمائي في الأردن إلى بدايات القرن العشرين عندما اختار بعض صانعي الأفلام الغربيين الأردن لتصوير أفلامهم، مستفيدين من تنوع المواقع الجغرافية بين الآثار والصحاري والغابات والبحر الميت، وكانت النقلة النوعية مع فيلم (لورنس العرب) الذي صُور الكثير من مشاهده في وادي رم والبتراء عام 1962.

وبعد إعلان إدارة بوش الحرب على (الإرهاب) واندلاع حربي أفغانستان والعراق، أصبح (الشرق الأوسط) موضوعاً لعشرات الأفلام العالمية سواء الأمريكية أو الأوربية أو حتى الهندية، وتعززت بذلك مكانة الأردن على خارطة صناعة الأفلام لما تقدمه من بيئة مشابهة، على وجه الخصوص، للمدن العراقية.

ولهذا الغرض تم تأسيس الهيئة الملكية الأردنية للأفلام سنة 2003 لتقوم بمهمة الإشراف والمتابعة والتدريب، وقدمت السلطات أيضاً العديد من التسهيلات لاستقطاب صناعة السينما العالمية، بوصفها أحد أشكال الاستثمار الذي يدر على البلاد الملايين من القطع الأجنبي[119]، ويوفر فرصاً جيدة للعمل ويعزز صناعة السينما المحلية، وكان من بوادر هذا الاهتمام قيام المخرج الراحل مصطفى العقاد بزيارة للأردن سنة 2004 بحثاً عن التمويل والدعم لفيلمه الذي لم يكتمل عن صلاح الدين.

في عام 2005، أثارت الهيئة الملكية غضب النقاد لسماحها بتصوير الفيلم (الإسرائيلي) (منطقة حرة/ Free Zone ) للمخرج (أموس جيتاي)[120]، الذي يحكي قصة سيدتين تنطلقان من تل أبيب إلى المنطقة الحرة في الأردن المتاخمة لحدود العراق والسعودية في سيارة أجرة، وتقوم بدورَي البطولة كل من الإسرائيلية (حنة لازلو) (حنة)، والأمريكية من أب إسرائيلي (ناتلي بورتمان) (ربيكا).

وخلال الطريق من غرب الأردن إلى شرقه لا تكاد السيارة تمر بمظهر حضاري واحد، بل يملأ المخرج أرض الأردن باللاجئين الفلسطينيين لتذكيرهم بأنه الوطن البديل. كما تمتلئ الصحاري الأردنية بالجِمال وقطعان الماشية التي يرعاها البدو، مع تذكير السائقة (الإسرائيلية) حنة بأن الفلسطينيين يعملون داخل بيوت زراعية زجاجية في بلدها (إسرائيل)، وأن عائلتها كانت تزرع الورود في صحراء النقب لتصديرها إلى أوربا، في تكرار لأسطورة انقلاب صحراء فلسطين إلى جنة على يد المهاجرين اليهود!

وتستمر سلسلة التنميط والدعاية مع وصول السيارة إلى المنطقة الحرة والتقاء (حنة) بالسيدة الفلسطينية (ليلى)؛ الممثلة الفلسطينية المقيمة في فرنسا هيام عباس ، للمطالبة بمستحقات زوجها المالية، حيث يقوم (الإسرائيلي) بصناعة سيارات مصفحة حسب الطلب ليتولى الفلسطيني مهمة بيعها إلى كبار الشخصيات في العراق، وعندما يتساءل المُشاهد عن سبب تولي الزوجتين مهمة تصفية الحسابات المالية، يكتشف أن (الإسرائيلي) تعرّض لهجمة (إرهابية) من الفلسطينيين في أثناء زيارته إلى النجف، أما الثاني فهو منشغل بتورط ابنه الشاب بالانخراط في صفوف الإرهابيين ، وهكذا يُقحم الإرهاب في القصة من كل الاتجاهات، ثم يتصادف وصول السيدات

الثلاث إلى قرية ليلى مع قيام الإرهابيين الفلسطينيين بإحراق قريتهم للاحتجاج على نسيان آبائهم حق العودة، في رسالة مفادها أن القرية التي بناها آباؤهم إثر نزوحهم إلى الأردن تكفي لتوفير كل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة، ولكن التعصب يمنعهم من الاقتناع بهذا الرزق الوفير!

لا يقتصر الاستنكار هنا على ما يتضمنه الفيلم من إساءة وتنميط، بل نتساءل عن مبررات السماح بتصويره على أرض الأردن، مع تعارض رسالته الواضح مع سياسة الدولة في عدم إمكان تحول أي جزء من المملكة إلى وطن بديل للفلسطينيين. مع كل ذلك؛ نجحت الهيئة في استقطاب أفلام أخرى أقل سوءاً من هذا الفيلم، بل كان لبعضها دور جيد في كشف الحقائق بعيداً عن الصور النمطية والدعاية السياسية التي اعتادت عليها هوليود. ومنذ تأسيس الهيئة تم تصوير نحو خمسة أفلام كل عام، ثم حققت قفزة أكبر في عام 2007 مع تصوير عشرة أفلام روائية طويلة في سنة واحدة، وكان من أشهرها فيلم (المعركة إلى حديثة) للمخرج (نيك برومفيلد)، وفيلم (منقح/ Redacted) للمخرج (برايان دي بالما)[121]، الذي ينتقد بشدة الحرب على العراق، ويؤدي فيه الكثير من الممثلين العرب أدواراً رئيسية ومساعدة. وقد أثار هذا الفيلم حملة مقاطعة واسعة في الولايات المتحدة، دفعت دور العرض التي يهيمن عليها أباطرة هوليود إلى تجاهله ومنعه من العرض، مما أدى إلى تكبد منتجه (مارك كوبان) خسائر فادحة حيث لم يُعرض الفيلم إلا في دور العرض التي يملكها عقاباً له على المصداقية[122].

اقتبس المخرج اسم فيلمه من التنقيح الذي تجريه وسائل الإعلام الأمريكية على أخبارها، ويتحدث الفيلم عن القصة الحقيقية للجريمة البشعة التي ارتكبها جنود أمريكيون في مدينة (المحمودية) العراقية، عندما بدؤوا بالتحرش بفتاة مراهقة عراقية في الرابعة عشرة من عمرها في أثناء مداهمة منزل عائلتها عدة مرات بحجة تفتيشه، إلى أن قرروا اقتحام المنزل في وضح النهار واغتصاب الفتاة جماعياً، ثم قتل العائلة كلها وإحراق جثة الفتاة، وكل ذلك أمام عدسة كاميرا الفيديو التي يحملها أحدهم!

أثارت هذه الجريمة الفظيعة، التي حدثت بتاريخ 12/3/2006، غضب المقاومة العراقية، ونجح بعض المقاومين في اختطاف أحد هؤلاء الجنود وقطع رأسه. وقدّم المخرج جميع هذه الأحداث في فيلمه متجاوزاً التقليد الهوليودي المتعارف عليه في تبرئة الجيش والتقاليد الأمريكية من مثل هذه «الأخطاء» التي تقدم على أنها مجرد حالات شاذة لبعض الجنود الذين لا يفلتون من المحاكمة العادلة. ومن بين الأسماء العربية التي ظهرت في الفيلم: زهرة زبيدي في دور الفتاة فرح، سهيل عبد الحسين في دور والد فرح، وسحر علول في دور مراسلة تلفزيونية.

في أواخر عام 2008 عادت هوليود إلى الأردن بعمل ضخم عندما اختارت شركة (دريم وركس) الأمريكية تصوير بعض مشاهد الجزء الثاني من فيلم الحركة (المتحولون/ Transformers) في عدة مواقع أردنية مثل صحراء وادي رم ومدينة البتراء الأثرية ومدينة السلط، وقد عوّل الأردنيون كثيراً على نجاحهم في استقدام فريق العمل للتصوير في الأردن لما سيقدمه لهم من شهرة عالمية.

ويبدو أن هذه الآمال لم تذهب سدى، إذ صُورت معظم مشاهد فيلم (خزانة الألم/ The Hurt Locker) في الصحاري والمدن الأردنية، وشارك نحو سبعين فنياً أردنياً في الطاقم الفني للفيلم إلى جانب نحو مئة وخمسين ممثلاً من (الكومبارس)[123]، وهو من أكثر الأفلام التي تناولت حرب العراق ترويجاً للصورة المثالية للجيش الأمريكي المدافع عن السلام في أنحاء الأرض، ومن

أكثرها تشويهاً للمقاومة المحلية لهذا الاحتلال، كما يقتصر اهتمام الفيلم على آلام الجنود الأمريكيين الذين لم يقطعوا تلك المسافات إلا لتخليص العرب «المتخلفين» من براثن الإرهاب، دون أن يخصص ثانية واحدة لآلام الشعب المحتل الممتدة لسبع سنوات حتى تاريخ عرض الفيلم، طوال مدة الفيلم التي تصل إلى ساعتين، وهو ما فوجئ به حتى الجنود الأمريكيون الذين نقلت وسائل الإعلام الأمريكية استياء بعضهم من عدم واقعيته، واعتراضهم على الصورة الملائكية التي لم يزعموها لأنفسهم.

ينقل الفيلم أحداثاً خيالية لما يتعرض له ثلاثة جنود في إحدى وحدات إبطال القنابل في الجيش الأمريكي في العراق، ويقدم قائدهم صورة طريفة للجندي الذي لا يهاب الموت بعد نجاحه في إبطال أكثر من مئة وثمانين قنبلة، وهو بالطبع إنسان مثالي في جوهره، لديه عائلة تنتظره في أمريكا، ويتعاطف مع الطفل العراقي الذي يحمل اسم (بيكهام) ويبيع الأفلام الإباحية للجنود. أما المقاومة فليست سوى جماعات إرهابية تتقن زرع القنابل في السيارات والشوارع، وحتى في جثث الأطفال بعد قتلهم وفي أجساد الآباء المساكين رغم أنوفهم!

لم يحقق الفيلم نجاحاً تجارياً في شباك التذاكر، وقد لا تكون في ذلك خسارة كبيرة نظراً لتواضع ميزانيته؛ 11 مليون دولار فقط! كما تلقّى الكثير من النقد للتطويل الممل وتكرار الأحداث والإيقاع البطيء، فضلاً عن افتقاره إلى الحبكة المطلوبة في أي قصة سينمائية؛ إذ يبدو أشبه بفيلم وثائقي يهدف إلى تسجيل بعض وقائع الحرب بكاميرا محمولة كثيرة الاهتزاز.

مع هذا كله، حقق الفيلم مفاجأة غير متوقعة بدخوله التاريخ عبر بوابة الأوسكار عندما أحرز ست جوائز دفعة واحدة؛ وأهمها جوائز أفضل فيلم وأفضل مخرج وأفضل نص! علماً بأنه دخل منافسة صعبة مع تسعة أفلام أخرى على جائزة أفضل فيلم بدلاً من خمسة كما كان عليه الحال في السنوات السابقة، وكان من أهم المنافسين فيلم (أفاتار/ Avatar) الذي حقق أعلى الإيرادات في تاريخ السينما على الإطلاق، ولكن قصة هذا الأخير كانت تدافع عن حق المقاومة ضد الاحتلال وتسخر من ثقافة الجيش الأمريكي القائلة: «سنكافح الإرهاب بالإرهاب»، ولعل هذا هو السبب الذي ذهبت لأجله الجائزة إلى (خزانة الألم) ، ثم أضيفت إليها جائزة الإخراج لتصبح المخرجة (كاثرين بيغلو) أول امرأة تفوز بها في تاريخ الأوسكار الذي امتد اثنين وثمانين عاماً.

لم تنس (بيغلو) إهداء جائزتها إلى الجيش الأمريكي، وأن تشكر في الوقت نفسه أصدقاءها في الأردن من منصة حفل الأوسكار، كما شكر (راي بيكت) فريقه الأردني لدى تسلمه جائزة أفضل مكساج صوت. ونقلت وكالة رويترز مشاعر السعادة والاعتزاز التي صرّح بها أعضاء الفريق الأردني المشارك لدى إعلان فوز الفيلم بهذه الجوائز، علماً بأن فريق الفيلم وجّه شكره الخاص -في خاتمة الفيلم- إلى الهيئة الملكية للأفلام وإلى القيادة الأردنية.

من جهة أخرى، تُحسب للأردن دعوته إلى محاربة الصور النمطية في صناعة الأفلام، وهي بادرة طيبة بالقياس إلى الأفلام التي تصور في دول عربية أخرى دون أدنى رقابة، وقد أطلقت لهذا الهدف الملكة نور صندوقاً بقيمة 100 مليون دولار لدعم إنتاج أفلام سينمائية رئيسية تساعد على مكافحة الصور النمطية، ويقدم دعمه على وجه الخصوص للأفلام التي تحقق هذه الأهداف ولكنها لا تحظى بفرصة النجاح التجاري[124]، كما استحقت الملكة رانيا في نهاية العام 2008 جائزة موقع (يوتيوب) العالمية لمحاربة الصور النمطية من خلال صفحتها الخاصة على الموقع.

# الإمارات العربية المتحدة.. الوجهة الجديدة لهوليود

منذ مطلع الألفية الجديدة، تتنافس إمارتا دبي وأبو ظبي على استقطاب المنتجين العالميين لتصوير أفلامهم على أراضيهما، ويتزامن هذا النشاط -وفقاً لبعض المراقبين- مع سعي دبي إلى احتلال مركز العاصمة التجارية في المنطقة، وسعي أبو ظبي لتبوء مركز العاصمة الثقافية في الوقت نفسه.

ومن أهم ملامح النشاط السينمائي في الإمارتين تشجيع المهرجانات السينمائية المختلفة، مثل مهرجان الشرق الأوسط السينمائي في أبو ظبي، ومهرجان دبي السينمائي الدولي الذي يعد الأول عربياً والعاشر عالمياً، ومهرجان الخليج السينمائي ومسابقة أفلام من الإمارات وأوسكار السينما الهندية عام 2006، إلى جانب المسابقات والمهرجانات المتخصصة مثل أفلام البيئة وأفلام مكافحة الإيدز. كما تقدم سلطات الإمارتين الكثير من التسهيلات لشركات الإنتاج الفني والإعلامي لتحويل أنشطتها أو جزء منها إلى أرضهما، وتم بالفعل توقيع الاتفاقيات لإنشاء العديد من المشاريع الضخمة؛ مثل عقد الشراكة الموقَّع مع شركة (باراماونت ستوديوز) لبناء منتزه سينمائي في الإمارات، والعقود المماثلة مع شركة (وارنر بروس) لإنشاء منتزه ومرافق لتصوير الأفلام في أبو ظبي مع تأسيس صندوق لإنتاج الأفلام المشتركة، وكذلك العقد الموقع بين شركة أبو ظبي للإنتاج السينمائي وشركة (إنترناشيونال جيوغرافيك إنترتينمنت) لتأسيس صندوق آخر لإنتاج الأفلام.

كما نجحت الإمارات في جلب فيلمين أمريكيين كبيرين لتصوير عدد كبير من مشاهدهما على أراضيها في السنوات الأخيرة، وهما (سيريانا) و(المملكة)، اللذان سبق الحديث عنهما في فصول سابقة من الكتاب، مع الإشارة إلى ما يتضمنه كل منهما من إساءة إلى العرب والإسلام.

ومن الجدير بالذكر، أن الرقابة في الإمارات احتاجت إلى أربعة شهور لمراجعة فيلم (سيريانا) قبل إجازته[125]، ثم اشترطت حذف عدد من المشاهد مع أن اثنين منها صُورا في دبي، ففي المشهد الأول نرى حراس الحدود الأجلاف وهم يعاملون العمال الآسويين كالعبيد الذين يقفون في طوابير طويلة ويُمنعون من النطق، وعندما يتفوه أحدهم بكلمة ممازحاً أباه ينقض عليه الجنود ويوسعونه ضرباً بالبنادق!.. وقد نتفق مع طلب الأجهزة الرقابية حذف هذه المشاهد، ولكننا نتساءل عن الطريقة التي تمكن فيها صانعو الفيلم من تنفيذها في دبي دون اعتراض!

ونعيد طرح هذه التساؤلات حول فيلم (المملكة) الذي صُورت معظم مشاهده في شوارع أبو ظبي، وبكل ما تحمله تلك المشاهد من صور نمطية مسيئة للإسلام والمنطقة!

# ضريبة هوليود.. من يدفع؟.. ومن يقبض؟

# هوليود.. ترفيه أم سياسة؟

منذ أن ظهرت السينما في نهاية القرن التاسع عشر، ثم التلفزيون في الربع الأول من القرن العشرين، بدأت (الصورة) باحتلال موقع الريادة في التأثير على ثقافة الجماهير بدلاً من (الكلمة المكتوبة) في الكتب والصحف، ومن (الكلمة المسموعة) في الخطب والمذياع. وأخذت أنظار السياسيين ورجال الأعمال تتوجه صوب السينما والتلفزيون لخطورة دورهما في التأثير في الناس. وكانت أكثر المراحل وضوحاً في ظهور نتائج هذا التنافس للسيطرة على السينما والإعلام هي فترة الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، إذ صرح (لينين) آنذاك قائلاً: إن «السينما هي أهم الفنون بالنسبة إلينا»[126]، وهو ما أكده القائد الشيوعي (تروتسكي) في كتابه (الثورة والحياة اليومية) عندما رأى أن «هذه الوسيلة التي بين أيدينا هي أفضل وسيلة للدعاية، سواء كانت هذه الدعاية تقنية، أم ثقافية، أم مناهضة للإدمان على الكحول، أم صحية، أم سياسية. إنها تيسر القيام بدعاية هي في متناول فهم الجميع وجاذبة لاهتمام الجميع، ودعاية تستحوذ على المخيلة»، ولما كانت الشيوعية تسعى إلى إقصاء الدين عن الدولة والحياة فقد دعا (تروتسكي) إلى إحلال السينما محل الكنيسة بعد التخلص منها.

أما الجانب الرأسمالي فكان أكثر خبثاً ودهاء، ففي الوقت الذي لم تخجل فيه الحكومات الاشتراكية والشمولية من السيطرة المكشوفة على السينما والإعلام، تركت الحكومات الرأسمالية الغربية هذا الأمر ظاهرياً لشركات الإنتاج الخاصة ورجال الأعمال، ولكنها لم تكن تسمح في الوقت نفسه بخروجه عن الخط المرسوم له، وهذا ما يؤكده (بيتر جران) في كتابه (ما بعد المركزية الغربية) بقوله: «إن النفوذ الحكومي في المجالات الثقافية ربما كان أكثر تغلغلاً مما يعترف به عادة»، ويضيف: «هناك شكل أخير ومهم للتدخل الحكومي في تنظيم الثقافة جاء من خلال تنظيم الإعلام الجماهيري... وبشكل أكثر عمومية نقول: إن الإعلام الجماهيري وفر للدولة فرصة تعزيز قوالب ذهنية عن الجنس والنوع ليس التعليم على استعداد لتقديمها»[127]، ووصف وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (جورج شولتز) تقنية البث المباشر بأنها «أنجع من أسلحة نووية عديدة لغزو الكتلة الشرقية، وأن شعوب أوربا الشرقية ثارت على الشيوعية لأنها تمكنت من التقاط برامج التلفزيون الغربي والأمريكي»[128]، أما رئيس شركة ( Motion Picture Association of America ) (جاك فالنتي) فيقول بكل وضوح: «إن واشنطن وهوليود تحملان الجينات ( DNA ) نفسها»!

والأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فمع تجنب الحكومة الأمريكية الإنتاج المباشر للأفلام والبرامج كما هو الحال في الدول الاشتراكية، إلا أنها كانت - وما زالت - تقوم بالأمر ذاته عن طريق دعمها للشركات والقنوات التلفزيونية التي تساند سياساتها، ففي أواخر العشرينيات قامت وزارة الدفاع (البنتاغون) بتأسيس مكتب خاص للتنسيق بين هوليود وواشنطن، ومنذ ذلك الحين تقوم (البنتاغون) بدعم العديد من الأفلام السياسية الموجهة، ونذكر منها فيلم (الأجنحة) للمخرج (وليام ويلمان) المنتج سنة 1927، و(السلاح الأقوى) للمخرج (طوني سكوت)، و(باتون) للمخرج (فرانكلين سكافنر) المنتج سنة 1970، و(سقوط الصقر الأسود) للمخرج (ردلي سكوت) المنتج سنة2001.

والأغرب من ذلك هو أن وزارة الدفاع (البنتاغون) تملك سلطة حظر الأفلام التي تمس سياساتها بشكل مباشر وتسيء إلى صورتها، إذ قررت حظر الفيلم الوثائقي (دع ذلك يضيء) للمخرج (جون هيوستن) الذي بدأ بتصويره عام 1946، وتدور أحداثه حول الاضطرابات النفسية التي لاقاها الجنود في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبقي الفيلم ممنوعاً من العرض حتى عام1980[129].

ومن الجدير ذكره أن الدعاية السياسية والثقافية لا توجَّه عادة من خلال البرامج الجادة أو الأفلام الوثائقية أو نشرات الأخبار، بل غالباً ما تُروّج في إطار الترفيه والتسلية، ويؤكد ذلك المخرج الأمريكي (فرانسيس فورد كوبولا) في قوله: «إن أكثر الأفلام سياسة في العالم يمكن أن نجدها لا تحتوي على أي موضوع سياسي»[130]، أما على صعيد التأثير الاجتماعي والفكري فيقول الباحث (ميلفين ديفلير): «يمكن رؤية الاعتماد القوي لوسائل الإعلام على النظام الترفيهي بسهولة أكثر في تعديل القيم والقواعد السلوكية»[131]، ويؤيده المفكر الأمريكي (هربرت شيلر) في كتابه (المتلاعبون بالعقول) عندما يقول: «إن البرامج الترفيهية هي في الواقع أشكال تربوية.. وأشكال توعية إيديولوجية»، كما يفنّد (شيلر) الفكرة التي يروج لها الكثيرون حول خلو الترفيه من أي مضامين فكرية أو سياسية مثل مقولة (الفن للفن) فيقول: «يستفيد جهاز تشكيل الوعي شديد التنوع الذي يستخدم كل الأشكال المألوفة للثقافة الشعبية (الكتب الهزلية، الرسوم المتحركة، الأفلام السينمائية، برامج المذياع والتلفاز، الأحداث الرياضية، الصحف والمجلات) يستفيد لأقصى حد من هذا المفهوم الخاطئ»، أي إن حرص الإعلاميين ومنتجي الأفلام الدائم والمستمر على تكرار مقولة (الفن للفن) وادعاء خلو أعمالهم من أي فكرة أخرى سوى الترفيه والتسلية يؤدي إلى ضعف مقاومة المشاهد والمتلقي مما يجعل مرور الأفكار والاقتناع بها أكثر سهولة!

# لماذا يحلم الجميع بهوليود؟

في ظل نظام العولمة التي نعيشها اليوم تحول العالم حقيقةً إلى ما يشبه القرية الصغيرة التي عرفها الإنسان في القرون الماضية، فالناس يتعارفون فيما بينهم بسهولة، ويتبادلون الأخبار على مدار الساعة، ولا يخفى على أحد منهم شيء مما يجري في أقصى أنحاء هذه القرية. ولا شك في أن تبعات هذا التطور ستجد طريقها إلى مناحي الحياة كافة، فإذا كانت أحلام الناس في الماضي لا تتعدى حدود القرية أو المدينة أو الدولة التي يعيشون فيها، فإن الطموح إلى العالمية اليوم أصبح متاحاً وقابلاً للتحقق.

ولتصنيفِ ما يحققه هذا الطموحُ وتأكيدِهِ وتوثيقه؛ تعارف الناس في هذا العصر على مقاييس عالمية لأقصى حالات النجاح في الكثير من الميادين، فالطلاب الأذكياء يطمحون إلى الدراسة في جامعة هارفرد، والعلماء والأدباء يحلمون بجائزة نوبل، والمخترعون يفضلون تسجيل براءات اختراعهم في مكاتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة واليابان، والصحفيون والكتاب يسعون إلى نشر مقالاتهم في التايمز واللوموند، ولاعبو كرة القدم يبذلون كل ما بوسعهم للاحتراف في الدوري الإسباني أو الإنجليزي أو الألماني، أما بقية الرياضيين فيطمحون إلى الميداليات الذهبية في مسابقات الأولمبياد، في حين يتنافس السينمائيون على اقتحام هوليود أو الفوز بجائزة الأوسكار.

ومع عالمية هذه المقاييس وتربعها على القمة، إلا أنها جميعاً ومن دون استثناء محدودة في إطار من يشرف عليها أو يمولها، فهي إذن محلية، بل مركزية، في القرار والاختيار والتوجه، وعالمية في الانتشار والشهرة والتلقي!

لذا فإن هوليود كانت ولا تزال عاصمة لصناعة السينما العالمية من حيث قدرتها على تصدير منتجاتها إلى العالم كله، ولكنها كانت وستبقى أمريكية -صهيونية في سياستها وتوجهاتها، رأسمالية- براجماتية في إدارتها وتمويلها، ليبرالية- غربية في روحها، إنجليزية في لغتها، أنجلوسكسونية في ثقافتها وانتمائها. وهذه الهوية الواضحة لهوليود يفترض أن تكون معروفة لكل من يحاول الوصول إليها والانخراط في عالمها، حتى في حال الرغبة في التمرد عليها والسير في عكس التيار، وأعتقد أن جميع العرب والمسلمين الذين جربوا الدخول إلى هوليود والنجاح فيها قد كانوا على علم بهذه الحقيقة، سواء أولئك الذين لم يمانعوا من الانخراط في عالمها، أو الذين كانت لديهم بارقة أمل بالبقاء فيها مع الوقوف في أماكنهم أو السير في الاتجاه المعاكس.

# كيف أثرت هوليود في حياة الشعوب والأقليات العربية والإسلامية ومصيرها؟

تعرضنا في الفصول السابقة إلى بعض التجارب الناجحة للممثلين والكتاب والمخرجين والمنتجين من العرب والمسلمين العاملين في هوليود، ونقلنا مبررات البعض وحججهم للانخراط في عالم هوليود الذي لم تعد حقيقته تخفى على أحد. فالبعض أبدى تحفظاً وأعلن يقظته وحرصه على عدم المجازفة، والبعض الآخر اعترف صراحة بأن المال هو غايته الوحيدة، في حين رأى آخرون أن الوصول إلى هوليود هو بحد ذاته هدف يستحق العناء ودفع الضريبة، وتهرّب الكثيرون من تهم الإساءة بأنهم يمثلون الواقع كما هو، فالعالم لا يخلو من الإرهابيين المسلمين وخاطفي الطائرات الملتحين وقاطعات الأصابع المحجبات، ورأى آخرون أن المشكلة هي فقط في سطحية هذه الأدوار، وأن الحل يكمن في منحهم الوقت الكافي للظهور على الشاشة والكلام، في حين لم يجد البعض مشكلة في هذه ولا تلك، بل استاؤوا فقط من تنميطهم كممثلين في أدوار مكررة، ووعدوا بأن يبذلوا جهداً في الخروج منها لتبقى صورتهم أكثر تجدداً!

ويبقى هناك فريق آخر يناقش الأمر من زاوية أخرى، فعندما صنع الأتراك فيلم (وادي الذئاب) للانتقام لكرامتهم التي أهانها الأمريكيون في العراق وقعوا هم أيضاً في خطأ التعميم نفسه؛ عندما أظهروا الأمريكيين كلهم على أنهم أشرار ومن دون استثناء، وهذا ما يفعله الأمريكيون بالضبط عندما يتعرضون للعنف من قبل العرب والمسلمين، بل هذا ما تفعله السينما العربية أيضاً في الكثير من أفلامها التي تتناول القضايا ذات العلاقة بالولايات المتحدة و(إسرائيل)، باستثناء الأعمال التي تقترب من التطبيع تحت عنوان الحوار، وبطريقة ساذجة!

وبمثل هذه الحجج، يتسابق بعض العرب والمسلمين إلى نيل رضا أصحاب النفوذ في هوليود، ويقصُرون مجال اهتمامهم على ما يحققه لهم ذلك من الشهرة والثروة، محاولين تجنب حقيقة انخراطهم في مَكِنة هوليود التي تسعى هي أيضاً لتحقيق غايتها حتى لو اضطر الأمر إلى سحقهم، متناسين في الوقت ذاته أن تجاهل هذه الحقيقة يعني بالضرورة موافقتهم غير المعلنة على تسخيرهم لتحقيق سياسات واشنطن و(إسرائيل) على مرأى ومسمع العالم كله، إذ لم يعد سراً تلقي هوليود دعماً مباشراً من المؤسسة العسكرية والأمنية الأمريكية لصناعة الأفلام التي تمهد للحرب على العرب والمسلمين، وهو ما يؤكده البروفسور (جاك شاهين) في حديثه عن الدور الذي أدته وزارة الدفاع وبعض أجزائها مثل الجيش والمارينز والحرس الوطني بتقديمها مساعدات تقنية لتلك الفئة من الأفلام مثل (أكاذيب حقيقية/ True Lies) عام 1994، و (قرار تنفيذي/ Executive Decision) عام 1996، و (ضربة الحرية/ Freedom Strike) عام 1998، أما فيلم (الحصار/ The Siege) الذي أنتج سنة 1998 فحظي بدعم وكالة المباحث الفيدرالية (FBI) في نيويورك، وقد كرست مثل هذه الأفلام الصورة الشيطانية لشعوب بأكملها، وسهلت على المشاهد الغربي تقبل ما يجري من احتلال أرضهم وتهجيرهم وقتلهم منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم.

ولفهم آلية العمل التي تتبعها هوليود، نعود إلى لقاء أجرته قناة الجزيرة مع شاهين يقول فيه: «إن صورة العربي السيئ معنا منذ أكثر من مئة سنة، الروسي السيئ بقي معنا لمدة عشرين سنة واليهودي الشرير لم يظهر في السينما أبداً، ظهر فقط في السينما النازية، ورأينا ما حدث نتيجة لذلك وهذا ما يحدث عندما تصوّر شعباً ما بأنه شرير لمدة مئة عام أو أكثر، رأينا كلنا إلى أين يقود ذلك». ثم يتابع الحديث قياساً إلى ما حصل لليهود في ألمانيا النازية، فبعد أن تشبع الشعب الألماني بالدعاية العنصرية ضدهم أصبح من المقبول لديهم إبادة اليهود ومحوهم من الوجود، وعندما أمطرت هوليود عقول الشعب الأمريكي بالأفلام والمسلسلات حتى برامج الأطفال المحقرة لليابانيين إلى درجة الشيطنة، أصبح من المقبول أيضاً إلقاء قنبلتين ذريتين على مدن يابانية تضج بالحياة. والأمر نفسه كان قد حدث مع السود في الولايات المتحدة قبل توحيدها عندما نُزعت عن العبيد الأفارقة صفة الإنسانية، حتى أصبح من السهل على الناس تقبل شنقهم دون أي عبء أخلاقي.

ويرى شاهين أن هذا ما حدث بالضبط على مدى مئة سنة بخصوص صورة العرب، فعندما أعلنت أمريكا الحرب على العراق سنة 2003 لم يحتجّ الشعب الأمريكي على الحرب ضد الشعب العراقي؛ لأنهم «لم يعرفوا العرب كشعب عادي.. بشراً كباقي البشر فيهم الممرضة والطبيب»[132]، بل هم شعب متخلف وعنيف تحكمه عصابات من شيوخ النفط.

لذا لا نستبعد أن الكثير من المتظاهرين الذين جابوا شوارع أمريكا وبقية الدول المتحالفة معها لم يخرجوا للدفاع عن الدم العراقي، بل خوفاً على أولادهم المجندين الذين أرسلوا للقتال في حرب غير عادلة، إذ كانت أكثر شعارات الاحتجاج التي رفعوها شيوعاً تقول: «لا للدم مقابل النفط»، فالخوف إذن على دماء أبنائهم وليس على دماء المليون ونصف المليون ضحية الذين قتلوا منذ بداية تلك الحرب على أرضهم!

علاوة على ذلك، فإن سهام العنصرية الهوليودية لا تصيب فقط الشعوب (الشرق أوسطية) التي تعيش بعيداً في الصحراء، بل يتأذى منها كل المهاجرين العرب والمسلمين في الدول الغربية، فعندما يرى المشاهد الأمريكي في فيلم (الحصار) إرهابياً مسلماً يتوضأ قبل تنفيذ جريمته ضد الأبرياء في نيويورك، سيربط في عقله الباطن بين الوضوء والإرهاب، وستقفز إلى ذهنه تلك الصورة البشعة كلما رأى زميلاً له يتوضأ في مقر العمل أو الجامعة!

لذا احتج مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (كير) على هذا الفيلم قبل عرضه، ولكن صنّاع الفيلم لم يوافقوا على تغيير أي شيء من مشاهده! كما لم تفلح اعتراضات (كير) في الحد من الإساءة والتنميط للمسلمين داخل الولايات المتحدة في مسلسل (24)، ففي الموسم الرابع الذي عرض سنة 2005 يقوم إرهابيون عرب بتفجير قطار واختطاف وزير الدفاع الأمريكي، ثم يسيطرون على عدة مفاعلات نووية أمريكية ويحاولون قتل الرئيس الأمريكي نفسه، وقد صرحت (ربيعة أحمد) المتحدثة باسم (كير) لتلفزيون (CNN) بأن طريقة تصوير المسلمين في هذا المسلسل تزرع في النفوس الخوف والكراهية، وأنها بدأت بالشعور بالخوف من الذهاب إلى المتجر بعد مشاهدته، لعدم وثوقها من قدرة الناس على التفريق بين الخيال والحقيقة.

ويُذكر أن شركة (فوكس) حاولت بعد هذا الاعتراض تخفيف حدة الاستياء العربي والإسلامي فعرضت إعلاناً يظهر فيه الممثل (كيفر ساذرلاند) -الذي يؤدي دور المحقق جاك- ويحث

المشاهدين على الأخذ بعين الاعتبار أن الأشرار في البرنامج لا يمثلون جميع المسلمين[133].

وفي العام التالي، تنفس المسلمون الأمريكيون الصعداء عندما ظهر الإرهابيون في الموسم الخامس من المسلسل على أنهم روس، ولكن الإرهابيين المسلمين عادوا إلى الواجهة مرة أخرى في الموسم السادس عام 2007. وللمزيد من الإساءة؛ أعطى مؤلف القصة للإرهابيين هذه المرة فرصة النجاح في تفجير قنبلة نووية داخل لوس أنجلوس، مما زاد من درجة الرعب لدى المشاهدين إلى أقصى الحدود، وهو أمر لم يكن معهوداً في المواسم السابقة عندما كان البطل الأمريكي ينجح في تعطيل تلك العمليات قبل تنفيذها.

علاوة على ذلك، وصلت آثار هذه الإساءة إلى العنف المطبق ضد المعتقلين المسلمين على أرض الواقع، حيث أكدت الأكاديمية العسكرية الأمريكية في (ويست بوينت) عام 2007 أن الجنرال (باتريك فينغان) التقى بمنتجي مسلسل (24) الذي تعرضه قناة فوكس، مطالباً إياهم بتخفيف أساليب العنف والتعذيب التي يظهرها المسلسل؛ «لأن الجنود الأمريكيين في العراق يقلدونها». إذ اعتاد مخرج المسلسل في مواسمه السنوية المتتالية على عرض لقطات للمحقق (جاك باور) وهو يقوم مع زملائه بتعذيب المشتبهين في الإرهاب، ووصلت هذه الأساليب الوحشية في بعض المشاهد إلى درجة إطلاق النار على ساق أحد المعتقلين أو بتر أصابع يديه لإجباره على الاعتراف، كما يقوم هذا المحقق في مشاهد أخرى بانتزاع المعلومات من أشخاص يسميهم المسلسل بالأشرار مستخدماً أكياساً بلاستيكية تمنعهم من التنفس، ثم حقنهم بعقاقير تسبب الألم، وكل هذا يجري حسب رؤية المسلسل في معتقلات على أرض الولايات المتحدة!

أما نتائج هذه الأعمال فقد صرّح بها المحقق الأمريكي (توني لاغورانيس) الذي عمل مع الجيش الأمريكي في سجن أبو غريب في العراق قائلاً: «كانت لدينا قواعد تحقيق بلا قيود تقول بصفة أساسية: إن من حقنا أن نفعل ما نشاء. ومن ثم فإنه مع غياب أي تدريب، ولأننا لم نتدرب على أساليب التعذيب، فقد لجأنا إلى ما شاهدناه على شاشات التلفزيون»[134].

أمام هذه الحقائق، تصبح أعذار هوليود أقرب إلى الاستخفاف بعقولنا عندما تصر على عدم مسؤوليتها عما يجري على أرض الواقع، ففي بيان نشرته شركة (فوكس) المنتجة لهذا المسلسل سنة 2007 قالت إنها لم تكشف حتى الآن عن أي جماعة عرقية أو طائفية، يقع عليها اللوم في خلق شخصيات وأدوار المسلسل. وأضاف البيان: «مسلسل (24) هو دراما عن مكافحة الإرهاب، وبعد خمسة مواسم، فإن الجمهور واعٍ لذلك، ويعرف أن أي فرد أو عائلة أو جماعة (عرقية أو غيره) متورطة في العنف، لم يقصد منها أن تكون نموذجية»[135].

وإذا كان الأمر كذلك، فيحق لنا إذن أن نتساءل: لماذا يصر هؤلاء على حصر عصابات الإرهابيين في تلك الجماعات العرقية؟ ولماذا يحظى المسلمون والعرب بالحظ الأوفر من الظهور بمظهر الإرهابيين من بين جميع الجماعات والأقليات الأخرى؟

وقبل أن نرهق أنفسنا في البحث عن الإجابة، نورد إحصائية حديثة للبوليس الدولي الأوربي؛ مفادها أن دول الاتحاد الأوربي قد شهدت في عام 2006 (498) هجوماً إرهابياً، وهي موزعة كما يلي: 424 هجمة منها قامت بها الجماعات الانفصالية، 55 هجمة قام بها متطرفون يساريون، 18 هجمة من مختلف الإرهابيين، أما الإسلاميون فلم يقوموا إلا بهجمة واحدة[136]!

أما الادعاء الساذج بأن (الجمهور واع) لعدم تورط أي جماعة عرقية أو دينية في الإرهاب فهو تكذيب للواقع الذي لا يختلف عليه اثنان، ويؤكد ذلك (جاك شاهين) عندما يقول: «إن مئات جرائم الكراهية التي ارتكبت ضد الأمريكيين العرب والمسلمين في الولايات المتحدة بعد الهجمات، أي أيلول/سبتمبر 2001، أكدت أهمية محاربة الصور النمطية... وعندما تشوه شعباً، فإن رجالاً ونساء وأطفالاً أبرياء يعانون، والتاريخ علمنا ولا يزال يعلمنا هذا الدرس»[137]، فالارتكاز إلى مزاعم (وعي الجمهور) ليس إلا تسويغاً غير محسوب، إذ استنتج المفكر الأمريكي (ويلسون براين كي) من دراسته لوسائل الإعلام الأمريكية أن «الناس قاموا بخلق ذلك الوهم حول قدرتهم على السيطرة على بيئتهم، وقد جعلتهم هذه الأوهام أكثر عرضة للتأثيرات التي تتعلق باللاوعي والعقل الباطن»، ويسخر هذا الكاتب من المقولة الشائعة: «ليس من الممكن أن نُستغل بأشياء لا نستطيع إدراكها»[138]. فالواقع يشير بوضوح إلى انغماس الشعوب الغربية والمتحضرة أكثر من غيرها في حمى الاستهلاك مع أن مستوى الوعي مرتفع لديها، حيث تُدار وسائل الإعلام والدعاية من قبل متخصصين أكفاء في علم النفس والبيولوجيا لتحديد الطرائق المثلى للتأثير في السلوك اللاواعي مهما كان العقل الواعي متنبهاً وحذراً، وإذا كان هذا يتم لحساب التشجيع على الشراء الاستهلاكي فمن الأجدر توظيفه لأهداف سياسية لا تخفى على أحد.

والمؤسف في كل ذلك ألا يكتفي الكثير من العرب والمسلمين الذين حققوا أحلامهم في هوليود بالتقصير عن أداء واجبهم في مقاومة هذه المؤامرة، أو حتى بالصمت والتنحي جانباً، بل بذلوا كل ما بوسعهم لإنجاحها، وربما عن حسن نية، ثم عدّوا ذلك نجاحاً باهراً لهم وللشعوب التي أساؤوا إليها، ولم يعدموا الوسيلة التي تمجدهم بين تلك الشعوب وتستقبلهم بأكاليل الزهور كالأبطال!

## هل أخفقت تجربتنا في هوليود؟

مع بداية انفتاح هوليود الجديد على الممثلين العرب استبشر الكثير من الصحفيين والمثقفين والنقاد خيراً، وبدا للوهلة الأولى أن مشاركة العرب في أفلام تتعرض لقضاياهم ستؤدي حتماً إلى تلطيف مواقف هوليود قليلاً وبالتدريج، ولكن تصريحات بعض هؤلاء الممثلين أنفسهم ومواقفهم لا تعِد بالكثير. ففي حلقة خاصة حول هذه التجربة من برنامج (نقطة تحول) على قناة (mbc) صرّح الفنان غسان مسعود ، بعد مشاركته في (مملكة السماء) و(قراصنة الكاريبي)، بأن الإنسان يظل مسحوراً بما لا يعرف إلى أن يدخله ويعيش أجواءه فيكتشف أنه مجرد فقاعة فارغة، وأكد مسعود على أنه كان مشغولاً بالضريبة التي كان عليه أن يدفعها مقابل العالمية. ولعل هذا ما يبرر رفضه المشاركة في أفلام مهمة مثل: (سيريانا)، (جسد الأكاذيب) و(الشيطان المزدوج)، وهو موقف يستحق الكثير من التقدير.

الفنان المغربي محمد مفتاح أكد في الحلقة نفسها أن تجربته العربية هي الأهم، وصرّح بأن السينما العالمية تقع تحت سيطرة الصهيونية وتعمل ضد المسلمين، مستشهداً بتجربته غير المُرضية عندما لم يُذكر اسمه في الفيلم الأمريكي (الشيء المستحيل) (1976) الذي صُور في المغرب، وهو ما تكرر مرة أخرى عندما أدى دوراً رئيساً في فيلم (المقنّع) وأصر المنتج اليهودي على تجاهل اسمه (محمد)! لذا فإن المكسب الوحيد من هوليود في رأيه هو المال وليس المجد أو الشهرة.

الفنان المصري خالد نبوي لم يكن بعيداً أيضاً عن هذه الرؤية، إذ أكد في الحلقة نفسها أنه لم يسعَ خلف هوليود، وأن تجربته العربية ستظل هي الأهم، مشيراً إلى رفضه أداء دور شبيه عدي صدام حسين في (الشيطان المزدوج) لما يتضمنه الفيلم من إساءة[139].

هل نحن إذن أمام هجرة عكسية من هوليود؟ وهل سيبقى فيها فقط أولئك الذين اعتادوا الظهور في أدوار نمطية مسيئة في الوقت الذي ينسحب فيه من يخشى دفع الضريبة؟ هذا ما ننتظر جوابه في السنوات القليلة المقبلة!

## ماذا قدمنا لأنفسنا؟

يقول الكاتب والممثل الأمريكي الأسود المسلم (ج. د. هول/ J.D. Hall) : «في الوقت الذي كان فيه الكتاب والمخرجون الأمريكيون من أصل إفريقي يحققون نجاحاً متواضعاً في هوليود، كان العرب والمسلمون الأمريكيون ما يزالون واقفين في آخر الصف، فنحن لا نملك أي قوة سياسية في هذا البلد، ولا نملك أي قوة لصنع القرار في وسط الإعلام وصناعة الأفلام، لذا فإننا عاجزون عن التحكم في صورتنا التي يراها الآخرون»[140]، وهذه الكلمات الصادقة من رجل يعمل وسط هوليود تضعنا أمام التساؤل الحقيقي: ماذا قدمنا نحن لأنفسنا؟ ولماذا ننتظر الإنصاف من الآخر الذي وضع نفسه في موضع العدو؟!

وفي البحث عن إجابة، نبدأ برأي البروفسور (جاك شاهين) الذي يرى أن جانباً من المشكلة يأتي من كون الاستوديوهات الكبرى التي تعرضت لضغوط على مدى السنين لتتوقف عن تقديم صور سلبية للمرأة والسود والأقليات الأخرى قد واجهت انتقادات قليلة لتقديمها صوراً سلبية عن العرب.

وهو ما يؤكده الناقد السينمائي بمجلة تايم الأمريكية (ريتشارد شيكل) في قوله: «تحولت هوليود إلى العرب ليلعبوا دور الشرير في الأفلام بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة بشكل خاص»، ويضيف: «في البداية لم تكن للعرب منظمات مماثلة لعصبة مناهضة التشهير لكي تثور وتحتج عندما تقدم هذه الصور النمطية»[141].

ونقترب أكثر مع تعليق (شاهين) في لقاء آخر يقول فيه: «إنهم لا يستهدفون أي مجموعة أخرى لأن كل مجموعة يمكن أن تحتج وتثور، لماذا لا يوجد إلا أنا أكاديمي واحد في بلد ضخم مثل أمريكا يهتم بهذا الأمر؟ أنا الوحيد الذي يتابع هذه القضية ويكتب عنها ونحن لا ندرسها في الجامعة ولا في مراكز الأبحاث، أنت تعرف أنني لم أستلم يوماً رسالة من أي عربي تقول شكراً أستاذ شاهين لأنك تقوم بهذا العمل، وكتبت هذا الكتاب، [ويقصد كتاب (العرب الأشرار)]. ولهذا فإن كان العرب أنفسهم لا يهتمون وإذا أرادوا فقط أن يجلسوا ويشربوا القهوة ويأكلوا الكنافة فإن جزءاً من المشكلة يقع عندهم، والعرب لا يأخذون هذه المشكلة على محمل الجد»[142].

إنه صمت عجيب حقاً، وهو أشبه بمؤامرة أخرى يتعاون فيها الجميع على الصمت والتجاهل، تماماً كما يتعاون أقطاب هوليود على الإساءة إلى العرب والمسلمين منذ أكثر من قرن دون رادع من أحد، فقد استعرضنا في هذا الكتاب عشرات الأسماء العربية والمسلمة التي تمكنت من تحقيق بعض النجاحات في هوليود، ولكننا لا نكاد نسمع عن تحرك يذكر لمصلحة صورة العرب والمسلمين في الإعلام والسينما في الغرب والعالم كله، باستثناء المحاولات اليتيمة التي تقوم بها منظمة (كير)، وبروفسور متقاعد اسمه (جاك شاهين)!

## بوادر أمل..

مع هذه الصورة السيئة التي يلفها الظلام لواقع العرب والمسلمين في هوليود، فإن بوادر أمل جديد بدأت بالظهور في السنوات الأخيرة لا بد من ذكرها للإنصاف، بدءاً من تأسيس مكتب تابع لمجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (كير) في لوس أنجلوس بالقرب من هوليود، بهدف متابعةِ ما تنتجه من أفلام ذات علاقة بالمسلمين، ودعوة صناع الأفلام لأخذ استشارتها في النصوص والمشاهد قبل عرضها.

وبعد تزايد اهتمام هوليود بالإسلام إثر هجمات أيلول/سبتمبر، كثفت هذه المنظمة، التي تعد الممثل الرئيسي للمسلمين في الولايات المتحدة، زياراتها للاستوديوهات والشركات الإعلامية في هوليود وغيرها، وحسب تصريح مديرها ( حسام آيلوش ) فإن هذه الزيارات تهدف أولاً إلى تصحيح صورة الإسلام والمسلمين لدى العاملين في المجالين الإعلامي والسينمائي، وتقديم الخدمات الاستشارية لكل من يحتاج إليها، إضافة إلى تشجيع جيل المسلمين الجديد على الدخول في هذا المجالات وفتح الفرص أمامهم للمشاركة بوصفهم مواطنين أمريكيين يتمتعون بجميع حقوق المواطنة[143].

كما بدأت بعض شركات الإنتاج بالفعل بتعيين جهات عربية وإسلامية مستشارين في أعمالها قبل العرض، إذ تم اعتماد (كير) رقيباً استشارياً في بعض الأفلام مثل (أمير مصر/ Prince of Egypt ) الذي أنتج عام 1998[144]، كما عمل (جاك شاهين) مستشاراً لفيلم (الملوك الثلاثة) الذي أنتج عام 2005 ويتحدث عن حرب الخليج الثانية، وكان قد سبق تعيينه مستشاراً لشركة (وارنر بروس) بعد أن احتجت عدة جماعات عربية أمريكية ومنظمات إسلامية على فيلم (قرار تنفيذي) الذي أنتجته الشركة عام1996[145]. وفي عام 2007 أرسلت استوديوهات (يونيفيرسال) نص السيناريو الخاص بفيلم (المملكة) إلى السعودي (أحمد الإبراهيم) لمراجعته، ثم قرر المخرج تعيينه مستشاراً له في الفيلم بعد أن قدم الإبراهيم الكثير من الملاحظات على النص، وحسب تصريح هذا الأخير فقد كان له دور في تغيير 90% من مشاهد الفيلم[146].

يضاف إلى ما سبق نجاح منظمة (كير) في لفت الأنظار إلى خطورة الأفلام المسيئة إلى المسلمين مع تنظيمها مظاهرة احتجاجية سلمية أمام عدد من دور العرض في أمريكا في أثناء عرضها لفيلم (الحصار) عام 1998، وكانت هذه إحدى مؤشرات ظهور قوة ضغط جديدة في المجتمع الأمريكي.

ومن أهم الإنجازات التي حققتها ضغوط (كير) في هوليود نجاحها بعد عامين من الاتصالات مع شركة (بارامونت) في تعديل أحداث الفيلم الأمريكي (مجموع كل المخاوف/ Sum of All Fears) الذي بدأ تصوير مشاهده في مطلع عام 2001، أي قبل أحداث أيلول/سبتمبر بعدة شهور، حيث يستعيد الفيلم قصة الهجوم الإرهابي على نهائي بطولة كرة القدم الأمريكية (السوبر بول) كما حدث من قبل في فيلم ( الأحد الأسود )، ولكن القصة هنا يتم تضخيمها مع محاولة الإرهابيين هذه المرة تدمير سلاح نووي (إسرائيلي) عثروا عليه سليماً في مرتفعات الجولان! وقد نجحت جهود (كير) في إقناع الشركة المنتجة ومخرج الفيلم (إلدن روبنسون) بتعديل أحداث الفيلم

نظراً لما يتضمنه من إساءة إلى صورة المسلمين داخل أمريكا وخارجها، فقامت الشركة بالفعل بتحويل هوية العصابة الإرهابية إلى النازية الجديدة ، وأرسل المخرج (روبنسون) إلى (كير) خطاباً يقول فيه: «أتمنى أن تتأكدوا أنه ليست لدي أية نية لترويج صور سلبية عن المسلمين والعرب، وأني أتمنى لكم الأفضل في سعيكم المتواصل لمحاربة التمييز العنصري»[147].

خبر متفائل آخر نقلته وسائل الإعلام نهاية عام 2008 مع تأسيس (مركز معلومات المسلمين على الشاشة) في كاليفورنيا، والذي يهدف حسب تصريح أحد مؤسسيه؛ المنتج (مايكل وولف)، إلى: «مساعدة المنتجين والمخرجين للوصول إلى الحقائق عن المسلمين بدلاً من اللجوء إلى الصور النمطية التي رسمت شكل المسلمين في السينما الأمريكية»[148]، ويضم المركز عدداً من المخرجين والمنتجين الكبار في هوليود من أمثال (هوارد جوردون) منتج مسلسل (24) و(جيم برك)، ومن المفاجئ أن فكرة تأسيس المركز لم تأت من جماعات الضغط الإسلامية، بل تعود إلى مجموعة من العاملين في مجال الإنتاج السينمائي في هوليود، وهي مبادرة طيبة بالفعل، ولكن التحقق من صحة نياتها وجدواها الفعلية يحتاج إلى بعض الوقت.

## هل ستتغير صورة العرب والمسلمين في هوليود؟

تتفاوت الآراء عند الإجابة عن هذا السؤال بين قطبي التفاؤل والتشاؤم، ولعل الرأي الأكثر شيوعاً يميل إلى أن صورة العرب والمسلمين في العقلية الغربية عموماً هي اليوم أسوأ من أي وقت مضى، فمع كل ما قيل عن تفاؤل المسلمين في تغير هذه الصورة بعد تزايد الاهتمام للتعرف على الإسلام وأهله في السنوات الأخيرة، إلا أن جهود هوليود والإمبراطوريات الإعلامية الغربية في تكريس المزيد من الكراهية هي التي نجحت وآتت ثمارها، وما زالت مصادر المعلومات الأولى حول الإسلام والعرب هي تلك الواقعة تحت تصرف الصهيونية والمتعاطفين معها.

ويستدل المؤيدون لهذا الرأي بتزايد أعداء المسلمين في السنوات الأخيرة، إذ تحولت بعض الأفكار العنصرية لدى مجموعات لم تكن على علاقة بالمسلمين والعرب لتصب جام غضبها على هؤلاء الأعداء الجدد، فالدعاية المسيئة التي تتكرر كل يوم على مرأى العالم كله ومسمعه قد دفعت بعض النازيين الجدد في أوربا وأمريكا إلى تأخير حربهم على اليهود والسود والغجر وإحلال العرب والمسلمين مكانهم. وفي الوقت الذي يحتاج فيه المسلمون والعرب إلى المزيد من التأييد الدولي لقضاياهم؛ نجد أن الدعاية المسيئة إلى المسلمين تنتقل من الغرب إلى شعوب أخرى في أمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا، حتى تكاد كلمة الإرهاب تصبح مرادفاً للإسلام نفسه على صعيد العالم كله، وهو الذي نؤمن بأنه دين جميع الأنبياء!

مع هذه المؤشرات المؤلمة، يرى فريق آخر أن ثمة مؤشرات أخرى تدل على تغيرٍ ما في عنصرية هوليود، أو لنقل: في طريقة تعبيرها عن الكراهية على الأقل، إذ لم يعد مقبولاً اليوم إنتاج فيلم مثل (أكاذيب حقيقية) والذي كان من أقوى الأفلام سنة 1994، ولن تجرؤ سياسة التحقير على كيل الشتائم في حق الشعوب على إطلاقه ودون فتح نافذة أخرى لتفهم الطرف الآخر حتى إن لم يزد ذلك على ابتكار شريحة (المسلمين الأخيار) على الأقل، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى انفتاح الشعوب بعضها على بعض في ظل العولمة وثورة الاتصالات، وإلى التوسع في مشاركة الممثلين والفنيين من العرب والمسلمين في معظم الأفلام التي تتعرض لقضاياهم فضلاً عن تصويرها في بلادهم، إذ لا بد أن يؤدي هذا الاحتكاك إلى تقريب وجهات النظر[149]، كما يرتقي الانفتاح بالذوق العام للمشاهد الغربي الذي لن يستسيغ تسطيح (الحرب على الإرهاب) بالطريقة الفجة التي درجت عليها العادة ما لم تُقدم على الأقل في إطار كوميدي ساخر كما في فيلمي ( ترنيمة أميركية ) و(لا تعبث مع زوهان) المنتجَين عام 2008[150].

ويؤكد هذا التوجه إنتاجُ العديد من الأفلام الناجحة تجارياً وفنياً بعد هجمات أيلول/سبتمبر، مع أنها تنتقد بصراحة بعض ملامح التقصير لدى السياسيين الأمريكيين كما في (سيريانا)، (المنطقة الخضراء)، (التسليم) و(جسد من الأكاذيب)، كما انتقدت هوليود في فيلم (واجب وطني) (2006) الدعاية المفرطة (البروباغندا) التي تنتهجها بعض وسائل الإعلام الأمريكية لتعبئة الرأي العام ضد المسلمين، وإلى درجة إصابة أحد الأمريكيين العاطلين عن العمل بارتياب مرَضي تجاه جاره الطالب المسلم؛ الممثل المصري خالد أبو النجا ، ثم اختطافه وتعذيبه للاعتراف بجرم لم يرتكبه،

لتظهر براءته فيما بعد. علماً بأن جميع هذه الأفلام قد أنتجت خلال سنوات (الحرب على الإرهاب)، مع أن العادة جرت في هوليود على عدم معالجة أي حرب قبل انتهائها[151].

وقد تخدم هذه المؤشرات فئة أخرى من المثقفين في الشرق والغرب ما زالت تحلم بغد أفضل، فهم ينطلقون غالباً من اتساع أفق نظرتهم إلى الإنسان ذاته بوصفه ظاهرة مما يدفعهم للإيمان المطلق بالهوية الكونية، والتي يجزم الكثيرون منهم بأنها ستحل يوماً محل النزعات العرقية والمذهبية التي تفصل بين الشعوب وتؤجج نار الحروب. يقول الناقد الألماني من أصل إيراني (أمين فرزانيفار): «بالرغم من كل النفور من تحيز سينما هوليود، فهناك عنصر مطمئن وهو أن السينما الهوليودية ليست جادة ولا تحمل فقط على العرب. فأفلام الكاوبوي مثلت كثيراً وأساءت للهنود الحمر وجعلت الأفارقة تجار مخدرات، ومثلما جعلت العرب يظهرون كإرهابيين، فقد جعلت النساء المكسيكيات خادمات أو عاهرات في الأفلام، كما حكمت على الإيطاليين بأنهم جميعاً ينتمون لعصابات المافيا»[152]. وقد يكون ما قاله صحيحاً حول إشراك هوليود أعراقاً أخرى مع العرب في حقدها البغيض، ولكن الفارق هنا لا يقتصر على طول مدة هذا الحقد تجاه العرب والمسلمين دون غيرهم، والتي تتطابق مع عمر السينما كله، كما لا يقتصر أيضاً على تخصيص المسلمين بكم هائل من الصور النمطية التي تستوعب جميع الصفات التي تنفر منها النفس البشرية، ولا على تربع المسلمين على رأس قائمة منتجات هوليود المسيئة كماً وكيفاً، فالأمر يتصل مباشرة بالصراع القائم بين الغرب والشرق الإسلامي، ببعديه السياسي والديني، وهو صراع ثقافي لا يصح أن تقاس عليه تلك النظرة العنصرية تجاه الهنود الحمر والمكسيكيين والإيطاليين، ولا حتى تجاه الروس واليابانيين والسود الأفارقة.

وفي المنحى ذاته، ينتقد البروفسور (جاك شاهين) التعاون القائم بين المؤسستين العسكرية والأمنية الأمريكيتين وصنّاع الأفلام في هوليود، ولا نرى في نقده لهذا التعاون ما هو أبعد من الاستياء من العنصرية التي تتناقض في رأيه مع القيم الأمريكية، لذا يبدو متفائلاً جداً بالمستقبل، ومؤمناً بأن الجيل القادم من المنتجين والمخرجين الشباب سيدرك يوماً ما أن تحقير الشعوب أمر خاطئ وأنهم سيقلعون عنه حتماً، فهي مسألة وقت لا أكثر!

إلا أن القضية تتجاوز العنصرية، كما يرد الدكتور إبراهيم علوش، وتعود إلى تعصب أمريكي شوفيني يهدف إلى تعبئة الرأي العام الأمريكي والعالمي، وحتى العربي، في الحرب على الإرهاب[153]، بل إن تهمة العنصرية هذه لم تعد تقلق هوليود لقدرتها على نفيها، وذلك إما بإعلان صغير يظهر فيه البطل على الشاشة ليذكّر المشاهدين بأن الإرهابيين الذين يقاتلهم لا يمثلون جميع المسلمين كما فعلت قناة وشركة (فوكس)، أو بإظهار وجه آخر للعربي المسلم، وهو يتعاون مع البطل الأمريكي أو اليهودي لمحاربة الإرهاب .

ومن اللافت أن البروفسور شاهين لا يجد ما يدافع به عن العرب سوى التذكير بأنهم ليسوا جميعاً مسلمين، وأن بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين، ومؤكداً أن المجتمع العربي ليس متديناً تماماً كما يعتقد الغرب، بل يحتوي على الكثير من المظاهر العلمانية!.. وأعتقد أنه بهذا لا يختلف كثيراً عن أصحاب تلك النظرة الدونية للإسلام والمسلمين، فالعلاج -في رأي شاهين- ليس بإظهار حقيقة الإسلام وأهله، بل بنفي الإسلام عن كثير من العرب، ثم بنفي التدين عن كثير من المسلمين!

وعليه، فإن إيمان البعض بحتمية انتصار الهوية الكونية يوماً ما قد يسقطهم في فخ المثالية السطحية، وبالرغم من اتساع أفق فهمهم لظاهرة الإنسان، فقد لا يتعدى تفسيرهم للواقع ضيقَ أفقِ النظرة العنصرية التي تحكم هوليود واستعلاءها على بعض الشعوب، لافتقار كليهما إلى القدرة على النفاذ في عمق الصراع بتراكمه التاريخي وتعقيداته الثقافية والدينية.

هل يكمن الحل إذن في الحوار وممارسة الضغوط؟ وهل تجدي هذه المحاولات لإحداث انقلاب شامل في نظرة هوليود إلى العرب والمسلمين، والتي لا تزيد على كونها انعكاساً للصراع بين الشرق والغرب؟

أعتقد أن الضغوط ستُجدي على نحو جزئي، وأنها قد تمنع تصوير أحد الأفلام أو تُغيّر مجرى أحداثه كما حدث في فيلم (مجموع كل المخاوف) سنة 2001، إلا أن المسلمين جربوا ضغوطاً أكبر في مواقف أخرى دون أن ينالوا النتيجة المرغوبة، وأشهر مثال على ذلك حادثة الرسوم المسيئة إلى الرسول r في الصحف الدانمركية والنرويجية، والتي أعقبتها مظاهرات واحتجاجات رسمية دولية ومقاطعات اقتصادية، بل لعل المسلمين لم يتوحدوا في قضية مشابهة منذ انتفاضة الأقصى كما توحدوا ذلك اليوم، ومع ذلك فقد أعيد نشر تلك الرسوم ردّاً انتقامياً، وما زالت ردود فعل اليمين الأوربي تتوالى كل عام في كتب وأفلام وبرامج تلفزيونية لتثبت للمسلمين أنهم سيظلون مكروهين إلى الأبد!

في المقابل، أثبتت المقاطعة الاقتصادية آنذاك أنها ذات جدوى في حال تفعيلها بقوة كافية، بل لعلها الطريقة الشعبية الوحيدة التي يمكن أن تترك أثراً في ظل التشتت العربي والإسلامي والذي لا نجد له مثيلاً في أي أمة أخرى، وسنستبعد خيار قطع إمدادات النفط عن الطرح لاستحالة تطبيقه حالياً!

أما التأثير الإعلامي الحقيقي فيتطلب جهوداً أكبر، في رأينا، من مجرد الضغط، بدءاً بتأسيس شركات الإنتاج والتوزيع السينمائي في قلب هوليود وإدارتها بأموال وخبرات عربية، وهو أمر ليس بالمستحيل، كما أثبتت تجارب كل من مصطفى العقاد وسيد بدرية وحليم جبوري[154]، والتي تمكنت من كسر الاحتكار الصهيوني مع كونها تجارب فردية ومتواضعة. كما نؤكد على الدعوة التي ظل المرحوم العقاد يرددها لثلاثة عقود حول عدم الاكتفاء بتأسيس شركات عربية وإسلامية للإنتاج والتوزيع والإعلام، بل المساهمة في الشركات الإعلامية والإنتاجية القائمة هناك سواء بشراء الأسهم أم البحث عن فرص للعمل أم بتمويل بعض منتجاتها بهدف تغيير مسارها وتعديل قراراتها، وهذا ما قام به العقاد في بداية مشواره عندما انضم إلى قنوات إخبارية أمريكية قبل أن يتوجه إلى العمل السينمائي.

هذا التوجه يلقى اليوم ترحيباً أكبر، وقد أكده التونسي طارق بن عمار -نظرياً على الأقل- عندما شجع الوليد بن طلال وغيره من المستثمرين العرب على شراء المحطات الأمريكية الكبرى أو المشاركة فيها، ونضيف التذكيرَ بأن مجرد المساهمة في شراء أسهم تلك القنوات أو حتى الانضمام إلى مجلس إدارتها لا يكفي ما لم يقترن بالأفعال التي نجد لها آثاراً على أرض الواقع، وإلا تحولت هذه المساهمات إلى عمل تجاري بحت يضخ الأرباح إلى المستثمرين ويقوي نفوذ القائمين عليها ممن يمعنون في الإساءة إلى الإسلام والعرب! علماً بأن هناك العديد من الأسماء العربية المشهورة في مؤسسات إعلامية أمريكية كبرى، ونذكر منها أنطوني شديد في صحيفة (واشنطن بوست) و مايكل صلاح في صحيفة (توليدو بليد) اللذين حازا على جائزة بوليتزر الشهيرة، كما نذكر لوسيل

سلحبي التي تعد أول امرأة في الولايات المتحدة تترأس شبكة تلفزيونية بتوليها رئاسة مجلس إدارة شبكة (فوكس) التلفزيونية، ولا ننسى أوكتافيا نصر ، كبيرة المحررين ومذيعة الربط في تلفزيون (CNN)، وكذلك أحد أشهر الشخصيات في عالم الإذاعة في الولايات المتحدة اللبناني كمال أمين (كيسي)، الذي قدم منذ بداية السبعينيات برنامجي (أربعون كيسي الكبار) و(عدّ كيسي التنازلي)، أما النجم الإعلامي (شيراز حسن) فقد نجح في اختراق هوليود بكل جدارة من خلال برنامجه العالمي (تنسلتاون تي في) وإمبراطوريته الإعلامية على صغر سنه[155].

ومع ترسخ الصورة النمطية للإسلام والعرب في العقلية الأمريكية والغربية وحتى العالمية، بل لدى بعض العرب أيضاً، إلا أن احتمال التغيير سيظل قائماً مهما بدا صعب المنال، فالعقل البشري ينزع دائماً إلى الشك والتساؤل، وهذا ما يجعل الأفكار الجديدة قابلة دائماً للانتشار في كل المجتمعات بعد أن تأخذ وقتها الكافي من الرفض ثم الاعتياد، وصولاً إلى الفضول والتساؤل اللذين يدفعان إلى القبول والتصديق، ويكفي التذكير بانتشار الإسلام في معظم أنحاء العالم الإسلامي بالمعاملة الطيبة والموعظة الحسنة دون قتال أو حصار أو إكراه.

استعرضنا في موضع سابق التحول الذي طرأ على موقف النجم الراحل (مارلون براندو)، إذ كان متعاطفاً بقوة في شبابه مع القضية الصهيونية لما رآه من اضطهاد لليهود في ألمانيا النازية، مما دفعه إلى أداء دوره بكل حماس في مسرحية كتبها الصهيوني (بن هكت) ومدافعاً عن الواجب الإنساني المتمثل في نقل اليهود من أوربا إلى فلسطين، وقد نجحت المسرحية بالفعل في جمع تبرّعات مباشرة لنصرة اليهود في عملية الاستيطان.

وفي أيامه الأخيرة، اعترف (براندو) للمخرج التونسي رضا الباهي بأنه متأسّف جدّاً على دعمه السابق للكيان الصهيوني، فعندما شاهد بعينه واقع المخيّمات التي كان يعيش فيها الفلسطينيون المشرّدون في لبنان أدرك الحقيقة التي ما تزال غائبة عن معظم الأمريكيين، وهي أن اليهود قد فعلوا بالفلسطينيين أكثر بكثير مما فعله النازيون بهم. وإذا كان هذا التحول قد حدث بالفعل مع أحد نجوم هوليود الكبار، فمن غير المستبعد إذن أن يحدث مع أي مواطن أمريكي قادر على التفكير الحر إن أتيحت له الفرصة للتفكير والاطلاع على الحقيقة.

وحتى يتحقق هذا الهدف؛ لا بد من تكاتف القوى والجهود للتحرك على جميع الأصعدة في آن واحد، وإلا فستبقى هذه التحركات مجرد أعمال فردية لا تترك أثراً، وهي أشبه بنفخة في وجه العاصفة، فقد رأينا كيف انتقل العقاد إلى رحمة الله بعد عشرين سنة من البحث عن ممول لفيلمه، وكيف بقي فيلماه اليتيمان في سجل الذاكرة وحدهما لثلاثين عاماً، وإذا نجح العرب والمسلمون يوماً ما في إنجاز فيلم ضخم آخر لنصرة قضيتهم فسيعرض لفترة ما في دور العرض، وقد يثير بعض الأسئلة ويفتح الباب للنقاش، ثم سيصبح جزءاً من التاريخ مهما كان ضخماً ومؤثراً، وستبقى الصور النمطية التي كرستها هوليود على مدى أكثر من قرن هي القاعدة العامة والمؤثرة، لذا ينبغي أن يكون التحرك جماعياً ومنظماً ومستمراً، وأن توظف جميع الإمكانيات وفي كل وسائل الإعلام، وعندها ستجد محاولات المسلمين في دعوة الآخرين إلى الحوار وطرح الأسئلة آذاناً صاغية.

ويبقى سؤال أخير: هل ستُحل المشكلة برمتها في حال وصولنا إلى هذه المرحلة؟..

هنا يجب التمييز بين الإساءة بدافع العنصرية تجاه عرق أو طائفة ما، وبين التحقير المنهجي بوصفه أحد أساليب الحرب المعلنة أو الباردة تجاه أمة أخرى في إطار صراع ثقافي شامل. فالعنصرية التي حكمت نظرة الأوربيين إلى اليهود حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس (إسرائيل)، أو تلك التي ظلت قائمة في الولايات المتحدة حتى الستينيات من القرن الماضي تجاه السود، أو التي ما زالت قائمة حتى الآن تجاه اللاتينيين.. فإنها جميعاً كانت محكومة بثقافة عصرها، وتم التخلص من بعضها أو التخفيف منها مع مرور الوقت. أما دعاية التحقير والشيطنة التي تطبق في أثناء الحرب فهي محكومة باستمرار هذه الحرب أو انتهائها، والتحقير الذي طبقته وسائل الإعلام الأمريكية تجاه اليابانيين مثلاً لم يعد له وجود بعد استسلام إمبراطورهم في الحرب العالمية الثانية، وكذلك الأمر في حالة الحرب الباردة مع السوفييت بعد سقوط الشيوعية، أو مع الهنود الحمر بعد إبادة نحو خمسين مليوناً منهم حتى لم يبق إلا القليل لدمجهم في مجتمع الرجل الأبيض، في حين سيبقى التحقير المطبق حالياً تجاه المسلمين ما دامت الحرب عليهم قائمة سواء كانت باردة أو مسلحة، وهي حرب يرى الكثيرون أنها ستبقى حتى تلغي إحداهما الأخرى أو تتمكن من القضاء على روحها ومصدر قوتها كما حدث في كل من اليابان والاتحاد السوفييتي[156]، ولعل مناقشة هذه النقطة تحتاج إلى بحث آخر.

# كي لا ندفع المزيد من الضرائب!

يروي المخرج الراحل مصطفى العقاد فيما يلي حواراً جرى بينه وبين رجل مسلم: «قال لي: إن ما تفعله حرام في حرام وسيجازيك الله على أفعالك المشينة، كيف تقدر أن تخلق في الصور روحاً لتحركها؟!

سألته: هل الصور التي تصدر في المجلات حرام؟

أجاب قائلاً: لا، هذا تجميد للظل مسموح به.

حاولت عبثاً أن أوضح له أنني فقط أحرك الصورة في السينما ولا أخلق فيها روحاً، وبشيء من العصبية علق قائلاً: هذا كفر!!

ولا يدري أنه دون أن يعلم أعطاني صفة الخلق وهذا من شأن رب العالمين وحده عز وجل.. ألا يدرك هذا الشخص أن الذي اخترع نظرية التصوير كان مسلماً وعربياً وهو الحسن بن الهيثم ؟!»[157].

مع الأسف الشديد، استقبل الكثير من المسلمين بمثل هذا الفكر السينما والتلفزيون، ثم وقفوا حائلاً أمام كل من حاول الرد على افتراءات الصهيونية بطريقة حضارية كان من الممكن أن تجنبنا الكثير مما وقعنا فيه لاحقاً، وظنوا أن ثمة طرائق أخرى (شرعية) ستمكنهم من إيصال صوتهم إلى العالم، فمرت عقود طويلة اتسعت فيها الهوة بين الشرق والغرب، وترسخت خلالها الصور النمطية للمسلمين في أذهان العالم، حتى بات إصلاحها يتطلب جهداً أكبر، ووجدوا أنفسهم في النهاية عاجزين حتى عن الصراخ، فاختار بعضهم أخيراً طريق الرد المسلح!

طوال تلك العقود؛ ظل المسلمون الذين يشكلون سدس سكان البشرية يعوّلون على رجل واحد فقط في هوليود اسمه مصطفى العقاد، وظل هذا الرجل صامداً وحده في هوليود ليمثل أمة بأسرها، مبتدئاً مشواره بالصراع مع المسلمين الذين بذلوا كل جهودهم لإخفاق مشروعه، ثم تابع باحثاً عن دعم لمشروعه عن صلاح الدين عشرين سنة، مختتماً رحلته تلك بالموت قتيلاً تحت الأنقاض، وما زال مليار وربع مليار مسلم يبحثون عن رجل آخر يتجرأ على المتابعة!

المنتج وإمبراطور الصحافة والإعلام (روبرت مردوخ) يقدم دورياً ملايين الدولارات دعماً مباشراً إلى إسرائيل، ويسخّر إمبراطوريته العالمية لمصلحة الصهيونية، أما المنتجون العرب فيتباهى بعضهم بأنهم لا يفكرون إلا بالربح، ويجدون في ذلك تمسكاً نبيلاً بمبادئ الرأسمالية النقية، في حين يكتفي آخرون بظهور أسمائهم العربية في الإعلام الغربي، مقدمين بذلك صورة ناصعة لرجل الأعمال العربي الناجح، وربما الناجح فقط في جمع المال بأي وسيلة!

المخرج والمنتج الصهيوني، وصاحب الاسم الأشهر في هوليود، (ستيفن سبيلبرغ) يتباهى بأنه صاحب قضية، ويقول في لقاء صحفي: «لم يعد النجاح التجاري همّاً لدي، في السابق كنت أريد لفيلمي أن يتبوأ أعلى الإيرادات، لم أكن راضياً بأي نسبة من النجاح باستثناء النسبة الأعلى، الآن كل ما أريده هو أن يغطي الفيلم كلفته، فلسفتي هي أنه إذا نجح الفيلم فإن ذلك يعود إلى قدرتي على التحكم بمصيري، أما إذا أخفق فهو من المسائل القدرية»، ويضيف أنه قد نضج الآن، وأنه خرج

نهائياً من إطار الأفلام الترفيهية مهما كانت مربحة تجارياً[158]. أما المخرجون العرب فيتباهى بعضهم بأنه لا يحمل قضية تذكر سوى قضاياه الشخصية، فهناك من يبحث عن المال، وهناك من يحلم بالنجومية والسجادة الحمراء، أما البعض الآخر فيريد أولاً أن يفهم ذاته ويتعرف هويته، وإلى أن يجدها سنظل نأمل بأن يتبنى قضية تلائمها.

المخرج والنجم الأوسكاري (مل غبسون) صنع فيلم (آلام المسيح) سنة 2004 للتعبير عن مشاعره الدينية، وعندما حاربه اليهود قبل صناعة الفيلم وبعدها استمات الرجل لاسترضائهم وإقناعهم بأنه لا يريد إدانتهم بشيء، وكان بالفعل هو أول من يعرض صورة المسيح -عليه الصلاة والسلام- في هيئة شرقية، بعيون سوداء وشعر أسود، بعد أن درج الغرب على رسمه وتصويره بملامح أوربية. لكن الرجل ارتكب خطأً فادحاً عندما قُبض عليه مخموراً في وقت متأخر من الليل، وشتم -على مسامع الشرطة- اليهود الذين رأى فيهم أصل البلاء والشر، فكانت ضربة قاضية لمستقبله في هوليود، ومع اعتذاره العلني وتبريره بأنها مجرد كلمات خرجت في لحظة غضب وسُكر، إلا أن اعتذاره لم يُقبل، وما زال النجم الأوسكاري مغضوباً عليه لجرأته على المساس بقداسة اليهود.

في المقابل، ومع الرفض الشعبي لمشاركة ممثلين عرب في أعمال مسيئة، لم يكترث عمر الشريف بالرفض الذي قوبل به عندما قبّل شفتي الممثلة اليهودية (باربرا سترايسند) في فيلم (فتاة مرحة) بعد سنة واحدة من نكسة حزيران، ودون أن يمنعه اعتراف (سترايسند) بدعم دولة الكيان الصهيوني من الوقوع في حبها، كما لم تمنع مواقفه هذه الصحافةَ والمهرجانات العربية من تكريمه بعد عودته إلى مصر عندما أفل نجمه في هوليود.

في تايلاند خرجت مظاهرات تندد بتصوير الفيلم الأمريكي (الشاطئ) على أراضيها، لما يقدمه من صورة مشينة لبلادهم على أنها مرتع للمتعة والإباحية والعنف، وعندما قررت هوليود تصوير فيلم عن إعدام رجل أمريكي في بكين لم تجرؤ على التقدم بطلب التصوير على أرض الصين، وقامت بشحن سفينة مليئة بالمنتجات والدراجات والملابس والديكور من الصين لإنشاء حي صيني متكامل وسط هوليود. ولكن عندما يريد أي منتج في هوليود صناعة فيلم يسيء إلى عدة أجيال قادمة من العرب والمسلمين، فإنه يتقدم على الفور بطلب التصوير في الدولة العربية التي تدور فيها الأحداث، وفي حال مواجهة طلبه بالرفض لما يتضمنه من إساءة بالغة فإنه يتحول ببساطة إلى المغرب. وفي الماضي، أوقفت السلطات المغربية تصوير فيلم الرسالة -الذي يحكي قصة الإسلام للغرب- على أراضيها إثر ضغوط بعض المتشددين، ولكنها اليوم لا تجد من يعترض على تصوير أي فيلم يسيء إلى الإسلام نفسه!

القنوات التلفزيونية الأمريكية والأوربية تتسابق إلى عرض الأفلام المسيئة إلى العرب والإسلام، وحسب تصريح (جاك شاهين) فإن فيلم (أكاذيب حقيقية) كان يُعرض كل أسبوع على المشاهدين في أمريكا لفترة طويلة، وما تزال الأفلام المسيئة حتى القديمة منها تُعرض باستمرار على المشاهد الغربي. وعندما صنع الممثل والمخرج الفلسطيني محمد بكري فيلماً وثائقياً عن مذبحة جنين في أثناء الانتفاضة الثانية، وأسماه (جنين- جنين) لم يجد إلا قناة المستقبل اللبنانية لتوافق على عرضه، وبعد أن نجح قضائياً في رفع الحظر عن الفيلم في فلسطين لما يتضمنه من حقائق مرعبة، لم تقبل أي قناة عربية أخرى عرضه على شاشتها للمشاهدين العرب أنفسهم وليس للغرب، في الوقت الذي تستورد فيه هذه القنوات برامج ومسلسلات وأفلاماً أمريكية تحقر المسلمين والعرب، وتعرضها

على أعين المعنيين بالتحقير على مدار الساعة، ثم لا يتجاوز رد فعلها إزاء الضغوط التي يمارسها بعض الغيورين حذفَ مشاهد القبلات الحارة والكلمات السوقية!

في الماضي، كان العرب يستشيطون غضباً عندما يسمعون بنبأ فيلم أمريكي يسيء إليهم، وكانوا ينددون ويقاطعون كل من يعمل في صناعة هذه الأفلام، أما اليوم فيتبادل الشباب العربي صور نجمات هوليود ويعلقونها على جدرانهم، ويدبجون على الإنترنت مقالات الإعجاب والثناء على النجوم والأفلام التي تشوه تاريخهم وتندد بحاضرهم ومستقبلهم.

العرب اليوم يتباهون بالانفتاح على الغرب، ويتسابقون إلى إثبات انسلاخهم من عقدة (نظرية المؤامرة)، ويخجلون من مجرد إطلاق لفظ المقاومة .

العرب اليوم يدفعون ضريبة بحث أجدادهم عن مبرر لتخلفهم في الإسلام، وسيظل أبناؤهم في المستقبل يدفعون المزيد من الضرائب إذا استمر الأمر على هذا الحال، فسنة الله في خلقه لا تعرف المحاباة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

العرب اليوم أضعف من محاكمة العملاء والخونة الذين يتواطؤون عملياً مع قتلتهم، فكيف إذن بمساءلة بعض من يسيء إليهم من أبناء جلدتهم في هوليود؟! الأمل معقود على هؤلاء الهوليوديين العرب أنفسهم، فضمائرهم هي وحدها الحكم، وإن كانوا محقين في عدم اكتراث شعوبهم لأخطائهم فليذكروا أيضاً أنهم لم يكسبوا ود هوليود بعد كل تلك التنازلات، وأن الأدوار المسيئة لن تجرح مشاعر الإرهابيين أو البدو المتخلفين الذين لا تعنيهم هوليود بل ستمثل من يؤديها من الممثلين العرب والمسلمين في عيون زملائهم ومشاهديهم في الغرب، وأن حفنة الدولارات التي يجنيها أحدهم لقاء دور يسيء فيه إلى نفسه وقومه ودينه ليست إلا ثمناً لما تبقى من كرامته الشخصية قبل أي شيء آخر، ثم أداة لاضطهاد المزيد من الأبرياء وقتلهم!

التبرير قد يُسكت إلحاح ضمائرهم لبعض الوقت، وعجزُ العرب والمسلمين عن مساءلتهم قد يمنحهم وقتاً أطول للتفكير، فهل ستدفعهم محاولتنا المتواضعة للتساؤل مجدداً عن موقفهم أمام الله والتاريخ؟

أرجو ألا يخيب أملنا الأخير!

# المصادر والمراجع


- هوليود.. صهاينة يرسمون للأمريكان صورة العرب: أحمد زين، إسلام أون لاين، 25/9/2001 .

- هوليود تشوه صورة العرب والمسلمين:صبحي حمزة، مؤسسة الراية، 23/12/2009 .

- العرب.. 80 عاماً مع (الأوسكار): أحمد رأفت بهجت، مجلة العربي، تموز/يوليو 2008 .

- الأهرام العربي: ريم عزمي، العدد 328، 5 تموز/يوليو 2003 .

صحيفة الخليج: محمد رضا، 28/10/2008 .

- عندما يقلد الحدث السياسي الحدث السينمائي: د. إبراهيم علوش، مجلة نور حواء الإلكترونية .

- شمس الحضارة العربية الإسلامية: د. عمار النهار، دار أفنان، دمشق .

- ماذا لو لم يظهر الإسلام: جراهام فولر، ترجمة أحمد عز العرب، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2008 .

- علم الجمال الماركسي اللينيني: مجموعة من المؤلفين السوفييت، الجزء الثاني .

عام 2000 - حرب المحطات الفضائية: إياد شاكر البكري، دار الشروق، عمان، ط1، 1999، ص241 .

أديب خضور: سوسيولوجيا الترفيه في التلفزيون، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 2، تشرين الأول/أكتوبر- كانون الأول/ديسمبر 1999، ص273 جراهام فولر: ماذا لو لم يظهر الإسلام، ترجمة أحمد عز العرب، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2008 .

د. إبراهيم علوش: عندما يقلد الحدث السياسي الحدث السينمائي، مجلة نور حواء الإلكترونية .

# الهوامش

[1] يبلغ إنتاج بوليود نحو 1000 فيلم سنوياً مقابل 600 فيلم فقط في هوليود.

[2] يربط العقل البشري عادة بين الأفكار والصور والمعتقدات بطريقة شرطية، فعندما نشاهد فرداً من جماعة عرقية أو دينية ما يمارس الاحتيال مثلاً في تعامله مع الآخرين، فسترتبط أدمغتنا لاشعورياً بين جماعته والاحتيال. وعندما تُعرض علينا صورة أخرى لأحد أفراد تلك الجماعة في وقت لاحق، تستدعي أدمغتنا على الفور صفة الاحتيال التي ارتبطت بها وينشأ اقتران شرطي بين الاثنين، وتصبح تلك (الصورة النمطية/ Stereotype) جزءاً من قناعاتنا اللاشعورية في التعامل مع جميع أفراد هذه الجماعة .

[3] أحمد زين: هوليود.. صهاينة يرسمون للأمريكان صورة العرب، إسلام أون لاين، 25/9/2001 .

[4] صبحي حمزة: هوليود تشوه صورة العرب والمسلمين، مؤسسة الراية، 23/12/2009 .

[5] يشكل اللاوعي نظاماً تخزينياً يحتفظ في الذاكرة طويلة الأمد بالمعلومات التي يرفضها العقل الواعي لتعارضها مع المنطق أو القيم الأخلاقية أو المعلومات المختزنة سابقاً، ويؤثر اللاوعي كثيراً في سلوك الإنسان وتقييمه للأمور وردود أفعاله بطريقة لاشعورية .

[6] المرجع السابق .

[7] شخصية العدو في السينما، موقع روسيا اليوم، 14/1/2010 .

[8] منذ ظهور كتاب الباحث الإنجليزي (هنري هاجارد) سنة 1886 الذي أيد فيه فرضية نقل كنوز النبي سليمان عليه السلام من القدس إلى إفريقيا، لم يكف حلم العثور عليها عن مداعبة خيال المؤمنين من الأديان الثلاثة، واستغلت هوليود هذه النظرية لإنتاج فيلم (مناجم سليمان) الذي فاز بالأوسكار سنة 1950، ثم أعاد المخرج (جوناثان فريكس) سنة 2006 إخراج القصة بتقنيات الألفية الجديدة، وكان لا بد من إظهار بعض العرب في صورة اللصوص والقتلة، مع إظهار الماسونية في أبهى صورة، وهما مظهران تكررا بالطريقة نفسها في سلسلة أفلام المومياء التي صُورت بعض أجزائها في المغرب .

[9] صحيفة إيلاف الإلكترونية، 15 أيلول/سبتمبر 2005 .

[10] أحمد رأفت بهجت: العرب.. 80 عاماً مع (الأوسكار)، مجلة العربي، تموز/يوليو 2008 .

[11] صحيفة السفير، العدد10704، 22/05/2007 .

[12] صحيفة السفير، العدد 10704، 22/05/2007 .

[13] شارك الفنان المصري جميل راتب أيضاً في هذا الفيلم من خلال دور ثانوي (ماجد)، وكان راتب قد بدأ مسيرته الفنية في مسارح باريس التي درس فيها التمثيل المسرحي عام 1946، ولكنه

لم يتابع مشواره في هوليود على خطا زميله عمر الشريف بل عاد إلى مصر وفرنسا واحتل موقعه المهم في الدراما المصرية .

[14] لا ننفي حقيقة تخلف العرب في تلك المرحلة من تاريخهم، ولكن إظهار العرب جميعاً على أنهم بدو يعيشون في الصحراء ليس صحيحاً، فحتى في أكثر تاريخهم انحطاطاً كانت حواضرهم عامرة بشتى مظاهر المدنية، والأسوأ من ذلك أن يصر الغرب حتى اليوم على إغفال العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وحذفه من تراثهم وذاكرتهم لتزامنه مع عصر الظلام الأوربي، وكأن التاريخ بدأ مع الإغريق والرومان الذين انفردوا بالحضارة دون بقية الشعوب ثم دخل في غيبوبة طويلة ليصحو من جديد مع النهضة الأوربية، أما العرب فلا تلتفت هوليود إلى وجودهم إلا في عصر انحطاطهم منذ أواخر الحكم العثماني حتى اليوم!

[15] أعلن عمر الشريف في وقت متأخر أنه نادم على دوره في فيلم (تشي) لأنه أساء إليه، مشيراً إلى أنه لم يكن يعرف بوقوف وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (C.I.A) خلف هذا الفيلم، وأنه لم يكتشف الكذب في قصته الملفقة إلا في مرحلة متأخرة. [صحيفة أخبار الخليج البحرينية، 11/28/2008].

[16] الشرق الأوسط، العدد 9719، 8 تموز/يوليو 2005 .

[17] برنامج (مقابلة خاصة) على قناة العربية، 21 حزيران/يونيو 2006 .

[18] الشرق الأوسط، العدد 10064، 18 حزيران/يونيو 2006 .

[19] برنامج (من واشنطن)، وكان عنوان الحلقة: (صورة أميركا بالعالم وصورة العرب والمسلمين بهوليود)، بتاريخ 8/7/2007 .

[20] http://www.100megspop2.com/presca/lauriegoodstein.htm

[21] لا ننسى هنا حصول بعض الممثلين العرب على أدوار لشخصيات غير عربية، ولكنها لم تصل إلى الدرجة ذاتها من الأهمية التي حصل عليها عمر الشريف، ونذكر على سبيل المثال غسان مسعود في (قراصنة الكاريبي) وهاني نعيمة في أدوار ثانوية. والأمر يكاد ينطبق حتى على الممثلين الأمريكيين ذوي الأصول العربية والذين يحملون الجنسية الأمريكية منذ ولادتهم ويعملون بأسماء غربية، فحتى جائزة الأوسكار لم تشفع للممثل (ف. موراي أبراهام) في الحصول على أدوار مهمة منذ حصوله عليها عام 1984 .

[22] يبرر بدرية تجسيده لهذه الأدوار النمطية في هوليود بأن السينما الأمريكية أخذت صورة الإرهابي المسلم من السينما المصرية، كما هو الحال في أفلام عادل إمام!.. وقد يكون هذا صحيحاً ولكنه غير مقبول، فخطأ السينما المصرية لا يبرر أي خطأ آخر، وإذا كان التنميط في العالم العربي قليل الخطورة بسبب معرفة المشاهد العربي حقيقة الإسلام، فالأمر مختلف تماماً في هوليود حيث تُسهل هذه الأفلام المؤدلجة مهمة السياسيين الذين يديرون حروباً ضد (الإرهاب) على أرض الواقع! [تصريح بدرية جاء في برنامج (محطات)، قناة العربية، 28/5/2010] .

[23] ريم عزمي، الأهرام العربي، العدد 328، 5 تموز/يوليو 2003 .

[24] http://main.mashy.com/index.pl/aractors?wid=1359&func

viewSubmission&sid=6618=

[25] محمد رضا، صحيفة الخليج، 28/10/2008 .

[26] المرجع السابق .

[27] الشرق الأوسط، العدد 9013، 2 آب/أغسطس 2003 .

[28] صحيفة البيان، 26/10/2008 .

[29] اسمه الأصلي عماد الفايد .

[30] أحمد رأفت بهجت: العرب.. 80 عاماً مع (الأوسكار)، مجلة العربي، تموز/يوليو 2008 .

[31] نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا .

[32] لقاء مع مجلة عربيات الإلكترونية، 21 آب/أغسطس 2003 .

[33] المهدي عبد الوهاب، الشرق الأوسط، العدد 9390، 13 آب/أغسطس 2004 .

[34] الموقع الرسمي لشيراز حسن www.sheeraz.com .

[35] شيراز يدعو لدعم استوديو للمسلمين في هوليود، الشرق الأوسط، العدد 9390، 13 آب/أغسطس 2004 .

[36] المرجع السابق .

[37] لقد نجح اليهود من خلال سيطرتهم على هوليود في غسل أدمغة الشعوب التي كانت تلصق بهم تلك الصفات الكريهة طوال قرون في أوربا وأمريكا، وحلت بدلاً منها صورة اليهودي العبقري الناجح والمخلص لشعبه وللبشرية، في حين ألقيت جميع تلك الصفات السيئة التي عُرفوا بها على المسلمين، ومن أشهر الأمثلة على هذا السلوك الوضيع: الجزء الثاني من فيلم (والد العروس) الذي عُرض أكثر من مرة في محطات فضائية عربية! حيث يقوم ممثل يهودي بدور العربي (حبيب) الذي يبتز بطل الفيلم بطريقة تعيد إلى ذهن المشاهد الصورة التي كانت لصيقة باليهود في أوربا وتجسدت في الكثير من الأعمال الأدبية مثل مسرحية شكسبير (تاجر البندقية) .

[38] ومن العجيب أن قناة فوكس (FOX) العربية عرضت الفلم .

[39] أشرف خليل، الشرق الأوسط، العدد 10538، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2007 .

[40] د. إبراهيم علوش: عندما يقلد الحدث السياسي الحدث السينمائي، مجلة نور حواء الإلكترونية .

[41] إيهاب التركي: 30 فيلماً أمريكياً عن (الوحل) الأمريكي في العراق، الدستور، 16/4/2010 .

[42] سعيد أبو معلا: بطل فيلم (القيادة إلى زغزغلاند).. بشار القدومي: هوليود تسعى لإرضاء الإدارة الأمريكية، إسلام أون لاين، 20/1/2008 .

[43] وردت تصريحات هاني في برنامج (محطات)، قناة العربية، 28/5/2010 .

[44] انظر: أحمد رأفت بهجت: الشخصية العربية في السينما العالمية، ص 305، وأيضاً: http://www.100megspop2.com/presca/lauriegoodstein.htm

[45] هذه المواقف تذكرنا في الجهة المقابلة باستياء المفكر الأمريكي الفلسطيني (إدوارد سعيد) من اختيار والديه لهذا الاسم الإنجليزي، فيقول في مذكراته: «هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على (إدوارد) وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق (سعيد) اسم العائلة العربي القح» .

[46] المرجع السابق .

[47] http://www.ethicsdaily.com/article_detail.cfm?AID=%20562

[48] الشرق الأوسط، العدد 9167، 3 كانون الثاني/يناير 2004 .

[49] إسلام أون لاين، مرجع سابق .

[50] أشرف خليل، الشرق الأوسط، العدد 10538، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2007.

[51] المرجع السابق .

[52] بهذا المنطق نفسه يمكن تبرير كثافة الإنتاج السينمائي في هوليود وغيرها لأعمال تدور حول (الهولوكوست)، حيث تُجسد مأساة اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد وخطر الإبادة الجماعية على يد النازيين في ألمانيا، ولكن الغاية من هذا الكمّ الهائل من الأفلام والمسلسلات هي ضمان استمرارية الشعور بالذنب في الضمير الغربي جيلاً بعد جيل لتبرير أي جريمة يرتكبها الصهاينة في حق الفلسطينيين فيما بعد. لذا فإن التعاطف مع آلام اليهود في هذه المأساة لا يبرر التساهل مع هذا الإصرار المغرض على التذكير بها ما دامت تُتخذ وسيلة لتبرير جرائم أخرى ستؤدي إلى آلام أكبر لدى شعوب لا ذنب لها! كما أن التعاطف مع آلام ضحايا الإرهاب لا يبرر التساهل مع تكرار تنميط صورة المسلمين كمجتمع إرهابي لتبرير احتلال العراق وفلسطين وغيرهما!

[53] صحيفة المصري اليوم، عدد 1266، 1 كانون الأول/ديسمبر 2007 .

[54] الجمهورية المصرية، 5 كانون الأول/ديسمبر 2007 .

[55] المرجع السابق.

[56] رامي عبد الرازق، المصري اليوم، 29/5/2008 .

[57] إسلام أون لاين، مرجع سابق .

[58] مروة عبد الفضيل: فيلم أمريكي يواجه هوليود.. ويبرئ المسلمين من الإرهاب، موقع إم بي سي، 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2008 .

[59] سعيد أبو معلا: بطل فيلم (القيادة إلى زغزغلاند).. بشار القدومي: هوليود تسعى لإرضاء الإدارة الأمريكية، إسلام أون لاين، 20/1/2008 .

[60] انظر:

(لينا خان) سينمائية أمريكية تدافع عن نمطية المسلمين، الفن أون لاين، 21/8/2008 .

مسلمون شباب يتركون بصمتهم، 23/2/2009 ، www.america.gov.

[61] كندية من أصل باكستاني، تعيد المرح مرة أخرى للأصولية، صحيفة الشرق الأوسط، العدد 9019، 8 آب/أغسطس 2003 .

[62] نقلاً عن شبكة euronews بتاريخ 9/4/2010 .

[63] نقلاً عن صحيفة براقش نت الإلكترونية، بتاريخ 8/4/2010 .

[64] ميدل إيست أونلاين .

[65] سعيد أبو معلا: بطل فيلم (القيادة إلى زغزغلاند).. بشار القدومي: هوليود تسعى لإرضاء الإدارة الأمريكية، إسلام أون لاين، 20/1/2008 .

[66] شاركت في العمل أيضاً مجموعة كبيرة من الممثلين العرب والمسلمين، ومنهم: نيكولاس قاضي، ياسمين حناني، سارة شاهي، سعيد طغماوي، مايكل ديسينت (واسمه الأصلي هاني النعيمة )، وغيرهم .

[67] لخضوع دور السينما للرقابة التي تفلتت منها قناة فوكس فعرضت الفيلم .

[68] قناة الجزيرة، برنامج (الكتاب خير جليس)، العرب السيئون.. كيف تشوه هوليود شعباً، 26/12/2005 .

[69] هذا ما تم التركيز عليه في إحدى حلقات برنامج (Hollywood True Story) الشهير على قناة E tv .

[70] بعد نجاح الفيلم السينمائي الذي يحمل هذا الاسم، قرر منتجو المسلسل السير على خطا الفيلم بتحويل قضيته في الأجزاء التالية من مناهضة عصابات المافيا إلى صراع جهازي المخابرات التركي والإسرائيلي، وقد عمّق عرض هذا المسلسل من الأزمة السياسية العالقة بين الطرفين منذ الحرب على غزة .

[71] برنامج (حوار مفتوح) على قناة الجزيرة، 9/3/2006 .

[72] يذكر أن (بو شارب) عاد إلى مسابقة الأوسكار مرة أخرى مع فيلم أيام المجد (2005)، ولكنه لم يحصل على الجائزة.

[73] بات هذا الأسلوب شائعاً في العديد من الأفلام التي تتعرض لقضايا الإرهاب، ففي فيلم (United 93) المنتج عام 2006، على سبيل المثال، الذي يعرض قصة خطف إحدى الطائرات الأربع صباح الحادي عشر من سبتمبر لاستهداف الكونغرس، تأتي افتتاحية المخرج والسيناريست (بول غرينغراس) بلقطات لشباب عرب يؤدون الصلاة ويقرؤون القرآن في غرفة بإحدى الفنادق الأمريكية، وبالتوازي مع لقطات للمدن الأمريكية وشوارعها النابضة بالحياة، ثم عودة إلى الخاطفين الشباب في أثناء استعدادهم لتنفيذ جريمتهم البشعة، وكل ذلك على خلفية صوتية لتلاوة من القرآن الكريم! والمؤسف هنا مرة أخرى أن يجسد أدوار الخاطفين ممثلون عرب، وهم خالد عبد الله، لويس السامري وعمر بردوني .

[74] ورد هذا التصريح في برنامج (حوار مفتوح) على قناة الجزيرة [موقع الجزيرة نت، بتاريخ 1/9/2009] .

[75] لقاء مع موقع في الفن، 7 أيار/مايو 2006 .

[76] موقع العربية نت، بتاريخ 3 كانون الثاني/يناير 2008م .

[77] تطلق صفة الكتاب المستقبليين (Futurists) في أحد معانيها على المفكرين المعنيين بدراسة أثر التقدم العلمي على جميع جوانب الحياة الإنسانية للمجتمعات والأفراد.

[78] يروي المؤرخون أن أرناط غدر بقوم من مصر عند الشوبك فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، ولكنه استخف بالنبي r وقتلهم، فنذر صلاح الدين أن يقتله إن ظفر به، وعندما وقع الملك وأرناط في الأسر يوم حطين أوقف صلاح الدين أرناط بين يديه وقال له: هاأنا أنتصر لمحمد منك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل فسل سيفه وضربه .

[79] يذكر المؤرخون أن الصليبيين هددوا بتدمير مقدسات المسلمين دون غيرهم من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبقتل من لديهم من أسرى المسلمين، وعددهم نحو خمسة آلاف، عندما خافوا على أنفسهم من المصير الذي لقيه على أيديهم مسلمو القدس من مجازر، فكان تهديدهم رداً انهزامياً بائساً كما في (خيار شمشون)، ولم يكن كما صوره الفيلم على أنه تفاوض شريف جاء بعد اكتشاف حقيقة سخف الأديان، وأنه تدمير للمقدسات التي عبثت بعقول البشر من شتى الأديان ودفعتهم إلى هذا العنف!

[80] الحقيقة هي أن صلاح الدين أطلق سراح (جي رينو) وأعاده إلى زوجته (سيبيلا)، فلجآ إلى طرابلس ثم أنطاكية، وحاولا استعادة صور التي كانت آخر معقل للصليبيين وعلى هدنة مع صلاح الدين، ولكن أميرها لم يعترف به ملكاً فذهب إلى حصار عكا التي كان صلاح الدين قد استردها، ولم تكن النهاية على ذلك النحو الرومنسي الذي اخترعه مؤلف القصة!

[81] يشير بهاء الدين بن شداد في (السيرة الصلاحية) إلى أن المسلمين أزالوا صليباً كبيراً، كان الصليبيون قد نصبوه على قبة الصخرة المشرفة، ولم يجد المؤرخون في ذلك ما يطعن في انفتاح المسلمين على الآخر واحترام حقه في الحياة وحرية العبادة، كما لا نجد اليوم في هذا المشهد المصطنع في الفيلم أي ضرورة لإثبات تسامح المسلمين أو لنفي تهم الإرهاب عنهم!

[82] برنامج (بالعربي مع جيزيل خوري)، موقع قناة العربية نت .

[83] للاستزادة:

- موقع العهد الجديد www.newadvent.org

- الموسوعة العربية، دار الفكر، دمشق.

[84] جريدة تحولات، العدد 1، تموز/يوليو 2005 .

[85] يتفق الممثل المصري خالد نبوي مع غسان مسعود في هذا الرأي، بل يعجب من عدم حصول المخرج على ما يستحقه من تكريم في الوسط العربي! [ورد ذلك في لقاء أجري معه في برنامج (نقطة تحول) على قناة mbc ، الأربعاء 7 نيسان/أبريل 2010] .

[86] من المهم التذكير بأن (ردلي سكوت) سبق أن أخرج فيلم ( Black Hawk Down ) عام 2001 بدعم ومساعدة من البنتاغون، والذي يحكي قصة سقوط طائرة هليكوبتر أمريكية في مقديشو بالصومال، ويقدم الصور النمطية المعروفة لـ (الإرهابيين المسلمين) في هذا البلد الإفريقي .

[87] لمزيد من المعلومات حول أثر الحروب الصليبية الحضاري في أوربا:

- إرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة، بيروت .

- د. عمار النهار: شمس الحضارة العربية الإسلامية، دار أفنان، دمشق .

[88] أسهب المؤرخون العرب في وصف عبادة القائد صلاح الدين وتقواه، والذي لم يفتح القدس إلا بعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدؤوب على الإصلاح الديني والتربوي في مصر والشام، والذي قطع عن نفسه ملذات الحياة منذ اتصاله بنور الدين الشهيد وعزمه على تحرير البلاد من الوجود الصليبي. ولم يتحقق له هذا المجد إلا بعد مواجهة اثنين وعشرين ملكاً أوربياً، وخوض أربع وستين معركة، وتحرير خمسين مدينة وبلدة .

[89] للاطلاع على نموذج للمقالات التي سارعت إلى تقريظ الفيلم والسخرية بمنتقديه، انظر: بدرية البشر: العربي في هوليود، صحيفة الشرق الأوسط، 15 أيار/مايو 2005 .

[90] هذا السرد التاريخي هو نقل للمعلومات التي وردت في الشريط الوثائقي الذي بدأ به الفيلم .

[91] وهي إشارة إلى التحقيق الذي فتح في الولايات المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر 2002 حول تحويل زوجة السفير السعودي المال إلى اثنين من منفذي هجمات أيلول/سبتمبر .

[92] ربما جاء اختيار كاتب القصة لهذا الحي على خلفية الاشتباكات التي جرت فيه بين عناصر الأمن السعودي وأعضاء في تنظيم القاعدة في تشرين الثاني/نوفمبر 2004، ولكن اشتباكات أخرى جرت في العديد من أحياء الرياض، وليس هناك ما يستدعي تنميط أي منها على هذا النحو!

[93] لا تقتصر الخطورة في نظر الفيلم على استمرار وجود القاعدة كأفراد يخضعون لتنظيم سري، بل يُعزى الخطر أيضاً إلى تعاطف المجتمع السعودي وبعض رجال الأمن مع هذا الفكر، وإلى درجة تورط السفير الأمريكي نفسه في الأمر .

[94] جراهام فولر: ماذا لو لم يظهر الإسلام، ترجمة أحمد عز العرب، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2008 .

[95] لعل الاستثناء الوحيد هو فيلم (Redacted) الذي أخرجه (برايان دي بالما) عام 2007، وتم رفضه في هوليود، بل منع من العرض في كل صالات العرض الأمريكية باستثناء تلك الصالات التي يملكها منتج الفيلم!

[96] ذكر السيد أحمد الإبراهيم أنه عمل على تعديل 90% من مشاهد الفيلم، مما يدعونا إلى القلق بشأن حجم الإساءة الهائل الذي كان مقرراً في (السيناريو) الأصلي قبل تعديله! [في حوار نشرته صحيفة الرياض، الخميس 24 شعبان 1428هـ - 6 أيلول/سبتمبر 2007م - العدد 14318]، علماً بأن الإبراهيم "لا يرى أن الفيلم في شكله الذي عرض به في نهاية الأمر سلبي على الإطلاق" [في حوار نشرته صحيفة الشرق الأوسط، الجمعـة 14 شـوال 1428 هـ 26 تشرين الأول/أكتوبر

2007 العدد 10559]، وذلك مع كل ما يمتلئ به الفيلم من إساءات سبق لنا الإشارة إلى نماذج منها!

[97] جريدة البيان، 13/10/2008 .

[98] العربية نت، 22/1/2010 .

[99] مجلة العربي، العدد 544، آذار/مارس 2004، ص 66 .

[100] أحمد رأفت بهجت: العرب.. 80 عاماً مع (الأوسكار)، مجلة العربي، تموز/يوليو 2008 .

[101] موقع الجزيرة نت، 17/5/2001 .

[102] المرجع السابق .

[103] تؤكد الإحصاءات أن السكان الإفريقيين المتحدرين من سلالات الرقيق في شبه الجزيرة العربية لا يشكلون واحداً في المئة من السكان الحاليين، في حين تم تهجير عشرات الملايين إلى الأمريكتين ليشكل الوجود الإفريقي في البرازيل وحدها حالياً نحو مئة مليون! [للمزيد عن هذا الموضوع انظر الاستطلاع الذي أجرته مجلة العربي في زنجبار، العدد 576، تشرين الثاني/نوفمبر 2006] .

[104] تغيب عن العقل الاستشراقي السطحي حقيقة أن قطع يد السارق لا يطبق في حق المساكين وفي قبائل تعاني القحط والفقر، كما لا يجوز استبدال الحد الشرعي بأداء أي خدمة أخرى كرعاية الضيوف مثلاً!

[105] هذه العقيدة التي ترد على لسان الكاوبوي الأمريكي هي بالضبط خلاصة مفهوم الإيمان بالقدر لدى المسلمين منذ صدر الإسلام، وهي التي نفهمها من قوله تعالى: {لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: 57/23]، ومن الحديث الشريف: "اعقلها وتوكل"، أما هذا التواكل فلم نسمع بسيطرته على عقول المسلمين حتى في أكثر عصورهم انحطاطاً! وخصوصاً عندما يصل إلى درجة إقدام أحد المتسابقين على قتل فرسه فور إصابته بجرح في ساقه خلال السباق، أو عندما نكتشف أن أصل هذا التخلف يعود إلى القرآن عندما يشرح لنا (الصقر) أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وعليه فلا يجوز للمسلم حتى أن يحاول الفرار من الموت!..
وأتساءل هنا كيف يُصدق المشاهد الغربي إمكانية بقاء شعب على قيد الحياة طالما ظل يؤمن بعقيدة كهذه، والتي لا بد أن تستلزم الامتناع حتى عن التداوي في حال المرض؟!

[106] حددت الشريعة حد البكر بمئة جلدة، وحد المحصنة (المتزوجة) بالرجم، ولكن الحد لا يطبق إلا في حال اعتراف الفاعل بفعله، أو أن يراه أربعة شهود عدول رأي العين وبطريقة لا تترك مجالاً للشبهة والشك، وهو ما لم يقع في التاريخ الإسلامي كله .

[107] يصر الفيلم على إظهار البطل الأمريكي في صورة الرجل العفيف، فهو لا يكترث لإغراء سيدة أرستقراطية بريطانية جاءت للمنافسة في السباق، كما يتعامل مع (جزيرة) التي ينقذها من خاطفيها بالرغم من خلوتهما في الصحراء بأخلاق لا تذكرنا سوى بالصحابة، وهو ما يثير إعجاب الفتاة التي لم تر مثل هذا الرقي فتتوسل إليه أن يرفع النقاب عن وجهها، حيث لم ينظر إليها أحد

من قبل بمثل هذه النظرة الطاهرة، وهي نظرة تختلف كثيراً عن تلك التي يقدمها (الكاوبوي) على أرض الواقع في العراق!

[108] نحن لا ننكر صحة الكثير مما يرد من النقد في حق البدو، ويكفي ما ورد من وصف للأعراب في القرآن الكريم، ولكن العنصرية والتحقير أمر لا يجوز في حق أي شعب أو عرق أو دين، وخصوصاً عندما يصر الغرب على إلصاق صفات البداوة بالمسلمين والعرب جميعاً، بل وصل الأمر بصانعي هذا الفيلم إلى تصنيع بطل أمريكي مهجن؛ من أب أوربي وأم من الهنود الحمر، ليجمع في دمه نبل البيض وشجاعة السكان الأصليين وهما صفتان يُحرم منهما العرب بالإكراه!

[109] يُذكر أن هذا الفيلم عُرض مترجماً على إحدى قنوات ( mbc )، ومن الطريف أن يتزامن عرضه في إحدى المرات مع عرض فيلم (العودة إلى مناجم سليمان) بكل ما فيه من إساءة على قناة أخرى من طاقة هذه المجموعة العربية .

[110] صحيفة الشرق الأوسط، العدد 8903، 14 نيسان/أبريل 2003 .

[111] تسببت مشاركة (فرحاني) في هذا الفيلم بمشكلة مع السلطات الإيرانية لعدم التزامها بالتعليمات المفروضة على الممثلين الإيرانيين عند مشاركتهم في أفلام أجنبية، مما أدى إلى منعها من السفر في العام نفسه إلى هوليود للمشاركة في فيلم آخر، علماً بأننا لم نسمع بوجود مثل هذه التعليمات في الدول العربية [نقلاً عن صحيفة (الجمهورية) المصرية]، كما أدى ظهورها في حفل افتتاح الفيلم في نيويورك، كاشفة الرأس وهي ترتدي ملابس قصيرة، إلى إثارة الكثير من الجدل داخل إيران .

[112] سنكتفي بمناقشة مغالطة واحدة عندما يتلو أحد المتطرفين، وهو ممثل مصري، الآية الكريمة: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة: 9/12] مع استبدال كلمة (إيمان) بكلمة (أيمان)، لتترجم الآية إلى المشاهد الغربي على أنها تأمر بقتل من لم يكن مؤمناً! مع أن الآية وردت في حق المشركين الذين نقضوا الأيمان أي العهود، وتختتم الآية بقوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}، وقد علّق المفسر البيضاوي كلمة لعل بكلمة قاتلوا، أي "ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه [ويقصد الخيانة ونقض العهود]، لا إيصال الأذية لهم"، ولكن الممثل المصري يضيف من جعبته خاتمة أخرى للآية تقول: هذا هو جزاء الكفرة والمشركين!.. فأي ضريبة أقبح من هذه لوصول هذا الممثل المغمور إلى هوليود!

[113] جريدة الحقيقة الدولية، 19/11/2008 .

[114] نقلاً عن موقع شام برس الإلكتروني .

[115] أجد نفسي مضطراً للإشادة ببراعة الممثل (الإسرائيلي) في تقمص هذه الشخصية على نحو مغاير للصورة النمطية المعتادة، وهي الصورة التي كرّسها الممثلون العرب مثل عادل إمام وأحمد بدير قبل غيرهم من الأمريكيين و(الإسرائيليين)، حيث يختلط الأداء المسرحي بالسينمائي ويفرط الممثل في مبالغاته المليودرامية غير المقنعة، وكأنه يسفر عن حقد شخصي يدفعه للتمادي في السخرية على حساب جودة العمل وواقعيته .

[116] في لقاء أجري مع بطلة الفيلم (سارة جيسكا باركر) لبرنامج (سكوب) على قناة ( mbc ) بتاريخ 3/6/2010، كشفت (باركر) عن إعجابها الشديد بكل ما رأته عن قرب من مظاهر الإسلام والتقاليد الشرقية أثناء التصوير في المغرب، بدءاً من روائح التوابل ووصولاً إلى الصلوات الخمس، مع أن الصورة التي قدمتها (باركر) مع زميلاتها في الفيلم للشرق الإسلامي تبدو مختلفة تماماً، فحتى القهوة العربية التي ترمز لكرم الضيافة بدت لهن في غاية المرارة والقرف. فهل نحن إذن أمام مؤامرة تمنع عرض أي صورة حسنة لهذه البلاد، حتى عندما تكون حقيقة يؤمن بها ممثلو هوليود أنفسهم؟ وإلى متى سيتقبل الهوليوديون هذه الازدواجية بين ما يلمسونه عن قرب وما يُفرض عليهم تجسيده على الشاشة؟ وإذا كان هذا الموقف يذكرنا بتجربة مشابهة مر بها النجم الراحل (مارلون براندو) في أثناء وجوده في المغرب أيضاً، وسبق الحديث عنها في هذا الكتاب. فلماذا لا تُستغلّ فرصة وجود هؤلاء النجوم في دول عربية ومسلمة واحتكاكهم بأهلها لتقريب وجهات النظر، وبالطريقة نفسها التي يتأثر بها العرب عندما ينتقلون إلى هوليود وإلى درجة التخلي عن هويتهم؟!

[117] الشرق الأوسط، العدد 8627، 12 تموز/يوليو 2002 .

[118] يعد ترشيح هذا الفيلم لعشر جوائز أوسكار من أكبر مهازل هذه المسابقة في تاريخها، فمن غير المعتاد أن يرشح فيلم تجاري ترفيهي لجائزتي أفضل فيلم وأفضل مخرج، حتى إن لم يفز بهما، ولكن رسالته العنصرية الفجة سمحت له بالحصول على ست جوائز أخرى، وهي أفضل مؤثرات صوتية ومؤثرات مرئية ومونتاج وصوت وموسيقى وإخراج فني .

[119] قد تصل مكاسب الأردن من تصوير أحد الأفلام ذات الميزانيات الضخمة إلى 24 مليون دولار، وتتوزع على عائدات القطاع السياحي والطيران وأجور العاملين وغيرها، كما تسوّق بعض الأفلام للمناطق السياحية التي يتم التصوير فيها على نحو غير مباشر .

[120] د. إبراهيم علوش: فيلم (إسرائيلي) ركيك صور في الأردن بالتعاون مع هيئة الأفلام الملكية، مجلة الصوت العربي الحر الإلكترونية .

[121] 6 شباط/فبراير 2008 . http://www.ameinfo.com/ar-90676.html

[122] د. إبراهيم علوش: (فيلم منقح/ Redacted): عوقب بالمقاطعة لتجاوزه خطوط هوليود الحمر حول العراق، مجلة الصوت العربي الحر الإلكترونية .

[123] تُقدر مكاسب الأردن من هذا الفيلم بنحو سبعة ملايين دولار أمريكي. [مريم نصر، صانعو الأفلام في هوليود يجدون مكانهم في الأردن، جريدة الغد، 7/3/2010] .

[124] 6 شباط/فبراير 2008 . http://www.ameinfo.com/ar-90676.html

[125] ميدل إيست أونلاين، 17/4/2006 .

[126] مجموعة من المؤلفين السوفييت: علم الجمال الماركسي اللينيني، الجزء الثاني .

[127] علاء عبد العزيز: السينما.. والبحث عن دور إسلامي، موقع إسلام أون لاين، 19/4/2004 .

[128] إياد شاكر البكري: عام 2000 - حرب المحطات الفضائية، دار الشروق، عمان، ط1، 1999، ص241 .

[129] جريدة الثورة السورية، نقلاً عن اللوموند، 20/10/2007 .

[130] علاء عبد العزيز، مرجع سابق .

[131] أديب خضور: سوسيولوجيا الترفيه في التلفزيون، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 2، تشرين الأول/أكتوبر- كانون الأول/ديسمبر 1999، ص273 .

[132] قناة الجزيرة، برنامج الكتاب خير جليس، العرب السيئون.. كيف تشوه هوليود شعباً، 26/12/2005 .

[133] بتاريخ 19/2/2007 .
http://arabic.cnn.com/2007/entertainment/1/20/24.muslims/index.html

[134] الشرق الأوسط، العدد 10337، 18 آذار/مارس 2007 .

[135] بتاريخ 19/2/2007 .
http://arabic.cnn.com/2007/entertainment/1/20/24.muslims/index.html

[136] جراهام فولر: ماذا لو لم يظهر الإسلام، ترجمة أحمد عز العرب، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2008 .

[137] موقع الجزيرة نت، بتاريخ 16/11/2001 .

http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=20315

[138] سعيد أبو معلا: خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، مجلة العربي، العدد 564، تشرين الثاني/نوفمبر 2005، ص187 .

[139] برنامج (نقطة تحول) على قناة ( mbc )، الأربعاء 7 نيسان/أبريل 2010 .

[140] http://www.100megspop2.com/presca/lauriegoodstein.htm

[141] موقع الجزيرة نت، بتاريخ 16/11/2001 .

http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=20315

[142] قناة الجزيرة، برنامج الكتاب خير جليس، العرب السيئون.. كيف تشوه هوليود شعباً، 26/12/2005 .

[143] قناة الجزيرة، برنامج من واشنطن، صورة العرب والمسلمين في السينما الأمريكية .

[144] لم أتمكن في الحقيقة من معرفة طبيعة الدور الاستشاري الذي قدمته (كير) في الفيلم وكيف أثّر في أحداثه، فهذا الفيلم الكرتوني الضخم قائم بالأساس على الأساطير التي تمجد بني إسرائيل في أثناء وجودهم في مصر، وتعيد إلى الأذهان خرافة كونهم بناة الأهرام وصانعي الحضارة

المصرية، وقد حقق الفيلم نحو 200 مليون دولار وشارك في أدائه الصوتي نجوم كبار مثل (ساندرا بولوك) و(ميشيل بفايفر)، كما قدمت نجمات في الغناء أغاني مصاحبة للفيلم مثل (ويتني هيوستن) و(ماريا كيري) .

[145] موقع الجزيرة نت، بتاريخ 16/11/2001 .

http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=20315

[146] صحيفة الرياض، الخميس 24 شعبان 1428هـ، 6 أيلول/سبتمبر 2007م، العدد 14318 .

[147] الشرق الأوسط، العدد 8097، 28 كانون الثاني/يناير 2001 .

[148] http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/programmes/newsid_6071000/6071006.stm

[149] هذا التوسع في الاحتكاك بين الطرفين لا بد أن يؤدي إلى نتائج أخرى على الطرف العربي والمسلم، فإذا كان البعض يستبشر بالاستفادة من تقنيات هوليود وكفاءاتها فليست هي وحدها التي يتم تصديرها إلينا، إذ لم يسبق مثلاً ظهور ممثلين عرب عراة، أو نطقهم بشتائم جنسية، أو تلقين ممثل قاصر كل أشكال الأفلام الإباحية ليتقن أداء دوره بائعاً لها على قارعة الطريق في بغداد!

[150] لا بد من التذكير بأن هذا التفاؤل لا ينفي استمرار أسلوب التحقير التقليدي، ولكن ربما بنسبة أقل من جهة الكمّ، ففي فيلم (هيدالغو) (2004) مثلاً تعاد الأساطير نفسها التي تبنتها هوليود حول بلاد ألف ليلة وليلة منذ قرن كامل، وكأن عقلية الكاوبوي المتطرفة عصية على التطور والانفتاح حتى في أسلوب التحقير ذاته!

[151] من المهم التأكيد على حقيقة أن هوليود، وبوصفها مركزاً مهماً لتصدير الثقافة الأمريكية، فهي خاضعة بطبيعة الحال لتقلبات الوسط الثقافي في مجتمعها مما يعني حتماً عدم تجانسها، وخصوصاً في مجتمع ديمقراطي يتيح -ولو جزئياً- التعددية في الرأي، فقد أنتجت هوليود عدداً لا بأس به من الأفلام التي تنتقد وبشدة الكثير من جوانب الثقافة الغربية- الأمريكية، أو حتى تتنبأ بنهاية وانهيار الحضارة الغربية، مثل (الاستدعاء العام)، (عالم الماء)، (الهروب من نيويورك) و(محارب على الطريق)، بل تُعد بعض الأفلام الوثائقية الناقدة من أكثر الوثائقيات شهرة وشعبية لدى الجمهور الأمريكي؛ مثل أفلام مايكل مور وفيلم (حقيقة مرعبة) لمرشح الرئاسة السابق (ألبرت غور) .

[152] سمير عواد: العرب أونلاين، 26 آب/أغسطس 2008 .

[153] د. إبراهيم علوش: عندما يقلد الحدث السياسي الحدث السينمائي، مجلة نور حواء الإلكترونية .

[154] سبق التعرض لهذه التجارب في مواقع متفرقة من الكتاب .

[155] مع كل هذا الحضور الإعلامي فما زال العرب والمسلمون بعيدين عن أداء أي دور فاعل في شركات الإنتاج السينمائي والتلفزيوني الكبرى في هوليود، ومن المؤسف للغاية أننا ما زلنا

أسرى عقدة العجز التي ورثناها منذ (النكسة)، حيث تسود مشاعر الإحباط والإخفاق واستحالة التأثير، مع كل ما بذله العقاد طوال ثلاثين سنة من جهود مدعومة بالتجربة لإقناع العرب بأن اقتحام هوليود ليس بالمعجزة، وأنه لا يتطلب سوى بعض الإرادة والتنظيم والاستثمار بقليل من ثرواتنا المهدرة .

[156] يصنف العالم اليوم وفقاً لنظرية (صراع الحضارات) للمفكر الأمريكي (صموئيل هنتنجتون) إلى سبع حضارات، وهو يرى أن الحضارة الغربية -الأقوى- ستبقى حتماً في صراع مع واحدة منها وهي الإسلام، وأن الصراع قائم حتى تلغي إحداهما الأخرى، أما (فرانسيس فوكوياما) فيؤكد في نظريته (نهاية التاريخ) أن الحضارة التي ستتغلب في النهاية هي الحضارة الغربية، والتي ستسود العالم حتماً بقيم الديمقراطية والحداثة. ومن الملاحظ أن السياسة الغربية الخارجية -والأمريكية منها على وجه الخصوص- تؤمن فعلاً بهذه النظريات بالرغم من الغطاء الدبلوماسي، ونحن نرى أن الصراع لا يستلزم من المنظور الإسلامي نفي الآخر أو القضاء عليه، ولا يتعدى الأمر نشر الدعوة بين الأمم دون ضرورة بسط النفوذ وسلب الثروات، كما هو الحال في المفهوم الغربي الإمبريالي .

[157] لقاء مع مجلة عربيات الإلكترونية، 21 آب/أغسطس/2003 .

[158] لقاء مع محمد رضا، الشرق الأوسط، العدد 8655، 9 آب/أغسطس/2002 .